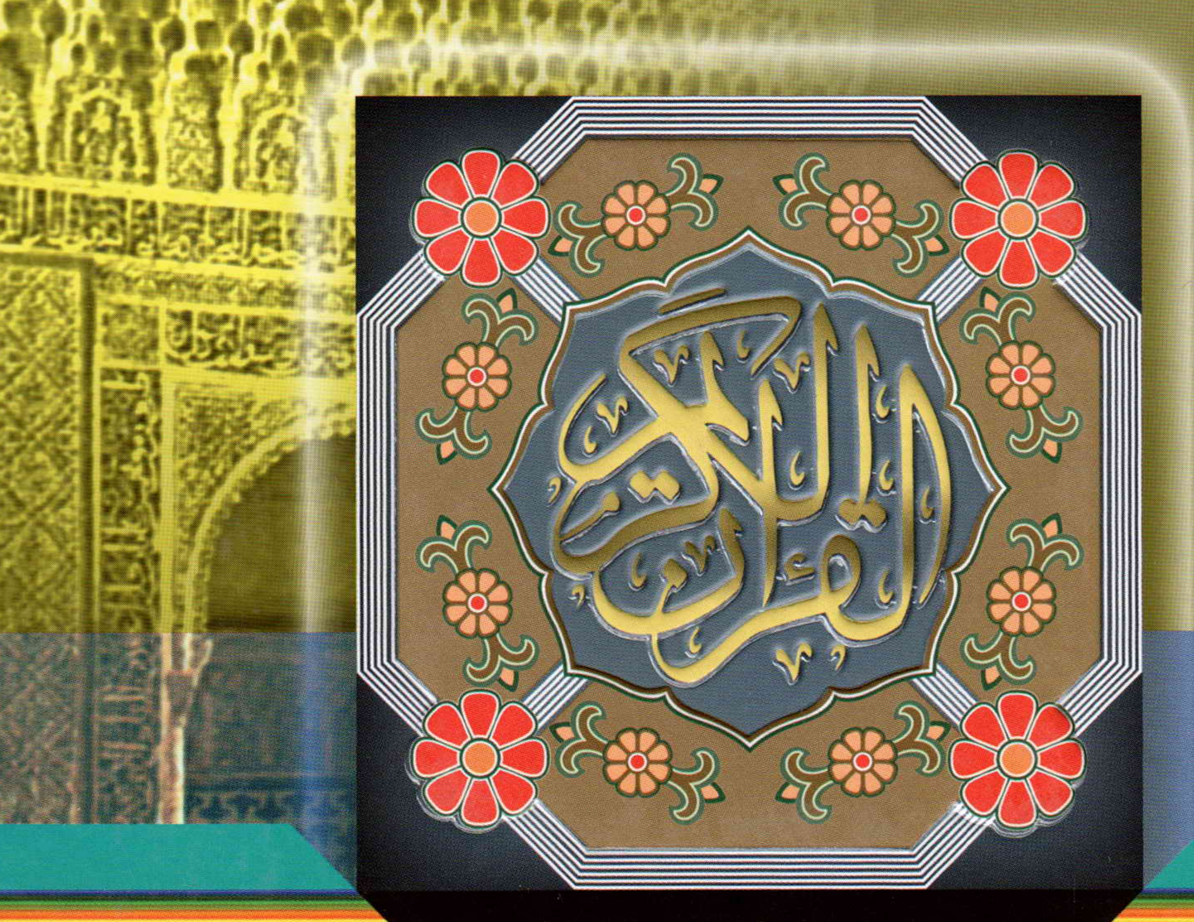
السيد عبد الحسين دستغيب





دار البلاغة



حقائق من القرآن

السيد عبد الحسين دستغيب

حقائق من القرآن

ترجمة

لجنة الهدى





الطبعة الثالثة
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - هاتف: 5 / 334 544 9611+ - فاكس: 787 546 9611+ - ص.ب:16/25 الغبيري
E-mail: dar_albalagha@hotmail.com

بسم الله الرحمٰن الرحيم

المقدمة

قبل عامين طبع كتاب « المعاد » للمؤلف ونشر ، وهو من مجموعة أبحاث متسلسلة في أصول العقائد للسيد عبد الحسين دستغيب « قدس سره » ، وقد حظي باستقبالٍ رائعٍ من القرّاء الكرام ، وانتشر إلى أقصىٰ نقاط المعمورة ، فنهلوا من رويه العذب ، وترجمه ذوي الإختصاص إلى اللغة الإنكليزية ، وقدموه كبحث يتناول يوم الحساب والجزاء ليستفيد منه رواد الفكر ورجال العلم الأجانب .

حقائق من القرآن استكمال للمعاد :

لما شاعت النظرة المادية ، وساد التوجه المادي بين أوساط الناس ، حتى أضحىٰ خطر المادية يهدد المجتمع الإنساني ، بات من الضروري التوجه إلى الإرشاد والتبليغ للأمور الروحية النابعة من الدين والعقيدة الإلٰهية ، وتقوية المعنويات ، صيانة للمجتمع ، ووقاية له من الخطر المادي الداهم ، وأضحىٰ واجباً توجيه الناس وتذكيرهم بالآخرة ومشاقها وعوائقها . والكتاب الذي بين يديك هو مساهمة نافعة في هذا المجال ، فهو يتناول في بعض فصوله الآخرة ،

وهو في الواقع استكمال لكتاب « المعاد » ، لأنه يتناول تفسير سورة القمر المباركة .

عبارات قليلة ذات مضامين كثيرة :

عند الرجوع إلى فهرس هذا الكتاب ، ومطالعته سترى كم من المضامين والمواضيع الكثيرة ، قد جرى استيعابها في هذا الحجم المقتضب من الكتاب ، وحينما تقرأه وتطلع على محتوياته ، فانك ستكون على علم ومعرفة حول معجزة شق القمر ، ومرور تاريخي سريع على الجهود والأتعاب التي بذلها رسول الله صلى الله عليه وآله وأنواع الأذى والصعاب ، والمعاناة التي لاقاها صلوات الله وسلامه عليه من قبل مشركي قريش .

وفي الفصل الثاني من الكتاب تأريخ مقتضبٌ للسالفين من الأقوام كقوم نوح ، وعاد وثمود ولوط وفرعون وكيف كان هلاكهم ودمارهم بعد شركهم وكفرهم ومعاصيهم ، كلُّ ذلك تقرأه بلسانٍ جميلٍ ولغةٍ سهلةٍ بسيطةٍ واضحة البيان . . .

وفي الفصل الثالث ستكون على إطلاع حول أحداث ووقائع جرت في صدر الإسلام وابتداء الدعوة النبوية من أمثال تآمر المشركين وتكالبهم وعدائهم لرسول الله (ص) ومعركة بدر الكبرى وأخبار الغيب التي وردت في القرآن المجيد والمتعلقة وانتصار المسلمين وظفرهم على الكافرين والمشركين وكذلك فيما يخص تحذير المشركين وتهديدهم بعذاب الآخرة وما سيلاقونه يوم القيامة وغير ذلك .

أما في الفصول الأخرى فستنال نصيباً من العلم حول حقائق جمة ، منها ما يتعلق بعالم الخلق والأمر أو التكوين والإرادة ومسائل القضاء والقدر الإلٰهي ، والتقدير والتدبير ، واللوح المحفوظ ، وصحيفة الأعمال ، وفي آخر فصل من الكتاب ستطلع أيها القارىء العزيز ، وتقرأ عن أحوال المتقين والزاهدين في

الدنيا والورعين وما خبىء لهم من نعيمٍ عظيمٍ خالدٍ في روضات الجنات ومقاعد الصدق والكرامة والرضوان الإلهي في جوار ربّهم الكريم .

وعندها ستلاحظ كم هو غني هذا الكتاب ، رغم حجمه الصغير ، وصفحاته القليلة بما يضم في طياته من المواضيع والبحوث القيّمة ، وكم فيه من الأخبار والحقائق والمعلومات ما يُعزّز الإعتقاد لدىٰ الإنسان المؤمن ويُكملُ دينه .

وبالمناسبة نتوجه بالشكر والتقدير هنا لجميع الأصدقاء والهواة الذين أبدوا تعاوناً في مجال الدعاية لمنشورات هذه المكتبة ، وخاصة السادة « إخوان حسين زادگان » الذين بذلوا جهودهم في طبع ونشر هذا الكتاب .

ولم يبق ما نقوله سوى أن جميع هذه المواضيع والمضامين المركزة قد صُبّت في هذا الكتاب بلغةٍ سهلةٍ بسيطةٍ واضحةٍ تليق بفهم العوام من الناس حيث أزيل عنها أي تعقيد وغموض وصعوبة ، وقد جرىٰ طبع هذه الشروح والإيضاحات الجميلة والروحية المنسابة مع شيء يسير من التصرف .

وحَقٌّ علينا أن نَذكُرَ ونُذكّر بنعمة الله علينا ، عسى أن نوفق للشكر عليها فيصدق علينا مضمون قوله تعالى : ﴿**وأما بنعمة ربّك فحدث**﴾ .

العالم النزيه نعمة :

لا ريب أن وجود عالم فقيه طليق وبعيد عن أهواء النفس وحب الرئاسة والجاه والشهرة بين أظهرنا هو نعمة لا يمكن تصوُّر قيمتها وربما لا تضاهيها نعمة أخرى أي إن رجلاً متفقهاً عارفاً بأحكام آل محمد (ص) ولكنه لا يغلب هوىٰ نفسه فانه لا يتورع عن أن يُفسّر ويبيّن كما تُملي عليه أهواء نفسه .

النموذج البارز والتّام :

وكما بيّنا في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب « إثنان وثمانون إستفهاماً » أنه وبشهادة كل أولئك المقرّبين من سماحة آية الله دستغيب ويعرفون سماحته حقّ المعرفة ، فانه رضوان الله عليه كان نموذجاً رائعاً للعالم العامل بعلمه والفقيه الحُر بكمال المعنىٰ ، ولم يُر أحدٌ يضاهيه بعلمه ، حيث بلغ من العلم والإجتهاد ما أقرّ به وأيّده كبار المراجع من العلماء الأعلام . وأما أولئك الفضلاء الذين حضروا دروسه ، وانتفعوا بها ، فإنهم يُقرُّون بنُدرةِ مَنْ لهم مثلَ آستنباطه وبيانه . (رض) ، وأما بالنسبة لمراتب علمه ، ودرجات زهده ، وتقواه فلذلك أيضاً يذعن العلماءُ الأعلام ، ولعلّ أعظم شاهد على ذلك ، وكما تعلمون ما جرى في ليلةِ السبت ، العاشر من ربيع الثاني الموافق للثالث عشر من آب عام ١٩٦٤ بعد عودته (رض) إلىٰ شيراز ، حيث زُفَّ به إلىٰ المسجد بكل ذلك التكريم والإجلال ، وقد عطّل كل السادة العلماء الأعلام في مدينة شيراز جماعاتهم ومساجدهم مجتمعين في مسجده مُأتمّينَ به ، وحقاً إن قيل : إن صلاة الجماعة في تلك الليلة ، لا مثيل لها حيث آقتدى بسماحته عشرات الآلاف من المؤمنين ، وكان ذلك مثالاً للإئتمار والتعاون والإنسجام بين الأهالي وكذلك دليلاً علىٰ إلتفات الناس حوله واعتمادهم عليه .

ذلك فضل الله :

علىٰ الدوام وكما ذُكر ، فان وجود العالم النزيه المُنزّه ، والفقيه الورع الحُرّ هو بحدّ ذاته نعمة من النعم الإلٰهية ، ومع ذلك فلو أنّ العناية والرعاية الإلٰهية صحبت هذه النعمة ، وشملت الأمّة ، وجرى خيرها ونفعها على الجميع ، فان ذلك نعمة فوق نعمة وخير على خير .

ولقد كان شهيد المحراب آية الله « دستغيب » ـ قدس سره ـ ذلك الرجل

الذي جعله الله سبحانه من العلماء العاملين النشطين ، فهو فضلاً على ما يقوم به من تدريس مبرمج ومنظم للفقه والأُصول وبحوثه التفسيرية والبيانية التي كانت تتمُّ كل ليلة واستمرت لسنوات وسنوات (ونموذج ذلك هو هذا الكتاب الذي في متناول أيدينا وكذلك تفسير سورة النجم الذي طُبع مرتين) وبحوثه في أُصول العقائد (التي يعتبر كتاب المعاد نموذجاً لها) ، فانه (رض) فضلاً عن جهوده تلك كان في بعض الأحيان يحضر بنفسه إلى الحوزات العلمية والإجتماعات العامة ، فيستلهم المسلمون من فيض علمه ومعرفته .

الهيئة الإدارية

لمكتبة مسجد الجامع العتيق في شيراز

مقدمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰن الرَّحيم

إنّها لمن أعظم وأجلّ آيات القرآن المجيد ، وقد حدّث الإمام الرضا (ع) في شأن ﴿بسم الله الرّحمٰن الرحيم﴾ فقال : « إنها أقرب إلىٰ آسم الله الأعظم من ناظر العين إلىٰ بياضها » كما عدد ذلك في كتاب لآلىء الأخبار ، أي أن شرائطها ومصاديقها ، لو آجتمعت فسيكون لها أثرٌ وفعلُ آسم الله الأعظم .

يقول أمير المؤمنين (ع) . سمعت رسول الله (ص) أنه قال : « كل أمر ذي بالٍ لم يبدأ ببسم الله الرحمٰن الرحيم ، فهو أبتر »[1] والأمر هنا هو كل قول وحركة وفعل ، وأي عمل من الأعمال تقوم به ، فانه إن لم يبدأ بالبسملة فلا نهاية تُرجىٰ منه .

إن طيب المنتهىٰ وحسن العاقبة لكلّ عمل وفعل إنما هي من نصيب ذلك العمل والفعل الذي يُشرَعُ فيه بآسم الله . ، ويؤكد الإمام الصادق (ع) علىٰ أهمية البدء بها وعظمتها فيقول : « لا تدعها ولو في شعر »[2] أي لا تغفل عنها

---

(١) الكافي .

(٢) الكافي .

ولو انك تتلو أبياتاً من الشعر .

« بسم الله » تُبعد الشّر وتدفع الضرر :

ذُكِرَ في كتاب لآلىء الأخبار : أن أمير المؤمنين قال في يوم من الأيام من علىٰ المنبر بما مفاده : « إنني ضامنٌ لكل من شرع في متناول طعامه ببسم الله ، ولم يغفل عنها أن لا يُصيبَه ضرر في صحته من طعامه هذا » .

أراد ابن الكوى ، وهو شخص معروف بالنفاق وكان يضمِرُ العدواة والبغض لأمير المؤمنين علي (ع) ، أراد أن يدحض قول أمير المؤمنين (ع) الآنف ، فقال له « حين تناولت طعامي البارحة بدأت بـ « بسم الله » ولكن صحتي تدهورت بعد فراغي من الطعام ، فقال له أمير المؤمنين (ع) : « فلعلّك أكلت ألواناً فسمّيتَ علىٰ بعضها ، ولم تُسمِّ علىٰ بعض »[1] أي إن الإمام أراد أن يقول له إن أردت دفع ضرر الطعام عن نفسك فعليك أن تسمِّي على كل نوع ولون من الغذاء حين تشرع بتناوله ، وهذا من الآداب التي جعلها الإسلام عند تناول الطعام والحريّ بكل واحدٍ منها أن لا يغفل عن ذلك لما فيه من الثواب أولاً والصحة ثانياً .

وفي رواية أخرى إن أحدهم جاء إلىٰ الإمام الصادق (ع) ، وقال له يا بن رسول الله إنني دائماً عند تناول الطعام أشرعُ بـ « بسم الله . . . » ومع ذلك ، فان الأذى والضرر يُصيبني ، فقال له الإمام (ع) وكما هو نص كلامه في لآلىء الأخبار : « إذا قطعت التسمية بالكلام ثم عدت بالكلام تُسمي ؟ ، قلت : لا ، قال (ع) : فمن ها هنا يضرُّك » أي إن الإمام (ع) يريد أن يبيِّن له أنه ربّما يبتدأ الأكل بالبسملة فيتخلّل تناوله حديث عارض فيقطع البسملة ، لذا عليه أن يكررًها كي يستمرَ أثرُها .

---

(١) لآلىء الأخبار .

وفضلاً عن المردود المبارك لذكر اسمه تعالىٰ بالرحمانية الرحيمية والشروع به فانه يطرد شر الشيطان ويمنعه من المشاركة في تناوله الطعام ، وكذلك الحال في جميع الأمور وخاصة عند المواقعة والجماع ، يجب ذكر البسملة ولا بُدّ من عدم الغفلة عنها وتركها ، لأن ذلك يعني تدخّل الشيطان في شؤون المؤمن ومشاركته إيّاه في كل أموره عند الإستغناء عن البسملة الشريفة ، وخصوصاً فيما يتعلق بالمشاركة في الأموال والأولاد ، وهو الأمر المسلَّمُ به ، وبصريح النص القرآني إذ يقول : ﴿**وشاركهم في الأموال والأولاد**﴾[١] .

يجب ذكر البسملة في كل حال من الأحوال :

فالهدف الأسمىٰ لهذه الآية المباركة أي « البسملة » وفي كل الأحوال هو أن تظلّ تُرَدَّدُ وتَلهَجُ بها ألسُنُ المؤمنين ويلزمُ عدم إهمالها والغفلة عنها في أي حالٍ من الأحوال ، لما في ذلك من محاذير ونُذُرٍ في حال تركها .

ورد في لآلىء الأخبار حديث عن الإمام العسكري (ع) في تأكيد هذه الحقيقة حيث يقول سلام الله عليه : « ولَرُبّما ترك بعضُ شيعتنا في آفتتاح أمره ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيمتحنَهُ اللَّهُ بمكروه ليُنَبّهَهُ علىٰ شكر الله والثناء عليه » ، فالغاية من البلاء هنا هي التأدّب . . .

وأما الآخرون ، فلا شغل ولا شأن لهم بما قالوه ، أولم يقولوه ، لكن محبّي وموالي أهل البيت (عليهم السلام) فالأمر بالنسبة لهم يختلف ، فلأنّه سبحانه يُحبّهم أكثر فقد جعل عقوبتهم علىٰ معاصيهم أو تقصيرهم في العمل والسلوك في الدنيا بالبلاء كي ينتبهوا إلى أنفسهم ويؤدّبونها بآداب الله ، ومن ذلك أن لا يغيبَ عن ألسنتهم ذكر الله واللهج بآسمه الكريم والصفات التي أُحبَّ أن يُذكر

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٦٤ .

بها عند الشروع في كل أمر يُقدمون عليه ، ولكي يكون ذلك عادتهم ما عاشوا في هذه الدنيا .

لم يُسَّمِ باللهِ فهوىٰ إلى الأرض :

دخل عبدالله بن يحيىٰ على أمير المؤمنين (ع) وكان بجنبه (ع) كرسيٌّ ، فقال الإمام له أن يتفضّل بالجلوس عليه وعندما همَّ ابن يحيىٰ بالجلوس على الكرسي أنقلب الكرسي فجأة وسقط منه على الأرض ، فَفُجَّ رأسه ، وسال الدم منه ، عندها أمرَ أمير المؤمنين أن يُؤتىٰ بالماء ، فجاؤوه به ، فغسل به رأسَه ، ثم قال له الإمام : أُدنوا مني فدنا منه ، فوضع (ع) يده المباركة على موضع الجُرح وراح بيده الأخرىٰ يضع من لعابه الشافي على الجرح ، ثم شدّ رأسه وفي تلك الهنيهة بَرأ جُرح ابن يحيىٰ ، وكأنّ شيئاً لم يكن ، بعدها توجّه الإمام أمير المؤمنين (ع) إلى ابن يحيىٰ مخاطباً إياه بما يستفاد : يا عبدالله أُشكر الله الذي جعل تمحيص شيعتنا بالبلاء طهارةً لهم من ذنوبهم ومعاصيهم في دار الدنيا ، كي تبقىٰ طاعاتهم مصانةً محفوظةً يُجزون عليها بالثواب في الآخرة ، ثم سأل عبدالله مولاه قائلاً : يا أمير المؤمنين أعلِمني بذنبي الذي صار سبباً في سقوطي على الأرض ، كي أحترزَ منه ولا يصدر مني ثانيةً ، فقال أمير المؤمنين (ع) كما جاء نصُّ ذلك في تفسير الإمام الحسن العسكري : تركُك حين جلست أن تقولَ بسمِ ٱللَّهِ الرحمٰن الرحيم فجعل ذلك لسَهوِكَ عمّا ندبت إليه تمحيصاً بما أصابك ، أما علمت أنَّ رسول اللهِ (ص) حدّثني عن اللهِ تعالىٰ « كلُّ أمرٍ ذي بالٍ لم يذكَرْ فيه بسمِ اللهِ فهو أبتر »[1] .

---

(١) نظراً لأن تفسيرَ الآية المباركة ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ قد تمَّ بيانهُ وبشكلٍ سهبٍ ومفصّلٍ عند تناولها في تفاسير السور السابقة لسورة القمر الشريفة وأشير إلىٰ شأنِ نزول هذه الآية وبركاتِها وآثارِها ، لذا فقد تناولنا تفسيرها في هذه السورة بشيء من الإقتضاب ، فاكتفينا فقط بذكر بعض فضائلها وللأسف ، فان تفسير هذه الآية الذي ورد في جميع السور ليس بمتناول أيدينا وإلاّ لكنا قد نشرناه .

صحيفة أعمال المؤمن في القيامة :

جاء في الروايات المتواترة : إن المؤمن حينما يعطىٰ بيده غداً يوم القيامة صحيفة أعماله ليقرأها[1] ، فانه سيبدأ قراءتها كما تعوّد ذلك في الدنيا حينما يبتدأ بحديث أو قراءة شيء ، سيبدؤها أولاً بقول بسم الله الرحمٰن الرحيم . وإذا به ينظر فجأة فيجد أن كُلَّ ذنوبه قد مُحيتْ من صحيفة أعماله ، ويأتيه النداء من الأعلىٰ : أنْ يا عبدنا إنك ذكرتنا بالرحمانية والرحيمية ، وها نحن أيضاً نعاملك برحمتنا .

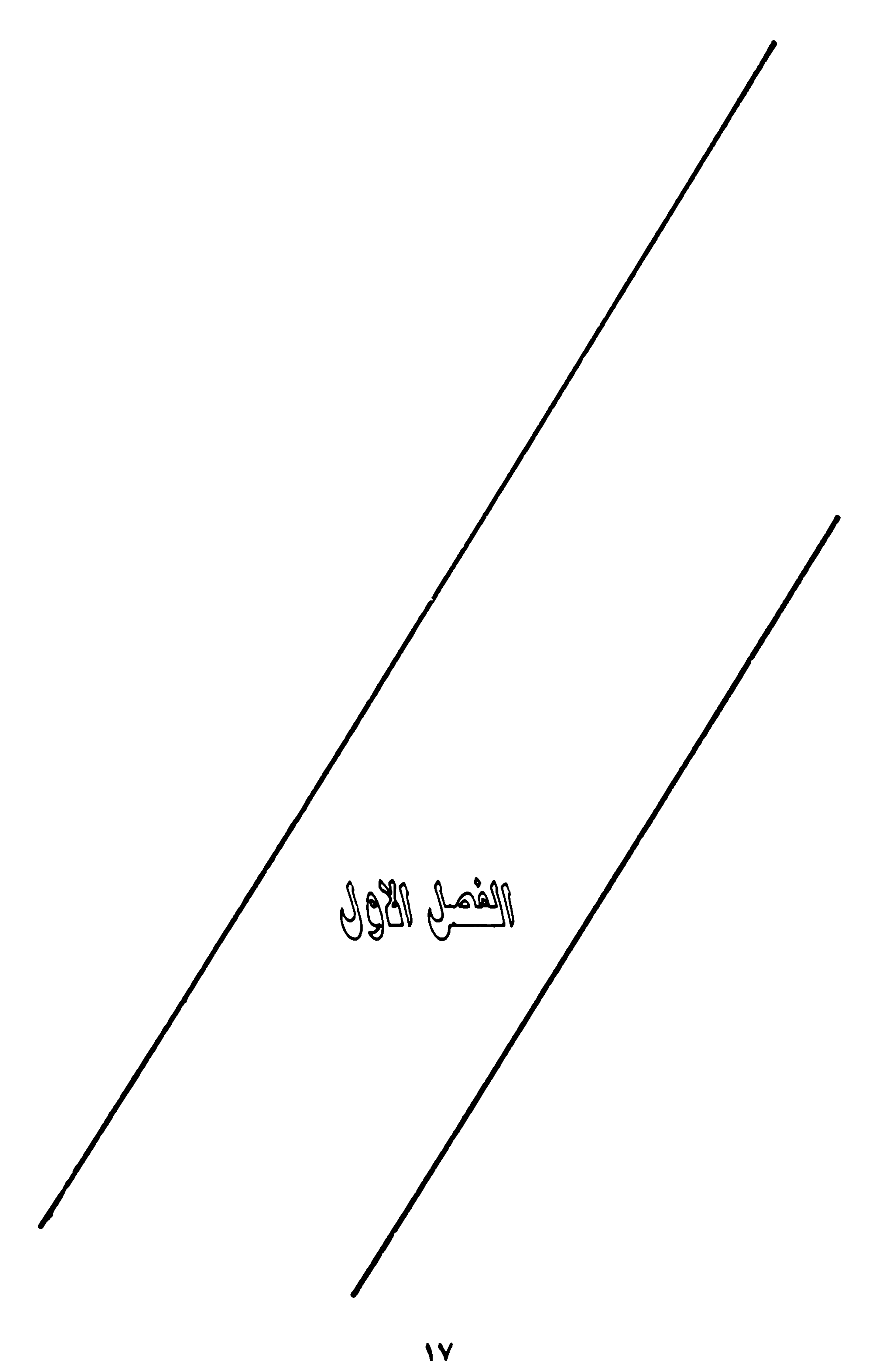
نسأل الله تعالىٰ أن يجعلها عادةً ـ نواظب عليها ، أن نسمي بآسمه الكريم في كل أمر نبتداه حتّى نموتَ حين مداهمة الأجل وألسنتنا تلهج بآسمه وأحب الصفات إليه سبحانه وحين نُحمَل إلى القبر أن يجعلنا من اللاّهجين بآسم الله المُردّدين « الحمد لله » كالمؤمنين في القرآن حين ينقل عن لسان حالهم ﴿**الحمدُ لله الذي صدقنا وعده**﴾ ﴿**إنَّ صلاتِي ونُسُكي ومحياي ومماتي للّهِ ربّ العالمين**﴾ .

« بسم الله » في الكفن :

حين دنا الأجلِ من أحد علمائنا الأجلاّء ، خطّ بيده ﴿**بِسم اللّهِ الرَّحمٰن الرحيم**﴾ ووصّىٰ ان تُرفَق معه في كفنه وقال : إنه لأجل ان أخاطب بها ربّي وأقول إلٰهي ان أوّلَ جملة شريفة في كتابك وأول آية ووسام كل سورة فيها هي « بسم الله » ، إلٰهي فبها عاملني ، برحيميّتك ورحمتك التي وسعت كل شيء .

---

(١) ﴿**إقرأ كتابك كفىٰ بنفسك اليومَ عليك حسيباً**﴾ (سورة الإسراء ، الآية : ١٤) .



الفصل الأول

« القيامة دانية »

﴿ اقتربت الساعة وانشقّ القمر ﴾ :

الساعة هي من أسماء القيامة التي ذكرها الله سبحانه في عدة أماكن من كتابه المجيد ، فيكون معنىٰ إقتراب الساعة هو قرب وقوع يوم القيامة والحساب .

والآن لننظر ما هي وجوه تسمية القيامة بالساعة وما علة ذلك ؟

١ ـ حينما يكون معنىٰ الساعة جزءاً من أجزاء الوقت والزمان ، لذا فقد وردت تسمية القيامة هنا بالساعة ، باعتبارها تقع في آخر ساعة من ساعات الحياة الدنيا التي نحياها الآن .

٢ ـ سُميت القيامة بالساعة ، حسب قول بعض العلماء المحققين ، باعتبارها هدفاً وغايةً يُسعىٰ ويُعمل إليها ، أي إن الناس جميعاً يَسعون بطبيعتهم الفطرية نحو القيامة بينما هم غافلون عن هذا المسير والمصير ، لكنهم على كلّ حال شاؤوا أم أبوْا فانهم سائرون دانون منها شيئاً فشيئاً .

٣ ـ الوجه الثالث للمعنىٰ هو أن الساعات لا يختلف بعضها عن بعض ، لكن الوقائع والأمور والأهوال المذهلة جداً التي تقع وتحصل يوم القيامة وساعة أوانها ، منها جهنم بزفيرها وسعيرها المتأجج والتي يَبانُ مئة ألف من أزمّتها تشتعل من كل جانب منها والناس مذهولون مدهوشون ينظرون إلىٰ جانب منها

كما يرونه من هولها العجيب الغريب الذي لم يخطر يوماً على بالهم ، ولم يروا شيئاً في دنياهم أغرب منه . وعلى العموم فان ذلك يقع ويحدث في مدة قصيرة عُبِّر عنها بالساعة .

٤ ـ أما الوجه الرابع فربما يشير إلى سرعة الحساب الإلهي يوم القيامة ، لأن الله سبحانه وكما حدد في بعض صفاته ، سريع الحساب ، فمقاضاة الأولين والآخرين وحسابهم لا يتأخر بالنسبة إليه سبحانه ، وجاء في صريح الروايات الشريفة أن الفترة التي يستغرقها حساب المؤمن كالمدة الفاصلة بين صلاة الظهر والعصر ، فكم هذه المدة قصيرة وقليلة فبمثلها يُوقَفُ المؤمن حين مقاضاته يوم القيامة ، وربما حتّى هذه الفترة قد لا يحتاج لها المؤمن للتأخير ، ذلك لأنه سيشهد لوحاً أمامه دُوِّن فيه كلُّ صغير وكبير من أعماله وأقواله وأفعاله فطاعاتُه ومعاصيه ينظر إليها كلّها ويجدها أمامه في تلك اللحظة . وبهذا المعنى يقول الله سبحانه حين الإشارة إلى هذا اللوح في القرآن المجيد : ﴿لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها﴾ وعن هذا الموقف المذهل يقول رسول الله (ص) ما يستفاد منه : «إن المرءَ حين ينظر إلى ذنبه يوم القيامة ، فانه سيبكي دماً وقيحاً من شدة حزنه وألمه »[١] .

فالإنسان سينظر إلى عمله بنفسه ولا يحتاج إلى من يقول له ماذا فعلت وأي شيء عملت وقُلت فعليه أن يقرأ ذلك بنفسه ﴿إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ .

الغفلة والنسيان من مختصات عالم الدنيا :

إنَّ عالم الآخرة هو غير عالمنا في هذه الدنيا ، فنحن هنا حينما نقوم بعملٍ طائشٍ أو ارتكاب معصية اليوم ربما يغيب عن بالنا غداً وقد ننساه ولا يخطر على

---

(١) بحار الأنوار : ج١٧ ص٤٢ .

بالنا بعد ذلك أبداً ، أما في يوم القيامة فإن الأمر يختلف نهائياً عما هو في الدنيا ، فإن ذلك كلّه سيتوالى إلى ذاكرتنا ويتداعىٰ على خواطرنا كل ما عملناه وقلناه ، من بادىء عمرنا ولغاية أجلنا ، بكل تفاصيله ، صغيرة وكبيرة[1] .

إنه عالَمٌ مدهشٌ وعجيبٌ ، حين تتجلىٰ صفة ﴿سريع الحساب﴾ للعيّان من الخلائق ، ففي يوم القيامة يحضر الجميع ، الأولون والآخرون من إنسٍ وجنٍ ، ويستعدون للحساب والتقاضي ومن ثَمَّ تلقيّ الجزاء علىٰ ما بدر منهم في الحياة الدنيا ، ثواباً أو عقاباً .

فالله سبحانه سيُري كلّ إنسان أيّما عمل أو قول صدر منه ، وفي مدة قصيرة ، ولذلك سميت القيامة بتسمية الساعة .

وعلىٰ الغالب فان المدة القصيرة هذه تخصّ المؤمنين وتقع في حسّهم آنئذٍ .

طول المدة في الحساب من العذاب الإلٰهي :

بطبيعة الحال ، فان مجموعة من الناس سيطول بهم الوقوف أمام الله للحساب يوم القيامة ـ والعياذ بالله من ذلك ـ فقد أشارت الروايات إلىٰ أن المواقف كثيرة . وقيل : إنها خمسون موقفاً يطول الوقوف في كل منها ألف سنة ممّا نَعُدُّ .

وليس ذلك معناه أن الله سبحانه لا يقدر على مقاضاتهم ومحاسبتهم بالسرعة التي أشرنا إليها آنفاً ، كلّا وحاشى له سبحانه ، إنما ذلك لمشيئة منه أن يجعل طول الوقوف هذا لوناً من ألوان العذاب بالنسبة للكفرة والمشركين وجحدة الحق الذين ينتهي بهم المصير إلى جهنم وبئس المصير ، خالدين فيها

---

(١) ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ (سورة الكهف ، الآية : ٤٩) .

أبداً ، وإن كان ذلك للمؤمنين فانه للعصاة منهم والمذنبين . وفيه طهارة لهم من الذنوب والمعاصي التي ارتكبوها . فطول الوقوف هنا يكون لهم عقاباً وعذاباً يتطهرون به من ذنوبهم قبل أن يَرِدوا الجنة ، وإن لم يكونوا من المؤمنين وأهل النجاة ، فذلك زيادةً ومضاعفةً لما ينتظرونه من العذاب الأبدي الأليم .

إن الطهارة من الذنب تكون علىٰ أنواع ومراحل بحسب الذنوب الكبيرة وحجم الذنوب وكثرتها ، فبعض المؤمنين يتطهّرون من ذنوبهم في هذه الدنيا بما يبتليهم الله به من أنواع البلايا والنازلات ، كمرض عضالٍ أو فاقةٍ كبيرةٍ وفقرٍ مدقعٍ ، أو ربما عاهة يصابون بها . وإن لم يكن ذلك كافياً للتطهير عند بعض آخر منهم ، فربما يكون خلاصه وتطهيره حين حلول أجله وموته ، من خلال سكرات الموت التي تَلمُّ به ، ومَن ثمَّ القبر وعصرته . وإن لم يكفِ ذلك فالبرزخ وعذابه وإن كانت الذنوب أكثر وأعظم ـ (والعياذ بالله) ـ فان له في القيامة وأهوالها ، وطول الوقوف فيها نصيباً ينتظره ، وربما شيئاً من عذاب جهنّمها حتّى يتطهّر من آخر ذنب ومعصية قام بها ، فتناله شفاعة الشافعين عندئذٍ وينجو منها ويأخذ سبيله بعدئذٍ إلىٰ الجنة والسَّعدِ الأبدي فيها .

دُنُّو القيامة :

لا كلام في أن القيامة لا بدّ آتيةٌ وواقعةٌ ، وهي من الضروريات المهمة ، والقرآن المجيد يؤكد عليها ويكرر ذكرها والإشارة إليها والتحذير منها ، ولا ينبغي للمؤمنين أن يغفلوا عن هذا اليوم العظيم الرهيب أو يتغافلوه بل الحري بهم أن يتذاكروا به وبآقتراب أوانه ، وكل هذه الذنوب والجرائم والمعاصي التي يرتكبها الناس إنما هو بسبب غفلتهم عن موضوع آقتراب القيامة ، ولأنهم يرونها بعيدةً نطول مدةُ أوانها .

والقرآن المجيد يُعبّر عن هذا الواقع المرير ، فيقول تعالىٰ : ﴿**إنَّهم يرونه**

بعيداً ونراه قريباً﴾ أو إنهم رُبّما ـ (والعياذ بالله) ـ ينكرونها أصلاً ، فيصلَ إلى سمعك ما يخرج من أفواههم من الكفر كقول بعضهم : « من جاء من ذلك العالمِ ولديه خبرٌ عنه ؟ » وآخرون لا يؤمنون لأنهم لا يُدركون ، تُرىٰ أَلَمْ يأتِنا الأنبياء ؟ أَلَمْ يُحط رسولُ الله بعلمهِ بجميع العوالم ؟ ، ألم يأتهم أنباءُ عن القيامة وأهوالها وما يجري فيها من المكاره على أهلها ؟ ومع هذا كله تُرىٰ أَلَمْ يُخبِرْنا الله سبحانه ويؤكد لنا مراراً وتكراراً علىٰ القيامة وأحوالها في كتابه الكريم ؟

ففي آخر سورة النجم الشريفة جاء ذكر القيامة وٱقترابها ، حيث يقول تعالىٰ : **﴿أزِفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة﴾** وهنا في السورة التي نحن بسددها جاء ذكر ٱقتراب القيامة **﴿ٱقتربت الساعة﴾** ، وفي أول سورة الأنبياء ورد ذكر الإقتراب أيضاً حيث يقول تعالىٰ : **﴿ٱقترب للنّاس حسابُهُم وهم في غفلةٍ معرضون﴾** .

اعمل عملاً كيما تقدر علىٰ قراءته :

من المواعظ الشريفة التي وردت عن أمير المؤمنين (ع) قوله : ما مفاده : «إذا شئت أن تعمل عملاً أو شئت أن تقول قولاً فٱفعل بالشكل الذي تقدر على قراءته غداً يوم القيامة في صحيفة أعمالك »[1] .

هل يُمكنك غداً أن تقرأ في صحيفة أعمالك بأنك شتمت أحداً أو قلت ما يُسيء إلىٰ الأدب في اليوم والساعة الفلانية ؟ أو إنك فعلت في اليوم الفلاني عملاً منكراً وبذيئاً فان كنت لا تجرؤ على الإعتراف والإقرار بما تقرأه ، إذن لماذا لا تفكر ولا تتدبّر في الأمر منذ الآن ؟

قال أحد الصالحين لولده : لي عندك حاجةٌ يا بني ، أتعدني بإنجازها ،

---

(١) نهج البلاغة .

فقال الولد : إنّني مطيعٌ لكل ما تأمر به يا أبتاه ، فقال الأب الصالح : أُريد منك حين تعود إلىٰ البيت في المساء أن تُطلِعني على كل ما قمت به وفعلته في يومك مُذ خرجت من البيت وحتى ساعة عودتك ، فقبل الولد ذلك ، وحينما حل ليل ذلك اليوم جلس الولد عند أبيه وبدأ يشرح له أعماله ، وما قام به ذلك اليوم ، حتّى بلغ الأمر به أن يقول ما آرتكبه من سيء الأفعال وبذيء الأقوال والمحرمات من الأعمال ، فتلكأ عن الإعتراف خجلاً واستحياءً من أبيه الفاضل وأخذ يتلعثم مرتبكاً ، ثم سقط على يد أبيه يُقبّلها ويقول : إسمح لي عفواً عما لم أقلْه ودعه عني وأعدك بأني سأُطيعك منذ الآن في كل ما تأمرني به فأنني خجلٌ منك يا أبتي ، فقال الوالد : إسمع يا بني ، إنّني لستُ سوىٰ عبدٍ ضعيفٍ عاجزٍ وأراك خجلاً مني للإقرار بكل ما بَدَر منك ، ولكن ماذا ستفعل غداً أمام الله وفي حضوره سبحانه وبماذا ستعتذر إليه ، فكانت هذه الموعظة البالغة سبباً في توبة الولد وصلاحه .

علامة آقتراب القيامة :

إن أحد دلائل قيام القيامة وشروطها هو بعثة خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله (ص) والدليل الآخر هو بلوغ آخر الزمّان لذا فاننا اليوم نعيش في زمن لم يبق فيه شيء من عمر الدنيا إلاّ اليسير وقد باتت القيامة علىٰ الأبواب تطرقها ، وفي الحديث الذي ورد في تفسير روح البيان « إن الله جعل الدنيا كُلّها قليلاً ، فما بقيَ منها ، قليلٌ من قليلٍ ومِثْلُ ما بقي ، مِثلُ الثعب « أي الغدير » شُرِبَ صفوُه وبقي كَدْرُه » فعمر الدنيا قصيرٌ ضيئل بالنسبة للآخرة ، حتّى أنَّ يوم القيامة يعادل خمسين ألف سنة من سنين الحياة الدنيا ﴿في يومٍ كان مقدارُهُ خمسين ألف سنة﴾[1] .

إذن علىٰ الإنسان أن يهيىء نفسه ويستعد لمثل هذا اليوم الخطير لئلاّ يقع

---

(١) سورة المعارج ، الآية : ٤ .

فجأةً وهو غير مُعدٍّ له ، ذلك أن بعض الروايات ذكرت أن المشتري قد يذهب إلىٰ السوق ويشتري البضاعة وهو لم يدفع ثمنها بعد ، فإذا بالقيامة قائمةً على رأسه بأهوالها وفزعها الأكبر . والله سبحانه وتعالى يشير إلىٰ ذلك في كثير من آياته الحكيمة ، ولعل ذلك واضح في سورة يٰس الشريفة عند الإشارة إلى أن القيامة قد تقوم والبعض منا لم يُدرك الوصية أو يتمكن من بلوغ منزله ومأواه وأهله ﴿ما ينظرون إلاّ صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يخصّمون ، فلا يستطيعون توصية ولا إلىٰ أهلهم يرجعون﴾ وليس هذا بغريب عنا فمن مثلِهِ الكثير نشاهدُه في أيام حياتنا ، فقد يذهب أحدنا إلى السوق أو إلى عمله أو إلى حمّام فيخرج من بيته وإذا بالخروج هذا خروج أبدي وإن عادَ فجثمانٌ يحملُه الناس على الأكتاف يتقدمهم منادٍ ينادي « هو الباقي » ، لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له .

مقولة مالك بن دينار :

سألت إبنة مالك بن دينار أباها يوماً ، فقالت : يا أبتاه ما لي أراك تنهض فجأةً من نومك في الليل ؟ فأجابها : إعلمي يا آبنتي أن أباك يخشىٰ أن ينزلَ بلاءٌ ، وهو في نومٍ ، كذلك ورد في القرآن المجيد ما يؤكد هذا المعنىٰ حيث يقول تعالى : ﴿أفأَمِنَ أهل القرىٰ أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون﴾ والبأس هذا قد يكون زلزلةً أو صاعقةً تنزل علىٰ الناس فتُهلكهم جميعاً أو ربما تقوم القيامة وهم غافلون عنها .

الموت هو القيامة الصغرىٰ :

فُسرت الساعة ـ كما وردت في القرآن المجيد أيضاً ـ بأنها ساعة الموت والفناء ويطلق على الموت وساعته بالقيامة الصغرىٰ ذلك بآعتباره مقدمة للقيامة الكبرىٰ وطليعتها وخاتمة دار الأعمال وإغلاق صحيفتها وبلوغ أول مراحل عالم الجزاء والحساب التي تنتهي بساعة قيام القيامة الكبرىٰ ، وتلك العلامات التي

ذكرت عن القيامة الكبرىٰ نجد لها صورة مماثلة ، ولكنها نموذجٌ أصغر ورمزي في القيامة الصغرى أي ساعة الموت والفناء ، ففي القيامة الكبرىٰ يقع زلزال هو من الشدة والعنف بالشكل الذي جاء وصفه في القرآن المجيد ويكفي به وصفاً حيث يقول تعالى : ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم يا أيّها النّاس اتّقوا ربَّكم إنّ زلزلة السّاعة شيءٌ عظيمٌ * يَوْمَ تروْنَها تَذهلُ كلُّ مُرضِعةٍ عمّا أرضَعتْ وتضَعُ كُلُّ ذاتِ حملٍ حملَها وترىٰ النّاس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ﴾[1] ، ونظيرُ هذا الزلزال يحدث عند الإنسان حين ساعة الموت فان هزّةً قويّةً تهزُّ بدنَه بالشكل الذي يجعلُ الروح تُنتزَع من الجسد .

القيامة يوم تنكدر فيه النجوم[2] وتضمحل وتندثر ، وساعة الموت أي القيامة الصغرىٰ فالنجوم الحواس لدىٰ الإنسان هي الأخرى تتعطّل وتضمحل قوتها ، فالعين هي بمثابة نجم ينطفيء نوره ساعة الموت ، فتراها مفتوحةً ، ولكنها لا ترى ولا تبصر ، وكذا الأذن تنفذُ إلى داخلها الأصوات لكنها لا تسمعُها ولا تحسُ بها .

في يوم القيامة الكبرىٰ تُكَوَرُ الشمس[3] ويخفتُ أوارها وينطفىء شعاعها ، وساعة الموت أيضاً نظيرُ ذلك ، يحدثُ لقلب الإنسان الذي يأفل عن الدنيا وينطفىء ضياؤه ويسكن كُلياً عن النبض والحركة بعد أن كان ذلك القلب الذي يتحدث عن قوته وشدة ضرباته ودقاته الأطباء في الطب الحديث فيقولون : لو أن أقوى الأقوياء يمسك بهذا القلب بكلّ قوته ، فانه رغم ذلك يظل يدقُّ وينبض ، وتبتلك الحرارة المعهودة فيه مستمراً على الحركة والحياة . لكنه ساعة الموت يكون حاله حال الشمس التي تتكوّر وتضمحل وتنطفىء فلا تعد تعطي ضياءها وحرارتها .

---

(١) سورة الحج ، الآيات : ١ ـ ٢ .
(٢) ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ (سورة التكوير ، الآية : ٢) .
(٣) ﴿إذا الشمس كُوِّرت﴾ (سورة التكوير ، الآية : ١) .

وفي يوم القيامة أيضاً تتصدع[1] الجبال وتتهشم وتغدو قطعاً صغيرةً متناثرةً فيزول شموخها وهيبتها وتُسوّى مع الأرض، وفي مقابل هذه الجبال وعظمتها، نجد العظام التي تصبح رميماً بعد أيام من قيام القيامة الصغرى، رغم صلابتها وقوتها وترابطها المحكم ببعضها وتغدو قبضة من التراب وجزءاً من هذه الأرض وقد صدق الشاعر حين قال :

«لو كشف التربة عن وجههمُ   لم تر إلاّ كدقيق الهلال»

سلامة الأعضاء واغتنامها :

إذن والحالة هذه يمكن اغتنام الفرصة بسلامة أعضائنا وأبداننا ونستفيد منها في القيام ليلاً، وأداء بضع ركعات وسجدات طويلة لله وننال الثواب والرضا الإلهي عنا، قبل فوات الأوان، عندما لا يسعنا استخدام هذه الأعضاء حين موتها .

وفي رواية عن رسول الله (ص) أنه قال ما مفاده : إنني حين أُغمِض عيناي لا أحسب أني فاتحُها، أي لست آملاً بأن تُفتحَ مرة أخرى، وبهذا المعنى خاطب (ص) أبا ذر (رض) بقوله : (يا أبا ذر حينما تُصبح صباحك فلا ترجو أن تُمسيَ ليلك) .

(حينما تصبح يا أبا ذر فلا تحسب أنك مُمسٍ ليلك) .

حبُّ آل محمد (ص) منجى الآملين :

جاء في بحار الأنوار عن أنس بن مالك أنه قال : (كان رسول الله (ص) يوماً قد صعد المنبر في المسجد، فدخل إعرابي بدويٌّ من الصحراء، وقال :

---

(١) ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ (سورة طه، الآية : ١٠٥) .

يا محمد متىٰ تقوم القيامة ؟ فقال له رسول الله (ص) وما شأنك بالقيامة ؟ فالقيامة لا بدّ آتية وواقعة لكنك ماذا قدمت لها من عمل ؟ فقال الاعرابي : ليس عندي لغد القيامة ، لا صلاةً وفيرةً ولا صياماً كثيراً ، بل كل ما عندي هو حبُّك يا رسول الله . فقال رسول الله (ص) : « كل آمرءٍ يُحشَر غداً مع ما أُحبَّ » .

فكل إنسانٍ سيصحب معه غداً نموذجاً بهيئة وصورة ذلك الشيء أو الشخص الذي أحبّه ، وحقّاً أنّه لمن حسن حظّنا أن يطبع على قلوبنا بختم آل محمد (ص) فيكون رجاؤنا أن نحمله معنا إلى دارنا الأخرى. إنّ الهدفَ من هذا الكلام الذي قلناه هو أن آزدياد الرجاء عندنا يعني هو أننا في الوقت الذي نخشى فيه من الأهوال والعقبات التي تنزل بنا بعد الموت كذلك نحيى في أمل ورجاء اللطف الإلٰهي بنا لما في قلوبنا من محبة وولاء أهل البيت (ع) .

« شق القمر »

كما ذكرنا سابقاً فان من علامات اقتراب القيامة هي بعثة خاتم الأنبياء (ص) اما العلامة الأخرىٰ من هذه العلامات فهي إنشقاق القمر الذي حصل على يد رسول الله (ص) .

فعبارة ﴿إنشقّ القمر﴾ تعني تفككه وتمزّقه ، وهي الآية مصداق لتلك المعجزة المعروفة والتي يسلم بها الشيعة والسنّة ، ويتفقون عليها بما تواتر عليهم من الروايات والأحاديث الصحيحة ، وهنا نرىٰ الأنسب أوّلاً أن نعرض للصورة التي حصلت فيها هذه المعجزة ، قبل أن نرُدَّ على الشبهات التي وردت بشأنها .

وخلاصة الحادثة التي صرّح بها جمهور المحدثين والمفسّرين ، هي أن أبا جهل ذهب إلىٰ عند رسول الله (ص) يوماً مع رجل يهودي وبدأ يتجاسر بكلامه مع رسول الله ويقول له : متى تكفُّ عن دعوتك ؟ إلى متىٰ تظل تُسيء لأصنامنا ؟ أنظر إذا طلبنا الآن منك ما نريده ولم تجبنا وتأتنا به فسنقتلك .

فقال رسول الله (ص) : لك أن تطلبَ أي شيء فسآتيك به . فتشاور أبو جهل مع الرجل اليهودي ، وسأله أي شيء نطلبه منه ؟ ، فقال اليهودي : إن أي شيء تطلبه منه على هذه الأرض ربما يأيته بالسحر ، أما ما فوق الأرض ، أي في السماء ، فان ذلك خارجُ نطاق السحر ، عندها قال أبو جهل . يا محمد إذا

جعلت القمر نصفين فسأؤمن بك وأبايعك ، فأخذ رسول الله (ص) في ذلك عليه عهداً . وفي بعض الروايات الأخرى إن رؤساء القبائل العربية الأخرى عاهدوه أيضاً إذا قدر علىٰ أن يأتي بمعجزة كهذه ، فانهم سيؤمنون به وبرسالته (ص) ، وكان ممن أعطىٰ الموثق أربعة عشر نفراً من شيوخ قريش وكبرائهم وبينما هم في هذه الأثناء ، إذ يهبط الأمين جبرائيل (ع) ، ويخبر الرسول ان الله سبحانه يقول له : إنا جعلنا كل ما في الأفلاك طيَّ مشيئتك ، فاضرب لهم موعداً ، فلما كانت الليلة الرابعة عشرة التي يكتملُ فيها قرص القمر ضرب (ص) معهم موعداً ، فلمّا انقضىٰ بضع من الليل ، سار الرسول (ص) ومعه أبو جهل والمشركون كافة إلى جبل أبي قبيس ، ووقفوا على الجبل ثم أخذ (ص) العهد منهم ثانية فجدّدوه علىٰ أنهم سيؤمنون إن شقَّ القمر نصفين ، فأشار (ص) بأصبعه المبارك إلىٰ القمر فصار نصفين ، والذي جاء في الرواية هو أن نصف القمر كان في مكانه والنصف الآخر آبتعد عنه بمسافة ، قال عنها ابن مسعود « أُقسم بالله لقد شاهدتُ جبل حراء بين نصفي القمر » . وفي بعض الروايات : إن رسول الله (ص) قال لهم عندها : ألا ترونَ ؟ فقالوا له : يا محمد إرجعه إلىٰ هيئته الأولىٰ ، فأشار إليه (ص) فعادت قطعته المنفصلة إلىٰ أختها والتأم البدرُ ثانيةً ، ثم التفت إليهم قائلاً : لقد رأيتم كيف أصبح القمر نصفين ، فهل تؤمنون إذن ؟ (فهل أنتم مؤمنون ؟) .

أما ذلك اليهودي الذي آقترح هذه المعجزة فانه قد آمن علىٰ الأثر ، لكن أبا جهل وسائر المشركين أبَوا أن يؤمنوا وأصروا على كفرهم .

كثيراً ما يذكرون أن هناك من الناس من يستيقظ من نومه بسرعة لأقل حركة أو صوت يحدث بالقرب منه ، لكن البعض الآخر يغطّ في نومٍ عميق لمجرد أن يُغمضَ عينيه ، ولا يحسب أنه مستيقظ ، ومهما نبهته بحركة أو صوت ، بل لو قرعت في أُذنيه الطبول فانه يبقىٰ نائماً سابتاً ، وكأنَّ شيئاً لم يكن ، فأبو جهل والمشركون من قريش كافة ، هم من أمثال هؤلاء لا همّة

لهم ، ولا شأن سوىٰ اللجاجة والجدل والإصرار على الكفر ، لذلك فانهم بدلاً من أن يؤمنوا بما تجلّىٰ لهم من المعجزة الإلٰهية خاطبوا رسول الله (ص) بقولهم يا محمد ربما سُحرتْ أعيُننا ، فأمهلنا حتّى نسأل أولئك الذين هم خارج مكة والمسافرين والقافلين ، فإن كانوا شهدوا ذلك فسنؤمن لك . وبالطبع فهذا الذي قالوه كان ذريعةً منهم ، حيث أنهم أبَوْا الإيمان وأصروا على شِركهم .

وباختصار ، فان معجزة شق القمر هي من الروايات المتواترة بين المسلمين فضلاً عن تصريح القرآن بها وفي الآية التي نحن بصددها . وتلك هي باختصار وقائع هذه الحادثة التأريخية المعجزة .

المُزَيِّنات علىٰ معجزة شق القمر :

إنَّ ذلك الذي ذُكر وعلى ما يبدو أنه يختصُّ بصاحب (ناسخ التواريخ) والذي لم ألحظْه لدىٰ الآخرين حيث كتب « إن القمر صار نصفين وهبط نصفاهُ هذان علىٰ الأرض ودخلا في لُبَّةِ ثوب الرسول (ص) وخرجا من كُمّه » إن ذلك مما لم يردْ في الأحاديث والأخبار المتواترة وذلك الذي اطّلعت عليه في الكتب المعتبرة ، وفتشت وحققت عنه فاني لم أر فيه مثل هذا الذي جاء في ناسخ التواريخ .

إن جُلَّ الأخبار الرئيسية التي تحدثت عن معجزة شق القمر جاء ذكرها في المجلّد السادس من بحار الأنوار ، وللمثال فان رواية واحدة ولو ضعيفة تتحدث بذلك الوصف الذي ذكره صاحب ناسخ التواريخ لم يردْ ذكرها فيه . وبذا فان كل ما جاء حول معجزة شق القمر ، وذكر في أخبار الشيعة والسُّنّة هو بالشكل الذي وضحناه آنفاً وهو أن القمر انشطر نصفين ، مكث نصف منه في مَحلِّهِ وآبتعد النصف الآخر قليلاً .

القافلون شهدوا شقَّ القمر :

كتب المرحوم فخر الإسلام في كتابه بيان الحق : في تفسير الخازن نُقل عن جير بن مطعم أنه في عهد رسول الله (ص) صار البدرُ نصفين ، بعدها قال جماعة من مشركي قريش : إن محمداً سحرَ أعيُننا ، وقال بعضهم : إن كان محمدٌ قد سحر أعيننا فهو لا يقدر على أن يسحر عبون كلّ الناس .

وقد أخرج هذا الحديث الذي نقلنا مضمونه الترمذي ، ثم أضاف عليه غيرهُ بأن كفّار قريش استقبلوا القافلين والمسافرين وحققّوا معهم عن هيئة البدر في تلك الليلة ، فقالوا إنهم شهدوا انفلاق القمر ، ولكن رغم هذه الشهادة فقد كذّب كفار قريش هؤلاء المسافرين .

الإنشقاق والإلتئام في الأفلاك :

من أهم الشبهات المطروحة وأكبرها هي شبهة عن الفلاسفة القدماء ، الذين يقولون إن الشق والإلتئام أو الإنقسام والإلتصاق في الأفلاك هو من الأمور المستحيلة ، فهؤلاء يدّعون أن الموجودات العلوية نقيّة طاهرة ، لا تنشطر أو تلتحم ، فهذه هي مقولة حكماء اليونان الذين رسموا بأذهانهم ومخيلاتهم صوراً للأفلاك ، كفلك القمر ، وفلك الشمس ، والمقعر والمحدب ، لكنهم لم يكونوا يمتلكون الأدلة والبراهين التي تثبت صحة تصوراتهم ، فكان كل ما قالوه في الأفلاك هو محضُ فرضٍ وحدسٍ وتخمين .

لقد أثبت العلم الحديث والصورة الجديدة للكون أن الشمس والقمر وكل الكواكب والنجوم تشترك جميعاً مع الكرة الأرضية في عناصر تركيبها ، بل إنهم يقولون إن القمر كان جزءاً من الأرض فانفصل عنها وبذلك ، فانه قابل للإنشطار والإلتئام أي يمكنه التجزئة والإنفلاق .

هذا فضلاً عن أن مسألة الإنشطار والإلتئام لا تبدو شيئاً أمام عظمة القدرة

اللامتناهية لربِّ العالمين حتىً يُشْتبهَ بها (أي تُصبحَ موضع شُبهةٍ) .

هل إنّ علينا جميعاً أن نرىٰ شق القمر ؟

الشبهة الأخرى التي يطرحها النصارىٰ ويُدونونها في كتبهم ويستخدمونها في الدعاية المعادية للإسلام وخاصة ما جاء في كتاب ميزان الحق ، حيث كتبوا بشأن معجزة شق القمر : إنه إذا كان القمر قد انشطر إلى نصفين فكان يجب أن يُشاهدَ ذلك كل البشر في جميع بقاع العالم ، فيجب أن يشهدَها كل أهل أوروبا والصين والهند ويسجلونها كحادثة في تواريخهم بينما لا نجد ذلك إلاّ في التواريخ الإسلامية ، حيث لم تُدون في تواريخ أُخرى ، وهنا نشير إلىٰ بعض الردود التي أُعطيت بشأن هذه الشبهة .

١ ـ الأرض كروية الشكل :

فالأرض كروية والممالك والبلدان والمدن فيها لا تقع في أُفق واحد ، فحينما تمضي ساعة واحدة من الليل في احدىٰ البقاع ففي بقاعٍ أُخرى يكون قد مضى ست أو سبع ساعات منه وبقاع أُخرى ربما يكون فيها أوّل النهار وأُخرى وسط النهار وأُخرى في آخره وعلىٰ أساس ذلك ، فان القمر يمكن أن يُشاهد في جزء صغير من الكرة الأرضية وفي تلك الساعة .

٢ ـ وجوب خلو السماء من الحواجب :

إن البلدان تتباين أجواؤها ، من حيث صفاء السماء أو تكدرها بالسُّحب والغيوم فيمكن في تلك الليلة البدرية التي إنفلق فيها القمر إلىٰ نصفين ، أن تكون بعض البلدان القريبة والواقعة في ذات الأفق مع مكة مكدّرة الأجواء بالغيوم أو الضباب أو الغبار ، فلا يمكن مشاهدة البدر فيها لذلك السبب ، إذن فان قولهم بالشبهة ، وهي « أن القمر إن كان قد شُقَّ فكان الأحرى أن يُرى في

جميع البلدان » مردودٌ ولا معنى له تماماً ، فالقائلين بهذه الشّبهة إما أنهم لا يعرفون شيئاً بالكامل عن هذه المسائل ، مثل كروية الأرض واختلاف الآفاق وخطوط الطول والعرض وتضاريس الأرض وجغرافية البلدان ودوران الأرض واختلاف الساعات وما شاكل ذلك ، أو أن معلوماتهم سطحية ضحلة ، وإن لم يكن ذلك منهم ، فلربما أنهم يطرحون شبهاتهم من باب العناد واللجاجة ليُضلّوا به العوام والسُّذج من الناس ، بالرغم من أنهم أنفسهم يعتقدون بصحة هذه الواقعة .

٣ ـ الإنشغال عن الوقائع والحوادث السماوية :

إن ما يجري ويقع من تغيّرات وحركات في السماء وخصوصاً في الليل ، نلّما ينتبه إليها الناس ، وأفضل دليل ونموذج لذلك هو أنك كثيراً ما يصادف أن القمر يمر في حالة الخسوف وأنت قد لا تنتبه إليه ولا تعلم بذلك . ومثل هذا الأمر يحصل لدىٰ عموم الناس لأنهم قد يكونوا نائمين ، وربما حتى في حالة الخسوف الكُلّي وبالأخص أيام الشتاء والبرد القارص ، فمن تراه يخرج إلى باحة البيت أو السطح ويراقب القمر ؟ كل تراه يأخذ زاوية من البيت ويختبىء بها فما له والقمر !؟

هذا فضلاً عن أن حادثة كشق القمر تحدث فجأةً ولا أحد لَه علمٌ بها إلاّ أن يُخبَرَ بها أو أنه يُصادف أن يرفع رأسه إلى السماء فيشاهد الواقعة كما هو الحال بالنسبة للخسوف حيث يشار إلى ذلك في التقويم ، فيحصل الإطلاع بقراءته بأن في الليلة الفلانية والساعة الفلانية والدقيقة الكذائية سيحصل خسوف جزئي أو كامل للقمر أو إنك ترفع رأسك من غير قصد وتنظر إلى قرص القمر فتجده يدخل طور الخسوف .

إذن فهؤلاء الجُهّال الذين يكتبون في كتبهم من الضلال في أن القمر لو كان قد شقّ قسمين ، فكان الأحرىٰ أن يشاهِد ذلك جميع الناس ، ويسجلونه

كحادث تأريخي ، فان مثل هذا الكلام ، كلام فارغ ولا يصدر من عاقل عارف .

إنك ربما تشاهد في الليل وحين تنظر إلى السماء شهاباً كبيراً يخطَفُ في السماء فجأة ، وفي اليوم الثاني حينما تسأل عنه الناس تجدهم لا علم لهم بذلك إلاّ أللهم النادر فهم ممن انتبه إلى ذلك أو قد لا تجده بالمرّة . فربما يشاهد شخصٌ واحدٌ أو إثنان من أهالي مدينة شيراز بالأفهم المؤلفة ، حدثاً عجيباً في السماء يقع ولا يلحظه بقية الناس ، وهذا ليس بدليل ينفي وقوع الحدث أصلاً لأن الآخرين لم يشاهدوه .

٤ ـ لا يُتوقع العونُ من العدو .

بعد كل هذا الذي وضحناه يبقىٰ أن نقول إن أتباع الأديان الأخرىٰ ، وخاصة زعماؤهم من يهود ونصارى بمختلف طوائفهم وفرقهم الذين كانوا في تلك العصور ، كانوا منهمكين في محاربة الإسلام ومحو آثاره والقضاء عليه وعلى أتباعه ، ولو آفتُرِضَ أنهم شاهدوا معجزة الإنشقاق أو عَلِموا بها ، فهم لا يكتبونها ، فهؤلاء يريدون استئصال جذور الإسلام من منبتها والقضاء عليها فكيف ننتظر منهم ان يؤيّدوا هذه الحادثة التي يصبح شيوعُها دليلاً قاطعاً على أحقية الإسلام !!؟

٥ ـ دليل ينقض الشبهة ويؤكد وقوع المعجزة :

كتب المرحوم فخر الإسلام : ان في إحدىٰ المدن الهندية والتي تدعىٰ « ميليبارد » كان يحكمها ملكاً مجوسيّاً وقد شاهد بنفسه وعدد من حاشيته والناس معجزة شق القمر في ليلة تمامه ، فقام الملك باستقصاء الأمر بنفسه بأن أرسل عدداً من حاشيته إلى بعض البلدان المجاورة ليستكشف حقيقة الأمر ، وبعد أن تبيّن له أن نبيّاً عربيّاً في مكة المعظمة جرت على يديه هذه المعجزة

الإلٰهية لاثبات صحة دعوته ، صار هذا الملك مسلماً ، وكلُّ أبناء مملكته ، وقد ذكر المرحوم فخر الإسلام أن مسجداً أمر هذا الملك بتشييده سمّاه بمسجد « شقّ القمر »[1] .

٦ ـ في المُخبِرِ الصادق كفاية :

علاوة على كل ما مضىٰ فاننا لسنا بحاجة بأي شكل من الأشكال إلى دليلٍ وإثباتٍ لصحة المعجزة ما دمنا نؤمن بالقرآن المجيد ، وما دام القرآن قد أشار إلىٰ هذه الواقعة في السورة التي نحن بصددها ، ويكفينا ما قاله الله سبحانه في كتابه المجيد لأن نكون على علمٍ ويقينٍ بالأمر ﴿ربّنا آمنّا وصدّقنا بما أنزلت﴾ .

(١) أنيس الأعلام : ص١٠٩ .

« هل هبط القمر الى الأرض »

المسألة التي ينبغي الإشارة إليها هنا هي أولاً أنه يستفاد سن وجه بعض الـروايات أنّ القمـر هبط إلىٰ الأرض وبعد التـدقيق والتحقيق والتدبّـر في هذه الروايات يتضح أن المراد بذلك هو المعنىٰ المجازي ، ولا وجود أساساً لمعنىٰ الهبوط الواقعي للقمر أي النزول الحقيقي ، فمثلاً : إن الروايـات التي ذُكرت في تفسير مجمع البيان ، ومنها ما جاء عن جبير بن مطعم الذي قال : لقد رأيت القمر آنشق شطرين بـأمر رسـول الله (ص) . على هذا الجبـل وهذا الجبـل ، والذي يحتمل على الأغلب أن الجبلين هما الصفا والمـروة . فيبدو من ظـاهر تلك العبارة أن شطراً من القمر شوهد فوق جبل الصفا والقسم الآخر فوق جبل المروة ، وهذا هو المعنىٰ المراد من أن القمر هبط إلى الأرض وآنشق شطرين فحطّا على رأسي جبلين ، ليس أنه هبط بمعنىٰ الهبوط ، وحطّ بمعنىٰ الإستقرار على الشيء بل إن المعنىٰ مجازيٌّ أي إنه انشطر نصفين فصـار كلُّ قسمٍ علىٰ رأس جبـل ، ويمكن تصور أن شخصـاً يأتي إلىٰ الكعبـة ويرى آنشقـاق القمر وحين تسأله يجيبك أنه شاهد نصفه على جبل الصفا والآخر على المروة ، أو أنه لو شاهدَ ذلك في مدينة شيراز ، وسئل عن نصفيه ، فيقول مثلاً إنه شاهد شطراً منه على جبل القبلة والآخر على جبل (بمو) فالمقصود من ذلك هـو الناحيـة والجهة التي شوهد فيه القمر أو النجم أو أي شيء من السماء ، والسامع يفهم المقصود مباشـرة ، دون التفكير بـالمعاني الحقيقيـة للألفـاظ ، ومن ذات هذا

المعنىٰ المجازي يستفاد من الرواية التي ذكرت عن الإمام الصادق (ع) بالنسبة لهذه الواقعة ، حيث يقول (ع) : « إن قسماً منه كان في الصفا ، والقسم الآخر في المشعر الحرام » ، ومثل ذلك يقالُ حين رؤية الهلال والتحقيق فيها ، فيقال إنه شوهد على التلّة الفلانية أو فوق البُرج الفلاني .

إننا نعطي هذه الأهمية البالغة لهذه القضية ، ونؤكد عليها مراراً وتكراراً لئلّا يقعَ البعض في الشبهة لاختلاط الأمر عليه لما يسمعه من الرواية الكذائية ثم لا يفهم مقصودها مما يُوقعُ في الشك .

شق القمر وآقتراب القيامة :

هنا نقطة ينبغي ملاحظتها في مسألة الجمع بين إقتراب الساعة وانشقاق القمر ﴿إقتربت الساعة وانشق القمر﴾ .

وسبب هذا الجمع له وجهان : الأول ذلك الذي ذكرت أنباؤه في كتب الأنبياء السالفين فيما يخص القيامة ، فقد جاء فيها : إن نبيّاً عربيّاً إسمه محمد (ص) يظهر إلى العالمين قبل قيام القيامة ، تحصل على يديه المعجزات ، ومنها شق القمر فهذا الظهور وهذه المعجزة هما من علائم اقتراب الساسعة وقيام القيامة ﴿ وما يدريك لعلّ الساعة قريب ﴾ .

أما الوجه الآخر كما ذكره الإمام فخر الرازي ، حيث يقول : إن من علامات القيامة التي أنبأ الله سبحانه عنها في كتبه السماوية هو اضطراب الأجرام السماوية والخروج عن طورها الطبيعي في حركتها الفلكية ، وفناؤها شيئاً فشيئاً كل ذلك يقع ويسبق قيام القيامة في الأرض ، ومن هنا يلقي الوجوديون (الطبيعيون) والدّهريون شبهتهم حول القيامة ، فيقولون : إن هذه الكواكب والأجرام لا يمكن أن تتلاشىٰ وتفنى بأي حال من الأحوال ، ذلك لأنها أجسام نقية لطيفة لا تقبل الانثلام والتفكك أو الإلتئام والإلتحام ، أي إنها قديمة أزلية ، ولما كان شيء ، من هذا لا يحصل ، إذن : فلا وجود ولا وقوع للقيامة ، هذه

هي شبهتهم ، والله تعالى يقول : ﴿اقتربت الساعة وآنشق القمر﴾ ، وهو أعظم شاهد يدحض مقولة هؤلاء المنكرين للقيامة ووقوعها ، ذلك أن المعجزة قد وقعت على يد رسول الله (ص) وانشق القمر نصفين وهو ما آتضح جلياً للمعاندين الذين أرادوا إثبات صدق نبوته (ص) بهذا الإختبار ، ثم أصروا من بعدها ، ولم ينفع معهم البرهان ، فإحدى علامات اقتراب القيامة أو الساعة حسب التعبير القرآني هنا هو تجزأ الكواكب ومنها انفلاق القمر .

حضور علامات القيامة :

يقول تعالى في كتابه المجيد ويعني بخطابه المنافقين : **﴿فهل ينظرون إلّا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾**[1] أي ان المنافقين ألا ينتظرون أن تقوم القيامة في أي لحظة ، وها هي علاماتها وشروطها قد حلّت ، كبعثة خاتم الأنبياء (ص) الذي يدل على بداية وقوع آخر الزمان ، وكذلك إنشقاق القمر وغير ذلك من العلامات الأخرى .

إذن فطبقاً لقوله تعالى ، فان شروط القيامة أي العلائم التي تدل على آقترابها قد حصلت فعلاً ، وفي تفسير البيضاوي جاء القول : لأنه قد ظهرت إماراتها كمبعث النبي (ص) وانشقاق القمر وفي التفسير الكبير للفخر الرازي حيث يقول : الأشراط العلامات ، وقال المفسرون هي مثل إنشقاق القمر ورسالة محمد (ص) . وفي كتاب الجلالين ورد : « أي علاماتها ، منها مبعث النبي صلى الله عليه وآله وإنشقاق القمر ، وكذلك جاء في ملخص المنهج إن شرائط قرب القيامة التي ذكرها الله في قرآنه المجيد قد تحققت ، ومنها بعثة خاتم الأنبياء (ص) وشق القمر وللإطلاع على تفاصيل أكثر يمكن الرجوع إلى كتاب « أنيس الأعلام » .

---

(١) سورة محمد ، الآية : ١٨ .

المعاندون لا يبتغون الإيمان :

﴿وإن يروْا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌ﴾[1] .

إنهم طلبوا معجزة شق القمر ، وآتاهم بها النبي الأكرم (ص) ولكن يا للأسف كلما أُوتوا بالآيات والمعاجز والبراهين الدامغة يلمسونها ويرونها ، ثم يقولون إنه السحر . ﴿وإن يروا آية﴾ : أي إن المشركين حينما تتجسد أمام أعينهم العلامة والبرهان اللذين يدلان على صدق النبوة ، فانهم ، وبدلاً من أن يؤمنوا تراهم ينكصون على أعقابهم معرضين ويحسبونه سحراً ﴿يعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر﴾ .

ومن هذه الآية يتضح أن المشركين كانوا علىٰ الدوام يمتحنون رسول الله بهدف إحباط دعوته وتكذيبها ، فيطلبون منه إظهار المعاجز والخوارق وحينما يأتيهم بها جلية واضحة تُبهر أنظارهم ، لكنهم مع ذلك ومن منطلق عنادهم وإصرارهم على الشرك والضلال ، يقولون مقولتهم في كل مرة إنه السحر وإنه لساحر !

والمعنى الآخر لكلمة ﴿مستمر﴾ ـ كما وردت في الآية يأتي من اشتقاقه من كلمة (مرور) أي إن شق القمر سحر يمضي وينتهي بسرعة ويزول « ذلك إنطلاقاً مما كانوا يعتقدون بأن السحر في السماء باطلٌ وغير فاعل » .

الساحر والنبي صلى الله عليه وآله :

إن هؤلاء كانوا بلهاءً وحمقى ، بحيث غاب عن بالهم أن الساحر هو ذلك الشخص القذر الذي يعبد المال ، ولا شأن له ولا علاقة بالله ، والأمور الروحية والمعنوية إنما كلُّ علاقتة وشغله بالشياطين والجنّةِ ، فالسحر والإبتعاد عن الله

---

(١) سورة القمر ، الآية : ٢ .

سبحانه أمران متلازمان بينما نجد أن رسول الله (ص) يقول : « لا إله إلاّ الله » فكل نفسه في الله ، ومن الله ، ولا ينطق ولا يدعو إلاّ لوحدانيّة الله سبحانه فأين رسول الله من السحر ، الساحر يجهد في دعوة الناس إلى نفسه ويبحث عن الجاه واشباع شهواته ورغباته الشيطانية ، بينما كل ما نعرفه عن رسول الله (ص) ويعرفه المشركون أنفسهم أنّه كان يدعو الناس إلىٰ الله ، كان (ص) لعشر سنوات يقوم من أول الليل إلى الفجر واقفاً على قدميه ، يعبد ربّه ، يركع ويسجد ، يتهجّد به ويُسبّح له ، نعم ، إن السبب الأصلي لعدم إيمانهم وإصرارهم على الشرك والكفر هو كِبْرُهم ، فهم يرون أنفسهم أصحاب شأن خاص ، معجبون بها ، فهم ذو الرقاب المتينة الغليظة ، وهم عند أنفسهم الكبائر والرؤساء ، وليسوا مستعدين أن يؤمنوا برسول الله (ص) ثم يتبعونه وينقادوا به ، فهذا أبو جهل الذي يعرف أيضاً باسمه الحقيقي أبو الحكم . يقول : أنسمعُ حديث محمد وما هو إلاّ باليتيم ؟ إنّهم ليسوا مستعدين لأن يؤمنوا في الوقت الذي يرون فيه الآيات والمعاجز ظاهرة جلية أمامهم ، وعندها يقولون كل كلام تلفظه أفواههم سواءً كان ذلك صحيحاً أم لا ، أي فهم يحاولون بكلّ ما أمكنهم أن يلصقوا هذه الإفتراء أو ذاك بالنبي صلى الله عليه وآله ، وإن لم يكن لهم شغل بذلك فيقولون : سحر مستمر ، فلا يخطر على بالهم أن يُمعنوا في الأمر : أين هو السحر من معجزة شق القمر ؟ وأين الساحر من شخص رسول الله (ص) .

« الإسلام هو الغالب »

﴿وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم وكل أمرٍ مستقر﴾ .

فهم عوضاً عن أن يسلموا ويؤمنوا بالله كذّبوا دعوة النبي (ص) واتبعوا ما تُملي عليهم أهواؤهم وكل ما بلغ من معرفتهم ، إن كل أمر لا بدّ من أن يؤول وينتهي إلىٰ الإستقرار وبالنسبة لِلفظ **﴿مستقر﴾** فان له عدة معاني ، أُحد هذه المعاني هو أن دعوة محمد (ص) التي واجهت في أول إشراقتها وظهورها تلك المعارضة والمعاندة المريرة لكنَّ خاتمتها ستصل إلى ما يُريده هو (ص) ، فسيأتي زمان تشرق فيه شمس الإسلام بنورها الأبهىٰ ، الذي ينتشر في كل الأرجاء ، بينما الآخرون المعاندون ، فان عواءهم لا يثمر بما يحلُمون به ، ولا يبلغ نتيجةً ، وبالفعل ـ فلم يمض طويلٌ من الوقت حتى سقطت نفس مكة هذه التي كانت بؤرة للشرك والمشركين سقطت بيد رسول الله (ص) . ومنها انطلقت الدعوة المحمدية حتى امتدت من الصين شرقاً وإلىٰ الاندلس غرباً ، وسقطت إمبراطوريتا فارس والروم ، وارتفع صوت المؤذن ينادي بالشهادتين في كل مكانٍ ، وبات محمد (ص) يذكر بالشهادة بكل عزٍّ واجلالٍ بعد شهادة أن لا إله إلّا الله .

فلقد أرادوا بألسنتهم وادعاءاتهم الباطلة المزيفة أن يطفئوا النور الإلٰهي **﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾** لكنهم باتوا غافلين عن حقيقة أن **﴿كل أمرٍ**

مستقر﴾ وأن البقاء والثبات للحق وصاحبه .

أما المعنى الآخر لكلمة ﴿مستقر﴾ هو ما يشير إلى الآخرة ، أي إنكم لا تتصوّرن أن كل أمر إلىٰ نهاية وزوال ونسيان ، كلا ، فلا الجميل يُمحىٰ وينسىٰ ولا القبيح السيء ، فكل شيء لا يفوت على الله سبحانه ، وهو باقٍ فأولئك الذين آمنوا بدعوة محمد صلى الله عليه وآله ورسالته وأسلموا لله ، فان مآلهم ومحلّهم في الآخرة الجنة وأما أنتم (أيها المشركون) فان مستقركم النارُ والعذاب في جهنم خالدين فيها أبداً .

الغافلون ومقرّهم الحقيقي :

يقول بعض العلماء الأجلاء في صدد هذه الآية الشريفة : إن ما يُماثل الكفار في هذه المسألة هم أهل الغفلة (الغافلون) ، فهم يرون ويسمعون أجراس الموت يعلو صوتها ورنينها ، عيونهم باتت ضعيفة وآذانهم أخذت تصمُّ شيئاً فشيئاً ، حتىٰ ثقل سمعهم ، الأسنان بدأت تتساقط عاجزة عن مضغ ما يشتهون ، الشيب أخذ يغزو شُعورَهم كل هذه العلامات وغيرها تتراءى أمامهم وتغزوهم ، لكنهم عن كل ذلك غافلون لا يأبهون بما يطرق عليهم الأبواب ، لا يفكرون بالاعداد للسفر الطويل ، ولا يتزوّدون له ، بل هم يُخيّل إليهم أن كل شيء باق هنا ، ومقتصر على هذه الدنيا لا يريدون أن يقبلوا بحقيقة أن المقرّ الحقيقي ليس هنا ، بل هو في مكان وعالم آخر ، والذي هم فيه هنا ما هو إلاّ المعبر ، فالله سبحانه يريد أن ينبِّه هؤلاء ، وربما نحن أيضاً جميعاً من نومة الغافلين[1] .

﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ .

---

(١) وقد جاء في الدعاء الشريف : « أللهم ارزقني التجافي عن دار الغرور والانابة إلىٰ دار الخلود والإستعداد للموت قبل حلول الفوت » .

وفي هذا المقطع من السياق القرآني الكريم يأتي دور التذكير الإلٰهي بالعقاب والتهديد والزجر لأولئك المشركين الذين لم تنفع معهم معجزة شق القمر ولم تؤثر فيهم وربما هو شأنهم مع كل قضية واضحة ، لا كلام فيها ، فان كانت تخالف أهواءهم وتصطدم مع رغباتهم فإنهم يتصدّون لها منكرين إياها ، مبررين إياها بالسحر وما شابه ، فالله سبحانه هنا يلومهم بشدة ويُوبّخهم ، ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ ، فليس الأمر جديداً عليهم فلقد سمعوا من الأخبار ما فيه الردع عن الغي والضلال ، والتنبيه والموعظة والنُصح والأنباء : جمع نبأ أي الخبر ، وهو ليس كلّ خبر ، بل هو الخبر الذي يُنتفع ويُتّعظُ به . فمثلاً الخبر العادي هو ما ينقل لك عما حدث من القضايا والأمور التي تفيد لمجرد الاطلاع وحسب ، فلا ربط لها بمستقبلك أو مصيرك ، وربما لا تأثير لها عليك من مثل أن فلاناً مات وفلاناً صار حاكماً ، وإن فلاناً صار ثريّاً وهكذا .

أمّا النبأ فهو الذي يرتبط بك وبمستقبلك وتحصل منه الفائدة حين سماعه ، وهو أيضاً نوعان :

فإما أن يكون متّصلاً بالماضي حيث تُستحصل منه العبرة والموعظة كالخبر المتعلق بوباء تفشىٰ في مدينة شيراز قبل أربعين عاماً ، فمثلُه يُقالُ عنه نبأً ، فحين تسمع بهذا النبأ أو ما هو مثله ، تحصل لديك الموعظة والعبرة أي إنك تتعظ وتعتبر به ، وفي هذه الموعظة والعبرة الحاصلتين فائدة عظيمة .

أما النوع الآخر من الأنباء فهو ما يتعلق بالمستقبل ، كأنباء الموت والبرزخ والقيامة والجنة والنار والصراط والحساب ، التي يُعبّر عنها القرآن الكريم بأنها النبأ العظيم . ﴿عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ .

ففي الآية التي تمت بصددها ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ أي إن الأنباء التي وصلت أسماعهم ، إنما هو مستوجب العبرة والموعظة والتقوى والخوف من الله سبحانه سواء أكان منها ما يتعلق بالماضين وأخبارهم أو بالذي

يقع لهم مستقبلاً .

والمزدجر من الـزجر ، ويـرداد بها الإرتـداع الناجم من العبـرة والخوف الحاصلين من سماع الأنباء ، فذلك الذي يسمعون من بعض الأخبار الدنيويـة تجدهم لا يهتمون به ولا قيمة له عندهم ، فان كان صحيحاً فانـه مجرّد ضيـاع وقت بالنسبة لهم ، وإن كان كذباً فانهم سماعون للكذب .

العمر الطيّبُ قصيرٌ حقّاً :

حينما نَعُدّ النومِ من العمر أيضاً ، فاننا نجد أغلب الأعمار اليوم لا تتعدىٰ الستين والسبعين عاماً وكما حدّث بذلك خاتم الأنبياء (ص) حين قال : « أكثر أعمار أُمّتي بين الستين والسبعين » ترىٰ حين يكون عمر الإنسان بهذا القـدر ، فهل من اللائق أن يصرفه الإنسان ويُتلَفهُ بسماع الأكاذيب والقضـايا الـواهية ، والأمور التي هي محض أوهام ، لا معنىٰ لها ولا فائدة ولا ثمرة ترتجىٰ منها ، أليس من الأولىٰ والأفضل أن يُنفَقَ هذا العُمر الطيب بـالانصات والتّـدبر بتلك الأنباء المهمة الخطرة المليئة بالموعظة والعبرة والنصيحة التي يطرق بها القرآن المجيد أسماعنا أو نقرأها ونسمعها من أئمة الهدىٰ والرشاد والتي فيها الخيران ، خيرُ الدنيـا ، وخيرُ الآخـرة ؟ وخير الـدنيا فيهـا أنها تجعلنـا ننصرف لـلاشتغال والإنهماك بالقضايا والأمور والأشياء الواقعية المفيدة ، ونسيان الأمـور الدنيـوية الخاوية والإعراض والإنصراف عنها ، ونكون نتيجة ذلك في نهاية المطاف أننا نعي بشكـل جيد ونتنبـه إلى الرحيـل إلى الآخـرة ، الـذي يستلزم منـا التـزود والإعداد لها ، حتى لا نرحل إلى هناك بجُعبٍ فارغة إن لم تكن مليئة بما يُذِلُّ ويُخزي ، فذلك هو خير الدنيا والآخرة ، أما سماع الأخبار الدنيـوية المـزعجة الموحشة ، فليس فيها سوىٰ إرهـاق الأعصاب ، وبث الإضـطراب والقلق عند الإنسان .

فهؤلاء الدنيويون المغمورون في الفوضىٰ والهوس الدنيوي لا راحة لهم

حتّى في رُقادِهم فذاتُ الأشياء والأمور التي يحبونها في حياتهم اليومية تعود لهم فيرونها في منامهم كميادين المعارك والصراعات المريرة والمشاكل والمعضلات التي تقلقهم وتنال من راحتهم في النّهار .

إنني في حيرة ، متىٰ أشدُّ متاعي وأستعد للرحيل ! غداً في القيامة لا نُسأل عمّن جاء وعمّن مضىٰ ، ومن صار حاكماً ومن أُقصي عن عرشه ، إن ما نسأل عنه غداً هو العقيدة والدين والإيمان والولاء للحق والطاعات ، إنما نُسأل عن الصلاة والواجبات والفرائض ، وهل أن إيماننا واعتقادنا هو بالشكل الذي أراده الله منّا ، فهاتان الركعتان اللتان نُصليهما هل نؤديهما بحضور قلبي وإحساس بالخشوع .

لا تدع العُمر يذهب هدراً :

ليس من العمر إلاّ الذي مضّيناهُ في ذكراك ، نعم ذلك أمضيته في الله وأحبّاء الله ، نعم هو ذا المنظور منه ، وإلاّ فان ما تبقّىٰ منه هدرٌ وخسارة في هذا الثمين الذي أُعطيناه ، وقد صدق رسول الله (ص) حين قال « قيمة أعماركم الجنّة » نعم فالعمر رأس مال المؤمن فالأوْلىٰ أن ينفقه في شراء الجنة فهو رأس مال التجارة مع الله سبحانه ، به يُشترىٰ النعيم الأبدي ، والمهر الذي تدفعه لحور العين وبه تنال الدرجات الرفيعة فتكون من المقربين إلى الأنبياء والأولياء والصالحين ، ويا للأسىٰ أن يُنفق رأس المال هذا الثمين ، والذي لا مثيل له في التوافه والمعاصي واللهو والأراجيف على حين من الغفلة وجحيم من الفراغ .

وباختصار فان الله سبحانه يقول في هذه الآية : إن هؤلاء قد جاءهم من عظيم الأنباء عن الأولين والآخرين ، وعما سيجري عليهم في الآتي ، علّهم ينتهون عن غيهم وضلالهم وشركهم ويرتدعون بالعبرة والموعظة البالغة ، ثم ينتقل السياق المبارك مستطرداً .

﴿ حكمة بالغة فما تُغن النذر ﴾ :

كل هذا من الحكمة ، وأيّة حكمة ؟ إنها الحكمة الكاملة ، كمال الحكمة ، ذروة الحكمة ومنتهاها .

ما هي الحكمة ؟ في مفهوم أهل البيت (ع) معناها الفهم والإدارك والمعرفة ، معرفة الحقيقة ، معرفة وفهم القرآن ومقاصده ، فكل من كان له نصيب في إدراك معرفة القرآن والإستنباط من آياته قيل عنه عالم وحكيم . ولو كان ينقصه علمٌ من سائر العلوم المادية الأخرىٰ - والضدُّ صحيح أيضاً - فلو كان المرء لا يعرف شيئاً عمّا في القرآن المجيد من معاني وحكم وأحكام ، فانه جاهل لا يعلم ، ولو كان فيلسوفاً ، كما يسمونه أو قد حاز على شهادات الدراسة العليا ، فلا علاقة له بالحكمة والعلم .

الحكمةُ علمٌ وعملٌ :

الحكمة على قسمين : الحكمة العلمية والعملية ، فالحكمة العلمية هي فهم وادراك بعض المعارف والعمل بها ، منها أن الإنسان يدرك أنه عبدٌ ذليلٌ لله العظيم المتعالي ، ويدرك ويفهم معنىٰ النبوة ودرجتها الرفيعة وخاصة مقام خاتم النبوة والرسالة محمد (ص) والولاية والإمامة الممتدة في ذريته المعصومين (ع) ومن ثم يكون على معرفة ويقين بالبرزخ والقيامة ووجود الجنة والنار ، وأنّ الدنيا ماضية نحو الزوال والفناء ، والآخرة آتية للدوام والبقاء ، وبايجاز فان الحكمة العلمية هي حصول العلم بحقائق الأشياء والأمور وأسرارها .

والحكمة العملية هي تجسيد تلك المعارف بتطبيقها والعمل بها ، ووفق ما تقتضيه أو انعكاسها في السلوك العملي والأخلاقي ، وحركة الإنسان المؤمن في الحياة ، فهو يحسب لكل ما عرفه وعلم به من تلك الحقائق في كل خطوة يخطوها في حياته ، وتعامله مع المجتمع والعائلة ، فهو حين يعرف أن الحرص

بذيء والبخل مذموم ، ويستيقن أن الحقد والعداوة والبغضاء هي من الخصال السيئة ، فانه سيسعى قدر الإمكان أن لا يكون فيه شيء من تلك الممقوتات ، وإن كان فيه شيء منها ، فانه سيُجهد نفسه على التخلص منها وآثارها .

نعم ربما يستحصل البعضُ شيئاً من علم الأخلاق من خلال دورةٍ يُمضيها في الدراسة والتحصيل ، لكنه حين لا يُميّز ولا يحس بما أصاب قلبه من أمراض النفس أو أنه ليس في صدد علاجه ، ترىٰ ما فائدة ذلك العلم الأخلاقي الذي آستحصله ، وهل يمكن أن يطلق عليه بالحكيم ؟

وكذلك فيما يتعلق بالصفات التكاملية ، فان آنعدم وجود الخوف والرجاء ولم يكن هناك وقارٌ وسكينةٌ ، ولا محل للرضا والتسليم في القلب فان آنعدمت هذه الأمورُ ومثيلاتُها فأي فائدة ترتجىٰ ممن عرفها وعِلمَ بها ، ولم يعمل بها وما صلتها بالحكمة ؟ إنما الحكمة هي العلم المصحوب بالعمل والتطبيق .

آثار الحكمة :

فيما يخص قضايا الحكمة ، فان في روايات أهل البيت (ع) وتفاسيرهم إشارات لذلك ، فمثلاً في تفسير قوله تعالى بشأن يحيىٰ عليه السلام حين يقول تعالى : **﴿وآتيناهُ الحُكم صبياً﴾** قالوا(عليهم السلام) إن من شؤون وآثار الحكمة هو الزهدُ في الدنيا .

أو مثلاً في مضمون تفسير قوله تعالى : **﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾** فقد ورد في تفسير الصافي : إن بعضاً من آثار حكمة هذا الرجل الحكيم التي تجسدت للعيان هو أنّه لم يُرَ مُقهقهاً يوماً ، ولم يمل قلبه ونفسه إلى المزاح طيلة عُمره ، فمن حكمة لقمان (ع) أنه قال لولده : **﴿يا بُنيّ لا تشرك بالله ، إن الشرك لظُلمٌ عظيمٌ﴾** ، ثم من نصائحه الحكيمة أيضاً **﴿واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك﴾** ، أي ليكن هادئاً لطيفاً ، وليكن مشيك معتدلاً يحوطه الوقار ، ليس سريعاً بالشكل الذي يمسُّ شخصك ويُسيء إلى قدرك ويقلل

احترامك وليس بطيئاً ، حتىٰ يقال عنك كأنّك مريضٌ وعليلٌ . ثم يستمر بالنصيحة قائلاً كما نقل القرآن المجيد عن لسانه : **﴿يا بني إنها ان تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السمٰوات أو في الأرض يأت بها الله﴾** .

فهذه نخبةٌ من المواعظ والنصائح الجامعة النافعة التي يذكرها الله سبحانه في كتابه المجيد عن لسان لقمان فكلُّها من آثار الحكمة المستخلصة من شخصه الكريم ، وإنه لَلْحَقّ قولهُ تعالىٰ : **﴿ومن يؤت الحكمة فقد أُوتيَ خيراً كثيراً﴾** .

إن من الآثار الدالة على الحكمة والتي يمكن لَمْسُها في الحكيم هو الصمت ، فكل من قطع في سبيل الحكمة شوطاً ، ونال منها زاداً أكثر ، كلما كان أكثر صمتاً ، وعلىٰ أية حال فان القرآن المجيد هو من الحكمة وهي الحكمة التّامة البالغة ، ويقول بعض المفسرين ان لفظ الحكمة الوارد في الآية التي نحن بصددها **﴿حكمة بالغة فما تُغن النذر﴾** إنما هي خبر لمبتدأ محذوف تقديره « هي » أي أن أصل العبارة « هي حكمة بالغة » فكل الأنباء التي وردت في القرآن هي من الحكمة البالغة التامة ، لكن ويا للأسىٰ والأسف .

﴿ فما تُغنِ النُّذر ﴾ ! :

بالنسبة لنا هنا في هذه الآية يوجد احتمالان : أحدهما هو الإستفهام الإستنكاري ، حيث أن النذر هي جمع نذير ، أي الناصح المُحذّر من العواقب السيئة ، فهذه الأنباء التي حملها الأنبياء لنا ، ترىٰ كم من الفوائد والمنافع التي عادت بها علينا ؟ أهي قليلة ؟

أما الوجه الثاني هو أن « ما » في « فما » هي من النوع النافية للجنس أي إن المعنى « يصبح في هذه الحالة ، أي إنهم لم يعودوا بحاجةٍ إلى المنذرين وإلىٰ ذلك الذي كانوايُنبؤنهم به كي يحذروا ويتّقوا الله سبحانه ، فهم يسمعون من أذنٍ ويخرجونه من أخرىٰ ، نسأل الله سبحانه أن يجعل المواعظ تترسخ في

الألباب كي تعمل فيها وتترك أثرها .

ثم ينتقل السياق بعد ذلك مخاطباً النبي (ص) بالقول :

﴿فتولَّ عنهم﴾ :

فما دام الحال كذلك أي أن النُّذُرَ كلما أنذروهم وحذروهم ، لا تجدهم يأبهون فلا يخشون ولا يتقون لدىٰ سماعهم بأنباء الماضين وقصصهم العبرة أو أنباء ما سينزل بهم من أمور مخيفة مرعبة ، سواء في مستقبل حياتهم في هذه الدنيا أو ما بعد موتهم ، وهو الأَمَرُّ والأنكىٰ ، كلُّ ذلك لا يؤثر في نفوسهم ووجدانهم ، ولا ينفع معهم ، ما دام الحال كذلك ، إذن فدعهم لحالهم واتركهم يلقَوْن ما يوعدون به من عواقب وخيمة سيئة ولاعليك أيها الرسول بعدما أدّيت ما عليك من أمانة التبليغ ، فشأن هؤلاء شأن أولئك المرضىٰ الذين لا يرعون نصائح الأطباء لهم ، وهو في نفعهم ، وليس في نفع الأطباء ، فالطبيب الذي يجد مريضه لا يعمل بتوجهاته ونصائحه ما يكون منه إلّا أن يترك مريضه وشأنه ، وهنا ينتهي المعنىٰ في مقطع من مقاطع السياق القرآني ليبدأ مقطعاً ومعنىً جديداً ، لذلك استلزم الوقف اللازم في هذه الآية عند قوله تعالى : ﴿فتول عنهم﴾ كما جاء ذلك في تفسير مجمع البيان .

ناصح مشفق :

جاء في الأدب العربي أن أحدَ الأشياء والأمور المتعلقة بالفصاحة والبلاغة أن الناصح الواعظ حينما يبين نصائحه ويعظ الآخرين ، ثم لا يستنصحون له ولا يتعظون بما ينصحهم ويعظهم بل يعرضون عنه ، فان مثل هذا الناصح الذي قد يعلم ذلك منهم يسمىٰ بالناصح المشفق ، لأن الرغبة في إصلاحهم تبقىٰ في نفسه ، فيبقىٰ يعظهم ولا يجزع عسىٰ أن يُصغوا إليه ويأخذوا بنصائحه ومواعظه فينجون حينئذٍ من العذاب والهلاك الذي يحذرهم منه ، فالناصح المشفق يؤدي

ما عليه في مخاطبة الآخرين ويقول كلماته بهدف توعيتهم وإرشادهم .

ثم ينتقل السياق ، فيخاطب ربُّ العالمين رسوله مبيناً له صوراً من أحوال القيامة ووقائعها ليعكسها بدوره على المشركين علّهم ينتبهوا ويرتدعوا فيقول تعالى : ﴿**يوم يدعُ الداع إلى شيء نُكُرٍ**﴾ والداعي هو المنادي الإلهي حين يدعو إلىٰ أمر غايةً في الكراهية والمعاناة ، والمعنيّ بالداعي هو إسرافيل (ع) وهو من الملائكة المقربين ، ووظيفته التي آختصه الله بها هـو النفخ في الصـور ، فله ثلاث نداءات أو صيحات أي إنه ينفخ في الصور ثلاث نفخات هُنَّ نفخة الفزع ونفخة الإماتة ونفخة الإحياء .

ويـروىٰ أن إسرافيـل (ع) حينمـا يهبط من السمٰوات إلى الأرض لينفـخ النفخة الأولىٰ فان الملائكة بأجمعها تستشعر ـ في هذا الوقت ـ الرهبة والخوف وتقف جميعها محتشدة في القُدس مولّيةً وجوهها صوب الكعبة المشرفة وعندما ينفـخ في الصور فـانه يُحـدث صوتـاً يرتعب منهـا ويفزعُ كـل مَنْ في السمـاء والأرض ، وذلـك قول الله سبحـانه : ﴿**ويـوم ينفخ في الصـور ففـزع من في السمٰوات ومن في الأرض**﴾ ﴿**ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض**﴾ . ثم يلي ذلك الموقف الرهيب ظهور دخـان كثيف يغطي أجـواء العالم بأنحائه كُلّها ، وتبقىٰ الكرة الأرضية محاطة بهذا الدخان الجليّ للعيـان أربعين يوماً[1] ، حتّىٰ أن الأنفاس تصبح دخاناً ينطلق من فتحات الفم والأنف .

وبالطبع فان المؤمنين الصالحين يبقون حينئذٍ في مأمنٍ ، من هذا الهول العظيم[2] ، وقد ذكرت الروايـات أن المؤمنين وعُمّالَ الصـالحات لا يُحسـون بأذىٰ هذا الهول إلّا بمثل مَنْ أصابه بردٌ خفيفٌ أو مجرد زكام .

ويقول بعض المفسرين مشيرين إلى هذه النفخة الباعثة على الفزع ، بأن

---

(١) ﴿**يوم تأتي السماءُ بدخانٍ مُبينٍ**﴾ سورة الدخان ، الآية : ١٠ .

(٢) ﴿**وهم من فزع يومئذٍ آمنون**﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٩ .

المرأة الحامل ستطرح حملها ، والمرضعة تُلقي رضيعها جانباً وتتخلّىٰ عنه ، والناس كأنهم ثملون سكارىٰ ، وذلك ما بيّنه اللّٰهُ سبحانه في الآيات الأولىٰ من سورة الحج .

أما أهل الإيمان والتقوىٰ والعمل الصالح ، فان الأمر ليس غريباً عنهم ، فقد عرفوه وآمنوا به حين الإخبار عنه ، فهم يعلمون أن ذلك مقدمة القيامة ، فلا تجدهم في همٍّ وغمٍّ ، لأنهم قد أدّوا ما عليهم في حياتهم الدنيا .

﴿كل من عليها فانٍ ويبقىٰ وجه ربّك﴾ :

ثم يلي تلك النفخة النفخة الثانية ويا لهولها ، انها نفخة الإماتة الأكثر رُعباً ، فلا يبقىٰ ذو نفسٍ وحياةٍ في السمٰوات والأرض حيّاً بعدها[1] .

نعم ، فتلك مشيئة الله وإرادته التي هي فوق كل إراده ، حتى الملائكة المقرّبون الأربعة فان الموتَ شامِلُهم ، وهم جبرائيل الأمين وميكائيل وإسرافيل ، ومن ثَمَّ عزرائيل ملكُ الموت نفسه ولا يبقىٰ في الوجود الساكن الصامت حينئذٍ سوىٰ ربّه وخالقه . اللّٰهُ العليُّ العظيم والحي القيّوم .

فينطلق من ذات جلاله نداءٌ أين أولئك المُدّعون ، ﴿لمن الملك اليوم﴾ . ولا من حركة ولا من جواب ، فيأتي الجواب من الذات الإلٰهية المقدسة ، أن ﴿لله الواحد القهار﴾ .

ويبقىٰ هذا الصمت والسكون في الوجود الفاني بعد النفخة الثانية ، نفخة الموت الأكبر ، يبقىٰ مستمراً لأربعمئة سنة ، كما يروىٰ عن الإمام السجاد (ع) ، أربعمئة سنة لا نَفَسٌ فيه ولا حركةٌ ، بل كل شيء يزول ويفنىٰ ﴿كل من عليها فانٍ ويبقىٰ وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ .

---

(١) ﴿ونُفِخَ في الصور فصُعقَ من في السمٰوات ومن في الأرض﴾ سورة الزمر ، الآية : ٦٨ .

موت الأبدان لا الأرواح :

بالطبع ، وكما بيّن ذلك العلاّمة المجلسي عليه الرحمة في « بحار الأنوار » أن الإماتة الآنفة الذكر ، إنما تخص الأحياء في أبدانهم . وأما الأرواح فانما تبقىٰ كما هو الأمر في الموت المتعارف عندنا ، أي إن الأرواح تنفصل عن الأبدان في نفخة الإماتة الكبرىٰ مدة أربعمئة عام ، وبعد انقضاء هذه المدة تقتضي المشيئة والإرادة الإلٰهية قيامَ القيامة ، كيف يكون ذلك ؟

يُروىٰ عن الإمام الصادق (ع) ما مضمونه إنه قال : يأتي مطر غزير يستمر أربعين يوماً وليلة ، وذكر في روايات أخرى أن هذا المطر لم تعهد الحياةُ الدنيا ، له مثيلاً ونظيراً ، أي ليس كالمطر المعهود عندنا بشكل قطرات تنهمر من السماء ، أما كيف هو فالعلم عند الله سبحانه ، ربما يكون كالميزاب أو أشد في انحداره ، حتّى إن بعض الروايات ذكرت أن الماء يركد على كل قطعة أرض بعمق اثني عشر ذراعاً ، ويتغلغل إلى جوف الأرض فيصلُ إلى كل ذرة من ذرات كل جسد أُودعَ فيها .

عودة الحياة إلىٰ إسرافيل ونفخة ثالثة :

بعد ذلك السكون والصمت المطبق في الأكوان يشأ الله سبحانه بقدرته وبكافه ونونه ، فينهض إسرافيل حيّاً مرة أخرىٰ ، ثم يأمره أن ينفخ ثالثة في الصور ، فيصل النداء ألا أيتها العظام الرميم النخرة ، ويا أيتها اللحوم المتهرئة المتناثرة ، وأنتِ أيتها الشعورُ المندرسة المتفرقة ، إن الله سبحانه يأمرك أن تنهضي وتقومي ، فقد آنَ يومُ الجَمْع ، إنها القيامة الكبرى ، وماذا يحصل في ساعتها ؟

فتلك الأبدان التي اختلطت ذراتها بعضها ببعض ، تنفصل وتعود كلٌّ منها إلىٰ موقعها وبدنها الأصلي .

وهنا يقول الإمام الصادق (ع) بما مفاده : إن ذرات جسد المؤمن التي اختلطت بذرات جسد الكافر كأنها ذرات ذَهَب اختلط بيْن ذرات الرمل والتراب ، وحين ينزل عليها مطر الأربعين المُذهل ، فان ذرات جسد الكافر تنفصل عن ذرات جسد المؤمن كما يزول وينفصل التراب عن ذرات الذهب حين يسكب الماء عليه ، وتجتمع بعد الإنفصال هذه الذرات مع بعضها ، ويلتحق كلٌ ببدن صاحبه ، ثم تهبط الأرواح وتنفذ إلىٰ الأجساد بنفخة إلٰهية فتهتز البقاع ، وتخرج منها الأجساد حيّة وتقف تلك الوقفة المذهلة المزرية ، حيث الكل عراة حفاة مذهولون مشغولون بأنفسهم[1] .

العظماء الأجلاّء يخشون ويهابون العُريَّ في القيامة :

ورد في كتاب معالم الزلفىٰ ما مفاده أن النبيَّ الأكرم (ص) قال : إن النساء تُحشر عاريات يوم القيامة ، عندها تبكي الزهراء (ع) وتقول : (وافضيحتاه) فهبط جبرائيل (ع) على رسول الله يُخبرهُ أن الله سبحانه يقرأ الزهراء السلام ، ويقول : إنني ضمنت للزهراء أن تقوم يوم القيامة وعليها حُلّتان من حُلل الجنة تسترها .

أما فاطمة بنت أسد أمُّ أمير المؤمنين عليهما سلام الله ، هذه المرأة الصالحة التقيّة التي يكفيها فخراً أنها ولدت إنساناً مثل عليّ (ع) ليس مثله إنسان بعد النبي (ص) وأين ؟ بين جدران الكعبة المشرفة في داخلها ، حيث حَلّت ثلاث ليال ضيفة عليها . وعلاوة على ذلك كانت سلام الله عليها بمثابة أُمّ لرسول الله (ص) ، فقد جاءت هي الأخرى عند رسول الله (ص) باكية لائذة به (ص) ترجوه أن تُكفّنَ بقطعة ثيابه حين التحاقها بالبارىء تعالىٰ .

---

(١) ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلىٰ ربّهم ينسلون﴾ سورة يس ، الآية : ٥١

وأمّا خديجة الكبرىٰ أُمّ المؤمنين وما أُدراك ما خـديجة ، فقـد طلبت من ابنتها الزهراء (ع) حين حضرها الأجل وكان عمر الـزهراء سـلام الله عليها في ذلك الوقت سبع سنوات أن تذهب إلىٰ عند أبيها . وقالت لها قولي لأبيـكِ إن أمي تقول إن لي عندك حاجةً ، وهي أن تُكفّنني بثوبك كي لا أُحشر عاريةً .

تلك كانت نماذج من خشية ورهبة الشخصيات العظيمة في الإسلام إزاء وقائع يوم غدِ القيـامة ولبيـان شدة المعـاناة والهـول الذي يقـع في ذلك اليـوم العصيب فانه تعالىٰ يقول بشأنه : ﴿يوم يدعُ الداع إلىٰ شيءٍ نُكُرٍ﴾ .

وكلمة ﴿نُكُرٍ﴾ مشتقة من معنى الإنكار ، ويقال عن الشيء الذي لـم يألفه الإنسان في الماضي ويبعث في نفسه الهول والفـزع لشدة كراهيّته وقباحته ويذكر أنها تقرأ أيضاً بتسكين الكاف « نُكْر » فيعني بها ملكـان يأتيـان الميت في ليلته الأولىٰ في قبره ، ويطلق عليها بالنسبة للكفار والمشـركين بـ « نكير ومنكـر » ، وبهذا الخصوص يقول المرحوم فيض وآخرون إن هيئة وصورة هـذين الملكين اللذين يأتيان الميت في قبره تتعلق بعمل الميت ، فان كان صالحاً جميلاً فحينئذ يكونان بهيئة مبشر وبشير في صورة جميلة لـطيفة ، وان كـان عمله سيئاً قبيحـاً فيكونا بصورة منكر ونكير القبيحة البشعة ، فالمؤمن ينتظر البشارة والمؤانسة من وحشة القبر بقدوم هذين الملكين الجميلين .

وأما الكافر والعياذ بالله ـ فان ما يزيـد عذابـه في برزخـه هذان الملكـان اللذين يأتيانه بصورة وحشين كاسرين غاضبين يملآنهِ خـوفاً ورعبـاً ، وإلاّ فهذان الملكان هما نفسهما مثل عزرائيل (ع) فهو واحدٌ إلاّ أنه يأتي الصالحين بأجمل الصور والهيئات التي تبعث على السرور في الروح ، وأما المجرمين الكـافرين فيأتيهم بأبشع الصور وأنكاها مما يزيد الرعب والهلع في أرواحهم الشريرة .

فغايتنا هنا بشأن كلمة نُكُر في هذه الآية هو بيانها بكونها تخص المجرمين الذين دُعوا إلىٰ أمرٍ يبعث فيهم الجزع والهول الذي يرونه يوم الحساب .

« الجراد المنتشر »

ثم ينتقل ليعرض صورة من صور مساحة القيامة الكبرىٰ فيقول تعالى في الآية التالية :

﴿خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جرادٌ منتشر﴾ .

« يُلحظ في عيونهم غاية الخشوع والذلة ، والخشوع كما هو معروف أمر يختص بالقلب ، وهو مصدر انبعاثه ، وأما الجوارح فهي تعكس آثاره وتتجلّى فيها ولعل أبرز هذه الجوارح التي تعكس آثار الخشوع هي العين ، فالخاشعون ترتسم صورةُ خشوعهم في عيونهم ، لأن العين هي أكثر الجوارح تعلقاً وارتباطاً بالقلب ، فالسرور والغم والخجل والحياء الذي يدخل قلب الإنسان يمكن أن يُلحظ أو يُقرأ في عينيه ، ولذلك فان الله سبحانه ـ في هذه الآية ـ ينسب الخشوع ويربطه بالعين ، في الوقت الذي يكون القلب مصدر الخشوع ومبعثه الحقيقي لأن علائم الذلة والخزي وسوء الطالع تتجلىٰ في عيون هؤلاء الكافرين المشركين لذلك يقول تعالىٰ : ﴿خشعاً أبصارهم﴾ .

﴿يخرجون من الأجداث﴾ والأجداث هي الجمع من جدث أي القبر ، يخرجون من قبورهم بشكل تحسبهم ﴿كأنّهم جرادٌ منتشر﴾ ، فمما يتميّز به الجراد بأن حركته وآنتشاره يتم بشكلٍ عشوائي يفتقد النظم ومضطرب تائه يصطدم بعضه ببعض ويهجم على كل ما يجد أمامه ليأكله ، ولذا فان أكثرَهُ تجده بسبب ذلك يتساقط .

وما أروع التصوير والتمثيل الإلٰهي هنـا ، حيث يصف الله سبحانـه ذلك المنظر الرهيب حين يخرج الناس من قبورهم ، وخاصة هؤلاء المشركين فيقول عنهم كـأنهم جراد منتشـر لشدة ذهـولهم وفزعهم وفـرط حيرتهم لمـا يرون في الوقائع والنازلات التي لم يعهدوا أدناها في حياتهم الدنيا ، ولأنهم سيتجهـون إلىٰ مكانٍ لم يكونوا قد ذهبـوا إليه أبـداً ، إنهم ماضـون إلىٰ محلّ يجتمـع فيه الأولون والآخرون .

أولئك الآمنون المطمئنون :

نعم فما عدا مجموعة واحدة لا يصيبها الهلع والإضطراب ، فان الجميع بما تبقّىٰ يعيشون الفزع والهول والإضطراب ، وتلك المجموعة المطمئنة الناجية هي مجموعة أهل الإيمان والتقوىٰ والعمل الصالح ، فالله سبحانـه بفضله ومَنّه ينزل السكينة والإطمئنـان في أفئدتهم حيث أن الإضـطراب والغم والأذى كان معهم في الدنيا ، وقد ولّى عنهم بعدما رحلوا منها إلى دار الطمأنينة[1] .

فكل أمرءٍ في هذه الدنيا مهزوز متذبذب في عقيدته وعمله ، فليعلم علم اليقين أنه سيشهد في آخرته ذات الإهتزاز والإضطراب[2] ، فكما حُرم في الدنيا بما جنته يداه ، فكذلك سيُحرم في الآخرة علىٰ سوء ما قدّم لها ، كما مات على آضطراب في عقيدته ، فانـه سيبعث كذلـك يوم الحشـر مضطربـاً وقد صـدق الحـديث الشريف عن المعصـوم (ع) « كما تعيشـون تمـوتـون وكمـا تمـوتـون تبعثون » .

---

(١) ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ سورة الفتح ، الآية : ٤ .

(٢) ﴿من كان في هذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلُّ سبيلاً﴾ سورة الإسراء ، الآيـة : ٧١ .

أوجه التمثيل بالجراد :

أحد أوجه التمثيل بالجراد هو من ناحية حيرة الناس واضطرابهم يوم يبعثون كما بيّنا سلفاً . وأما الوجه الثاني فهو من حيث الاعداد الهائلة للبشرية ، ذلك أن بني الإنسان الذين توالوْا على قرون الزمن الطويل مُنذ خلق الله آدم وحتّى آخر إنسان يُولد حين القيامة ، كلهم سيجمعون ويحشرون والله يعلم كم ألف مليار من بني آدم سيقفون في ذلك الموقف الرهيب واليوم العصيب .

وجه ثالث لهذا التمثيل ، ذكره المفسرون أيضاً هو ، كما أن الجراد تجده هامداً ساكناً في الليل المظلم لا تصدر منه أيّة حسحسةٍ أو حركةٍ ، حتّىٰ تشرق عليه شمس النّهار ويعلم الله كم هو عدده في الصحراء حين يهيج في النهار بملايين الملايين منه حتى يبانُ كأنه سحبٌ سوداء ، كذلك هو الأمر بالنسبة لملايين الملايين من الموتىٰ الراقدين تحت تراب هذه الأرض الذين لا يعلم أحد عن أحوالهم ، يخرجون من أجداثهم وكلٌّ مشغول بنفسه مذهول بالهول النازل يدور حول نفسه حائراً لا يدري ماذا يصنع ، وعددهم هذا لا يتصوره أحد ، ذلك للدنيا من عمر طويل مديد ، فعلىٰ ما يذكره المؤرخون أن للصين تاريخاً يعود إلى ثمانين ألف سنة مضت ، ولعل بعض الأوروبيين يرون من باب التخمين أن عمر البشرية ربما يتعدىٰ مئة ألف عام مضت ، فكم هو عمر البشرية ؟ الله العالم بذلك وهو العالم أيضاً كم عصر سيلي عصرنا الحاضر ، وكم من البشر سيأتون إلى الحياة ويرحلون عنها ؛ فالذين عصوا منهم ، هم رقادٌ في الأرض سابتون إلى وقت اليوم المعلوم فتلفظ الأرض العصاة والمردة وأصحاب السيئات منهم كما يلفظه البُصاق وتتفتح ليخرج منها المؤمنون المتقون كما تصنع الأمُّ وليدها فرحةً به وذلك قول الله تعالى : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ ، ففي ذلك الوقت سيُعلم كم يَرقدُ على ظهر هذه الأرض من البشر .

أما الوجه الآخر الذي يراه السيد دستغيب نفسه في مسألة التشبيه

بالجراد : هو أن هذه الحشرة تجتمع فيها خصالٌ من حيوانات شتّىٰ ، فرأسها كما يبدو مثل رأس الحصان وعيناها كعين الفيل وقرناها (لوامسها) ـ كقرني الوعل ورقبتها كرقبة البقرة ، وصدرها كصدر الأسد ، وذَنَبُها كذنب الأفعىٰ وجناحها كجناح النسر ، وكل واحد من هذه الحيوانات هو سلطان نظائره ، ولكل منها تُوجد خصلة في الجراد ، ولكنّه في الواقع لا تجد انعكاساً لتلك الخصال فيه ، وكل ما فيه من خصال كماله أنَّ لعابَ فمه هو داءٌ وآفةٌ للزرع .

فهذا الحَيَوان الذي يمشي علىٰ إثنين (الإنسان) يبدو في مظهره منتظماً معتدلاً ، كأنّه من الأخيار والأبرار ، أما يوم القيامة ، وهو اليوم الذي تفتضح فيه الأسرار وكما يقول تعالى : ﴿يوم تُبلىٰ السرائر﴾ فينكشف الإنسان على واقعه الحقيقي ويتجلّىٰ واضحاً أمامه ما كان يُخفيه وكما يقول الشاعر الإيراني :

أليس كل من تراه هناك آدمياً   فأكثرهم أبقار وحُمْرٌ بلا أذناب

نعم فهم حيارى مضطربون كالجراد لا خير فيهم .

أما المؤمنون ، فليسوا قلقين حائرين كالجراد ، لأن ظاهرهم وجوهرهم واحد ، فالفزع الأكبر لا تأثير له عليهم ، ولا شغل له بهم[1] ، وهم قد بلغوا في الكمال الكامل ما يدفع عنهم الخوف والحزن والإضطراب يومئذٍ ، كمالُهُم معهم في كل مكان ، ولن يُسلبَ منهم ، وأين يكمُن الكمال إلاّ عند المؤمنين المتّقين وهم أهله ؟

إن قيمة كل كمال يمكن تصوره أن يتعدّىٰ أكثر من طلب القبر ، فهذا الذي حصّل شهادة الليسانس أو الديپلوم أو الدكتوراه أو الپروفيسور ، كل كماله هو أنه أعطي هذه الوثيقة ليُمكنه بواسطتها الحصول علىٰ قدر من النقد ، ما يعيش به أيامه وذلك الخطاط الذي بلغ أعلىٰ درجات الخط ، فان كماله هذا في فنّه يزول ربما برعشة في يده فضلاً عن أن ذلك ليس بالكمال الحقيقي بل هو

---

(١) ﴿لا يَحزُنُهم الفَزَعُ الأكبر﴾ سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٣ .

الزيف والقشر ليس إلاّ ، طوبىٰ لذلك الإنسان الذي يخطو في حياته نحو بلوغ الكمال الحقيقي ، أي في مسيرة الإيمان ونوره البهي أي ترسيخ الإيمان والإعتقاد بالله والمعاد والقيامة ، فيخطو فيرتقي يوماً بعد يوم في مراتب الكمال الرفيعة .

ثم ينتقل السياق ليعرض في وصف هؤلاء المفزوعين المنتشرين كالجراد كيف هو حالهم فيجيب :

﴿مهطعين إلىٰ الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ .

أي إنهم في عجلة مسرعين إلىٰ المنادي الإلٰهي ، والكافرون منهم يقولون إنه ليوم عسير وعصيب ، لا مفرّ لهم ، فالكل متجه صوب الداعي شاؤوا ذلك أم أبوه مهطعين : أي ممتدةً أعناقُهم مشرئبة لينظروا ويشهدوا أمراً عظيماً ومهما جمدت أنظارهم نحوه من شدة الهول فلا تتحرك يميناً ولا شمالاً ، فهذا هو موقف من مواقف هذا اليوم العسير ، يوم تقوم القيامة ، موقف مملوءٌ بالحيرة والإضطراب والذهول والدهشة ، الأعناقُ مشرئبةٌ والعيون خشّعٌ لا تفارق النظر إلى ناحية النداء فكم سيطول هذا الموقف الرهيب ؟

قيل إن ذلك يتبع هوية الأشخاص وأعمالهم وما قدّمه كل شخص لهذا اليوم والهوية هنا هي هوية الإيمان أو الكفر ، التوحيد أو الشرك أو النفاق ، وحسبما جاء في الروايات فان البعض يمكث في هذا الموقف أربعين سنة وهذا ما يتعلق بالحيرة والذهول والإضطراب في هذا الموقف فقط وإلاّ فان موقف الحساب والصراط له كلام آخر .

أما أن يدركوا ويعُوا في هذه الدنيا وإلاّ فَسَيُفهمونهم هناك :

من لم يدرك عظمة الله سبحانه ، ولم يخشع قلبه لذكره ويهتزّ كيانه لجلاله وهيبته فلا بدّ أن يدرك ذلك في القيامة ، هناك عليه أن يفهم حقيقة

أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا فيعرف حينئذٍ أن الله تعالىٰ عظيمٌ وجليلٌ وعزيزٌ .

إن البعض قد بلغ بهم الجهل مبلغاً حتّىٰ ان الله عنده لا يُساوى أكثر من تومان «والعياذ بالله» والدليل علىٰ ذلك تجده يُقسم بالله كذباً حين يتعامل في البيع والشراء من أجل أن يربح توماناً واحداً أكثر ، وغداً يوم القيامة يُقال لهؤلاء الجُهّال ويُفهمونهم . بان الله سبحانه أعظم وأكبر مما تتصور ، وتصوّر ذلك الذي أعلىٰ منك مقاماً وفهماً ، فلأنه في الدنيا لم يعرف الله ، ولم يدرك عظمة جلاله ، هناك لا مفر له من أن يدرك ويعرف **﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾** وذكرت بعض الروايات في بيان شدة وعسر هذا اليوم أن الكافرين يدعون الله يومئذٍ ، ويقولون : « إلٰهنا عجّل لنا وأرحنا بارسالنا إلى جهنم » .

أنظر كم هي العُسرة والشدة في ذلك اليوم ، حتىٰ أنّهم يرضون بجنّهم ، فكم هو مسكين هذا الذي يحسب جهنم مقرّاً لراحته وخلاصه ، بلىٰ فهو يوم عسيرٌ عصيبٌ على الكافرين ، وفي القرآن المجيد تصوير آخر عن أهوال هذا اليوم حيث أن القلوب تنقلع من محلها وتغدوا في الحناجر **﴿إذ القلوب لدىٰ الحناجر كاظمين﴾**[1] ولا أحد يجرأ علىٰ الكلام يومئذٍ فليس هناك إلاّ الهمس **﴿وخشعت الأصوات للرحمٰن فلا تسمع إلاّ همساً﴾**[2] .

فالأخبار المرعبة هذه هي التي جاء التعبير عنها في الآيات السابقة بالأنباء . فهي أخبار تسلتزم العدة والإتعاظ ، ترىٰ هل نحن من المتعظين بأن يكون لحقائق القرآن المجيد وأنباءه وقعٌ في قلوبنا حتى نتدارك أنفسنا ونُعِدَّ ليوم عصيب كهذا ، ونتمعّن في أمر اخوتنا ، وأن يكون مآلُ عواقبنا إلىٰ الخير ؟ ترىٰ

---

(١) سورة المؤمن ، الآية : ١٨ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١٠٨ .

أليست مثل هذه الأنباء موجهةً لنا ، مَنِ الذي يدّعي منّا انه يحمل شهادة بـراءةٍ حتى يكون في مأمنٍ من أهوال ومرعبات ذلك اليوم ؟ نعم كلما كان القلب أكثر نقاءً وطُهراً كلما وجدت هذه الآيات وقعهَا وأثرهَا البالغ فيه .

« الخوف يقض مضاجع المؤمنين »

ورد في تفسير المنهج وغيره من التفاسير ان المسلمين خرجوا مع رسول الله (ص) للجهاد في غزوة بني المصطلح ، وقد نزلت في أوائل الليل الآيات الأولىٰ من سورة الحج المباركة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ : **يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم إن زلزلة السّاعةِ شيءٌ عظيمٌ * يوم ترونها تذهلُ كلُّ مرضِعَةٍ عمّا أرضَعَتْ وتَضعُ كُلُّ ذاتِ حملٍ حَمْلَها وترىٰ النّاس سُكارىٰ وما هُمْ بسُكارىٰ ولكنَّ عذابَ اللهِ شديد**﴾ واثر ذلك فان النوم قد فارق عيون المسلمين حتّى الصباح من شدة الهول والخوف الذي آخذا منهم مأخذاً عظيماً .

لا أدري بماذا وسوس الشيطان في قلوبنا وبماذا همس في آذاننا حتّىٰ عادت هذه الآيات وأنباؤها لا تجد أثراً لها في أنفسنا .

المعصومون الطاهرون يتلوّعون من الخوف وينحبون :

بعد نزول قوله تعالىٰ : ﴿**وإنَّ جهنّم لَمَوْعِدُهُم أجمعينَ لها سَبعَةُ أبوابٍ لكل بابٍ منهم جزءٌ مقسوم**﴾[1] ، تذكر الروايات ان النبيَّ (ص) وعليّاً والزهراء (عليهما السلام) بكَوْا بلوعةٍ وألمٍ لهذا الوعيد ، أما أنا وأنت فما ندري ما

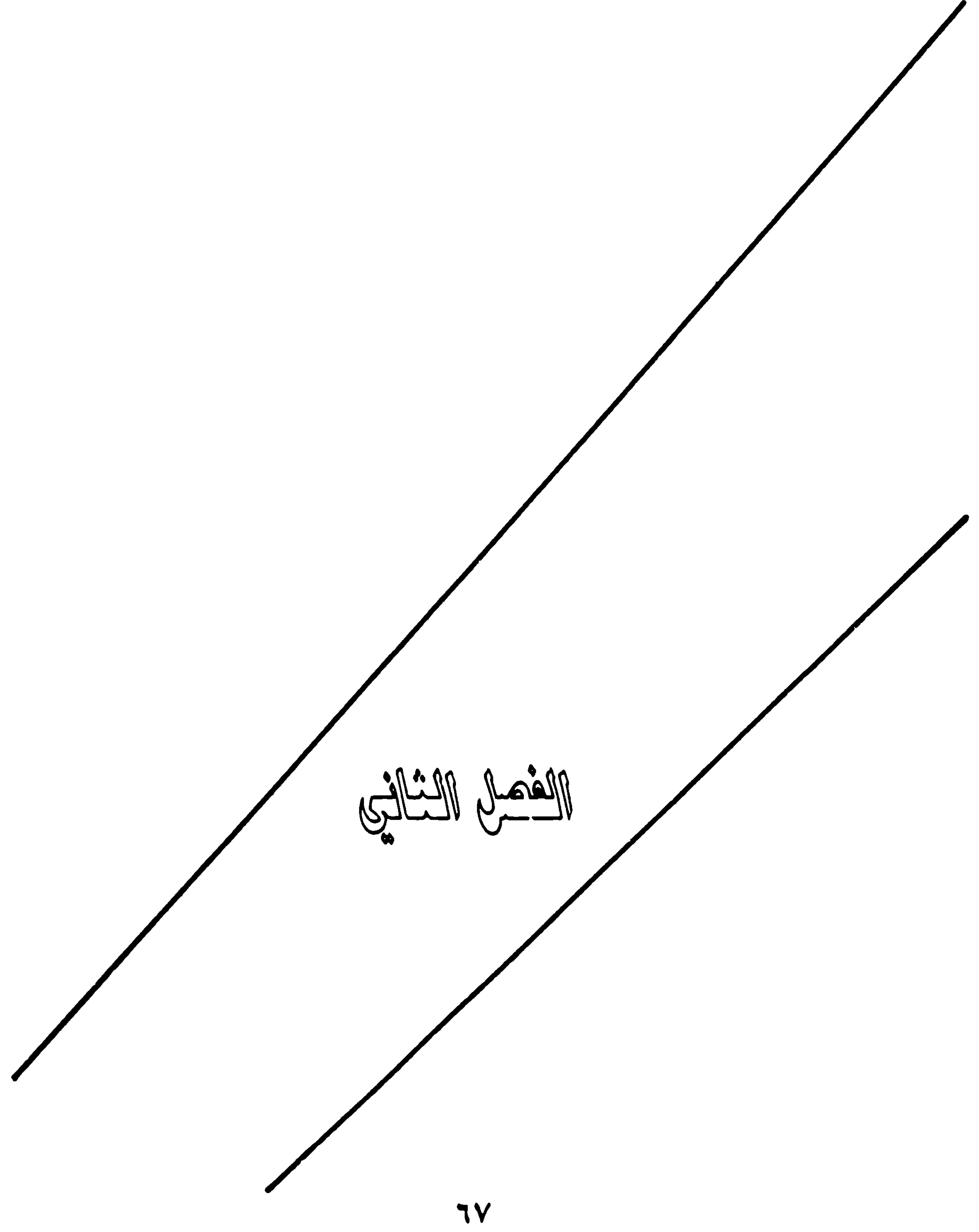
---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٣ ـ ٤٤ .

الذي دهانا وما الذي أمات القلب فينا حتى غدا قاسياً هكذا والله سبحانه يَلفت لذلك أنظارنا ويقول : ﴿أَلَمْ يأنِ للذين آمنوا ان تخشع قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾[1] ، ألم يأن الأوان لأن نعمل ونُعِدَّ لمثل هذا اليوم العصيب العسر .

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٦ .



الفصل الثاني

« قصص الماضين »

بعد أن بيّن الله سبحانه في بداية هذه السورة معجزة شق القمر وكيف أن المشركين راحوا ينسبون السحر لرسول الله (ص) بدل أن يؤمنوا ويذعنوا للحق الذي بانَ لهم ، وقالوا : « عُمّيت أبصارنا » ، فان الله سبحانه ـ ولأجل بعث الطمأنينة والسكينة في قلب رسوله (ص) وتطييب خاطره الشريف ـ شرع يقصُّ عليه قصص مَنْ سبقه مِن الأنبياء والرُّسل ، والبلايا والمصائب التي مُحّصوا بها ، حيث يخاطبه سبحانه في بعض آياته : **﴿فان كذّبوك فقد كُذّبت رُسلٌ من قبلك﴾** [1] أي أن الأمر ليس بالجديد ، فقد ينسب الإفتراء والكذب والسحر والجنون وما شابه إلى الأنبياء الذين سبقوك ، وفضلاً عن التذكير بالأقوام الماضين ، فان الإنذار والوعيد للمشركين قد ورد ذكره أيضاً كي يعلموا أي بلاء وعذاب إلهي لاقوْه أولئك المكذبون من أمثالهم حينما كذّبوا أنباءهم ونسبوا إليهم التّهم الرخيصة الفارغة علّهم يتعظوا ويرتدعوا .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨٤ .

مصير قوم نوح (عاقبة قوم نوح)

يبدأ السياق القرآني هنا بعرض ما جرىٰ على قوم نوح كي يطمئن رسول الله ويهدأ باله فيقول تعالىٰ :

﴿كذَّبت قبلَهم قَومُ نوحٍ فكذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجنونٌ وٱزْدُجِرَ﴾ .

والنقطة المهمة في هذه الآية التي تجذب الإنتباه لها هي التعبير بكلمة **﴿عبدنا﴾** فالله سبحانه يريد بيان المنزلة الجليلة لنوح (ع) ، ونوح كما هو معلوم ، شيخ الأنبياء والرسل ، وأول أولوا العزم منهم ، وكان صاحب شريعة ومنهاج وقد وردتْ تحيَّتُه في القرآن ، فقال تعالىٰ : **﴿سلام على نوحٍ في العالمين﴾** وهنا في الآية التي نحن بصددها ، فان الله سبحانه يُكرِّمُه تكريماً غير عاديّ وتجليلاً خاصاً ، حين يقول عنه إنه **﴿عبدنا﴾** والعبودية هي أسمىٰ المراتب وأشرف الدرجات عند الله حينما يخاطب مخلوقه بالعبد وخاصةً بالتعبير الجمعي ، وليس المفرد أي لم يخاطبه بالقول « عبدي » بل قال سبحانه : **﴿عبدنا﴾** فهو في موقع المضاف ، وربّ العالمين بموقع المضاف إليه ، ومن هنا يأتي الحصول على الشرف والكرامة والإجلال .

العبودية أسمىٰ المراتب :

إنّ من أسمىٰ وأجلّ المراتب والدرجات الكمالية التي يبلغها الإنسان هي أن يكون عبداً حقيقياً وبمعنىٰ الكلمة ، لله ربّ العالمين ، وأن العبودية لله هي من الرفعة والسموّ ، بحيث أنها أسمىٰ من النبوة والرسوليّة ذاتها لذلك تقدّم الذكر في التشهّد عند الصلاة بالنسبة لرسول الله (ص) بالعبد ثم تليه الشهادة له بالرسول فنقول : « أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله » .

الإشتراك في المعاناة تخفف وطأتها وتُطيّب الخاطر :

على العموم ، فان ربّ العالمين ، ولأجل بعث الطمأنينة في قلب رسوله وتسكينه شرع يقصّ له قصة نوح والأذى والمعاناة التي لاقاها من قومه الذين لم يؤمنوا برسالته فيوضح له سبحانه أن كل إنسان لا بدّ من أن يعمه بلاء ما ، فلو نظرت في هذا الخصوص لوجدت أن أشخاصاً سبقوك قد آبتُلوا مثلما آبتليت به أنت ، وهذا لأجل أن يطيب خاطر رسول الله ولا يصل إليه الجزع ، مما يلاقيه من الأذىٰ والصعاب ، لذلك جاءت الروايات تفصح أن كل من وقع في بلاء وشدة عليه أن ينظر إلى من هو أكثر بلاءً منه وأشدّ محنةً ، فلو كنت عليلاً فانظر إلى من هو في علّةٍ ومرضٍ أشدّ من مرضك وعلّتك ، فمثل هذه الرؤية والنظرة تخفف من شدة المعاناة والألم الذي أنت فيه ويهوّن عليك البلاء النازل فيك .

﴿ فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون ﴾ :

بيّنا أن الله سبحانه نسب نوحاً بالعبودية إلى نفسه وبالصيغة الجمعية لبيان فضله وشرفه وعلوّ مقامه ، لكن قومه عديمي الحياء والخجل تطاولوا علىٰ هذا العبد الصالح ، الذي عبّر عنه القرآن بـ ﴿عبدنا﴾ وهو أن نسبوا إليه الكذب ، ولم يكتفوا بذلك ، بل قالوا عنه أيضاً : إنه ﴿مجنون﴾ والعياذ بالله .

فلو أن أحداً سلك في أمرٍ بغير ما يراه الجهلة من الناس فانهم سيفترون عليه بالأباطيل ويصفونه بـالمعتوهيـة والجنون ، وهـو ذات الشيء الذي يعـانيه المؤمنون والمتقون في يومنا هذا ، فيقال عنهم : إنهم سذج أو بلهاء أو مجانين أو حمقى ، وغير ذلك مما يحلوا لهم الوصف .

ذلـك لأن المؤمنين مهذبـون مؤدبون يخجلون ويستحـون من الله ، فـلا يفعلون أفعـالهم لأنهم لا يأخـذون بأيـدي نسائهم إلى الملاهي والنوادي الليليـة ويجلسهـونهن ليتفـرّج عليهنَّ الأجـانب من الـرجـال أو يـطلقـون لَهُنَّ العنـان في مراقصتهم وما إلى ذلك من المنكرات .

يقـول الإمام الصـادق (ع) : إن نوحـاً (ع) كان يـأمرهم بـإقامـة الصلاة وينهاهم عن المنكر وإرتكاب الموبقات من الذنوب ، فكان جوابهم له بوصفهم إياه بالجنون ويردعونه بالزّجر والأذىٰ ﴿وازدجر﴾ ، فقد لاقىٰ عليه الملام منهم الكثير من الزجر والأذى والإضطهاد .

ومعلوم أن أحداً من الأنبياء والرسل من آدمهم (ع) إلىٰ خاتمهم (ص) لم يُعمّر مثلما عمّر نوح (ع) ، فحين بعث بالرسالة ، كان له من العمـر علىٰ عدة روايات مختلفة حيث ذكر أنه ١٢٦ و١٥٠ و٢٥٠ و٣٠٠ و٥٠٠ عام ، كما ذكر أن مدة نبوته ورسالته استمرت ، وقبـل وقوع الـطوفان ، وحسبمـا جاء في القـرآن المجيد أنها ٩٥٠ عاماً[1] . ثم بعد انقضاء هذه المدة واشمأزَّ من قومه ودعا الله ونزل الغضب الإلٰهي فهُلِكوا بالطوفـان ، فانـه عاش بعـد ذلك مـدة أخرى من الزمن ، ويحسب روايات عديدة ، قيل إنها لم تقلَّ عن خمسين عاماً وعلى أية حال فان عمره حين موته كان ألفاً وخمسمئة عام ، وكتب بعضهم أنه عمَّر ألفي عام ، وهو في مدة نبوته التي قاربت الألف سنة كان يـلاقي الأذى والمحنَ من قومه الكافرين .

(١) ﴿فلبث فيهم ألف سنةٍ إلاّ خمسين عاماً﴾ سورة العنكبوت ، الآية : ١٤ .

نوح (ع) وٱختيارُه طريق الهداية والنصح :

طبقاً للروايات المذكورة في بحار الأنوار عن الإمام الصادق (ع) وما قاله بشأن النبي نوح ما مفاده أن نوحاً عليه كان يسكن في بيت في قرية تقع بالجانب الغربي من الكوفة وقرب نهر الفرات وذات مسجد الكوفة هذا ، كان منزله ، حيث أن مقامه ما يزال موجوداً أما عمله وصنعته ، فقد كانت النجارة ، وكان كثيراً ما يعتزل قومه ، فيخرج إلى الصحاري تارةً وإلى الجبال تارةً أخرىٰ ، وقد لقيه جبرائيل يوماً ، وسأله ، لماذا آعتزلت قومك ؟ فقال : لأنهم يعبدون الأصنام من دون الله ، ثم قال له ولِمَ لَمْ تَنهِهِمْ ؟ فأجابَ : أخشىٰ أن يقتلوني ، وفجأة صاح جبرائيل الأمين فجاءه الجواب من الملائكة في الأطراف مرتفعاً أن لبيك لبيك ، والغاية من ذلك أنه أراد أن يُعلِمَ نوحاً أنّه ليس وحدَه في أمره ، فاستشعر نوح الخشية فناداه جبرائيل : إني جبرائيل أمينُ ربّ العالمين « وقد جئتك بعدة خِلَع ، هن خِلعة الصبر وخلعة اليقين وخلعه النّصرة » وقد أتيتك بعدة ثياب ، ثوب الصبر وثوب اليقين وثوب النصرة .

فعاد نوح إلىٰ قومه ، وبكامل الإطمئنان القلبي ، وقد آتفق أن ذلك اليوم كان عيداً ، وقد خرج الناس إلى الصحراء حاملين معهم أصنامهم ، فلما آقترب نوح منهم قال بصوتٍ عالٍ وبالسريانية « لا إلّه إلّا الله » . وإثرها هوتْ كل الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها ، وآنطفئت كل النيران التي أشعلوها ، فاجتمع عليه رؤساء قومه ، وأمروا بضربه حتى سقط إلى الأرض من شدة الضرب الذي أخذ منه مأخذاً ثم تَفُّوه في لبّادٍ ورموهُ في بيته .

إمرأة نوح :

كان لنوح (ع) آمرأتان ، إحداهن كانت تدعىٰ عمورة وقد آمنت به منذ أول يوم بُعِث فيه كخديجة أمّ المؤمنين (ع) زوجة خاتم الأنبياء (ص) ولما علم أباها بإيمانها راح يحذرها ويُهدّدها ، فلم تستسلم له فأخذها وسجنها كي تموت

في الحبس بسبب الجوع ، وبعد انقضاء فترة من الزمن فتح بـاب السجن كي يحملوا جثمانها ليدفنوه ، فوجدوها ما زالت حيّة ترزق ، فسألوهـا مندهشين : كيف حافظت على حياتك ؟ فأجابت : إنه ربُّ نوح هو الذي حفظني .

أما زوجة نوح الأخرى ، فقد كانت كافرة ، وقد غرقت مع المشركين في الـطوفان ، وهي المقصـودة في الآيات التي ذكـرت امرأة نـوح في آخر سـورة التحريم حيث يقول تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا آمرأة نوحٍ﴾ .

العذاب الذي لا يطاق :

لم يؤمن برسالة نوح (ع) خلال جميع التسعمئة وخمسين عامـاً التي بلّغ بها في قومه ، سوىٰ عددٍ ضئيل جداً ، لا يتجاوز الثمانين نفراً فقد ذكر أنهم بين الثمانية إلى الثمانين فرداً ، وكانوا يردعونه ويؤذونه طيلة هـذه المدة المـديدة ، وقد بلّغ هذا الأذى حدّاً أن الدَّم كان يسيل من أعضاء بدنه وسقط مرات عديدة مغميّاً عليه ، فكان الله سبحانه في عونه دائماً يشفيه مما يتـركون عليـه من آثار الأذى والجراحات ، ثم يعود بعدها للتبليغ والدعوة ، فيُعيدون الكرّة عليه بالأذى والإضطهاد والتعذيب ، وهكذا قضاها في المعاناة تسعمئةٍ وخمسين عاماً .

وكـانوا حينمـا يدنـوا منهم الأجل ليـذهبـوا إلى جهنم يـوصـون أولادهم ويحذرونهم لئلّا يؤمنوا بهذا الـرجل ، وهؤلاء أيضـاً بدورهم يـوصون أبنـاءهم الذين يأتون من بعدهم بأن لا يؤمنوا به ، وهكذا استمر الأمر على هذا المنوال لعدة قرون ، تسعُمئةٍ وخمسون عاماً أدمْوا خلالها قلبه (ع) وطالما نهروه وزجروه وشتموه وضربوه حتىٰ كانوا يثخنونـه بالجـراح أحيانـاً كل ذلـك قد تحمله منهم وصبر عليه كثيراً .

وجاء في الروايات أنهم كانوا أحياناً يشدون ثوبه حول عنقه بشدة ليخنقونه حتّى أنهم يتصورون أنه قد قُضي عليه ، واستمر به الحال هكذا يضطهدونـه ، حتّىٰ مضىٰ يشتكي إلىٰ الله ويبكي مما يلاقيه من قومه من الأذىٰ والجور عليه ،

ويدعوه منكراً قلبه كما يصور لنا ذلك السياق القرآني عن لسان حاله .

﴿فدعا ربّهُ إني مغلوب فآنتصر﴾ :

إلٰهي كما تراني فقد غُلت على أمري ولا حيلة لي معهم ، فأعنّي وآنصرني .

ومنذ ذلك الحين بدأ يشمئزُّ من قومه ، فكان يدعو عليهم ويقول كما جاء في القرآن **﴿رب لا تذرْ علىٰ الأرض من الكافرين ديّاراً ، إنَّك إن تذرهم يُضلُّوا عبادكَ ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا﴾**[1] ، فهبط الأمين جبرائيل وخاطب نوحاً إن هؤلاء القوم هالكون ، فاصنع الفلك وحينما ينفجر الماء من تحت الأرض يفور وتمطر السماء واركب به أنت ومن آمن معك لتنجوا من الغرق .

عُقم آلنساء :

كما ورد في رواية عن الإمام الصادق (ع) ، فان الله سبحانه جعل العُقم في أرحام نساءهم لأربعين عاماً ، حتّىٰ لا يكون هناك رضيع وطفل صغير بين من يَعُمّهُم الطوفان حين أوانه ، ولكي يكون الجميع بعمر أربعين عاماً أي في تمام إحساسهم وعقولهم وإدراكهم لكي تتمّ الحجة الإلٰهية عليهم وتسقط الذرائع من أيديهم .

على العموم فان الأمين جبرائيل (ع) أوصىٰ نبيّ الله نوح (ع) بأن يصنع السفينة من خشب الصنوبر كما جاء ذلك في معظم الروايات وفي بعضها انه أمرهُ بأن يزرع نوىٰ التمر ثم يصنع من جذوع النخل سفينة النجاة .

---

(١) سورة نوح ، الآية : ٢٦ ـ ٢٧ .

سفينة نوح « الفلك »

بخصوص كيفية صناعة السفينة وهيئتها وشكلها ، فان الذي جاء في الروايات هو أن صناعتها استغرقت عامين وكانت سفينة كبيرةً من ثلاث طبقات ، فالطبقة السفلىٰ منها كانت للحيوانات الوحشية والحشرات ، والطبقة الوسطىٰ للحيوانات الأليفة . وأما الطبقة العليا فكانت له (ع) والمؤمنين ممن معه . وكانت السفينة مغطاةً بسقف ، لأن الماء كان يهطل من السماء علاوةً على تفجره . وفورانه من الأرض .

وفيما يخص حجم السفينة من حيث الطول والعرض والإرتفاع فان ذلك أيضاً يتعلق بالروايات والإختلاف بينها ، فأقلُّ ما ذكر من حيث الطول والعرض قيل إنه ثمانون ذراعاً ، وارتفاعها خمسون ذراعاً ، وروايات أخرى ذكرت أنه ١٢٠ و٣٣٠ و٨٢٠ ذراعاً .

خبرٌ عن حفيد نوح (ع) :

طلب بعض الحواريين من عيسىٰ (ع) ورجَوْهُ بأنهم يرغبون في معرفة قصة الطوفان وقت نبوة نوح (ع) . وطلبوا منه أن يدعوا الله كي يُحيي أحد الأشخاص الذين عاصروا الطوفان كي يخبرهم عن أحداث ذلك اليوم .

فجاء عيسىٰ (ع) عند قبر كعب بن حام بن نوح أي حفيد نوح (ع) وقال :

انهض بإذن الله ، فخرج رجلٌ عجوزٌ محدودب الظهر رأسه وشعره أبيض ، أخرج رأسه من القبر ، فسأله عيسىٰ (ع) من أنت ؟ فقال : أنا حفيد نوح ، فقال له عيسىٰ أهكذا كنت هرماً ؟ فقال : كلّا ، الآن حينما قلت إنهض واخرج من القبر فخلِتُ أن القيامة قد قامت ، ولهلعي وخوفي منها صرتُ كما تراني .

والله سبحانه وتعالى يُحدثنا في قرآنه المجيد عن الخوف الذي يقع في مثل ذلك اليوم بهذا المعنىٰ الذي عكسه حفيد نوح (ع) حيث يُحذّرنا الله سبحانه إياه ويقول : ﴿وٱتّقوا يوماً يجعلُ الولدان شيباً﴾ .

على أية حال سأل عيسىٰ (ع) حفيد نوح « كعب بن حام » هل كنت موجوداً حين وقوع الطوفان ؟ فقال : بلىٰ ، فقال له عيسىٰ : قل لنا ما هو حجم السفينة ووسعها وكيف هي ؟ فقال له : فأما طول السفينة فهو ألف ومائتا ذراع ، وعرضها ثمانمئةٍ وعشرون ذراعاً ، وعُلوّها ثمانون ذراعاً ولها ثلاث طبقات للوحوش والطيور والبشر .

جبرائيل (ع) يرشد نبيّ الله نوحاً :

يخاطب نوح ربَّه ، ويقول : إلٰهي إنني لا أعرف كيف أصنع الفُلك ، فأمر الله الأمين جبرائيل أن يهبط إلى الأرض ويُعلّم نبيَّ الله كيف يصنع مثل هذا الفُلك الخاص ﴿وٱصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾[1] ، الفلك الذي يجب أن يُحملَ فيه من الحيوانات والإنسان ﴿من كل زوجين ٱثنين﴾ وأن يكون فيها مكان للطعام والنوم والراحة والمرافق وغير ذلك من الضروريات .

فشرع نوح مع ولديه سام وحام في بناء وصناعة السفينة وكانا خلافاً

---

(١) سورة هود ، الآية : ٣٧ .

لأخيهما الثالث[1] ، من المؤمنين بينما كان ابن نوح الثالث وآسمه كنعان كافراً ، لم يؤمن بدعوة أبيه .

وكان جبرائيل الأمين يُرشدهم ويُعلّمهم .

ثم جاء النداء من ربّ العالمين لنوح يأمره أن يكفّ عن دعوته فلم يعد لها جدوىٰ فلم يعد من الضروري أن يعدلَ المشركون عن شركهم ويعبدوا الله بعد كل هذا ، فالحجة قد قامت عليهم .

أسرار السفينة هما الولاية والنجاة :

حينما همَّ نوح بحمل الخشبة الأولىٰ ناداه جبرائيل أن آذكر عليها إسم محمد (ص) ولما وضع الثانية قال له إنها بآسم علي (ع) وفي الخشبة الثالثة ، قال فانها بآسم الزهراء (ع) وهكذا حتّىٰ بلغ الخشبة الرابعة عشرة فكانت بآسم الحجة بن الحسن (عج) فهذه هي أسرار السفينة التي ذكرت حينها وفي موضوعها وعندما شرع نوح وأولاده بدق المسامير ، فلمّا دقّ المسمار الأول سطع نور جليٌ فسأل نوح جبرائيل (ع) ما هذا النور ، فقال : إنه نور محمد (ص) ، ولما دقّ المسمار الثاني فقال له : وهذا نور عليّ (ع) حتى بلغ النور الرابع عشر فقال جبرائيل وهذا نور الحجة بن الحسن العسكري (عج) .

المشركون يسخرون :

حينما كان نوح وأولاده الثلاثة المؤمنون والذين آمنوا معه منهمكون في بناء السفينة ، كان قومه العصاة المشركون يمرون من أمامهم ويسخرون منهم

---

(١) سيتضح فيما بعد ان لنوح (ع) أربعة من الأبناء ثلاثة منهم مؤمنون والرابع هو كنعان أبىٰ ان يؤمن .

ويستهزؤون بهم[1] فممّا كانوا يقولـونه أنـظروا إلىٰ نبي الله ، فقد تـرك رسالتـه وشأنها ، وعاد بنّاءً للسفن ، وتارةً كانوا يقولون مستهزئين : إنه يصنع سفينة في عـام قلّت فيه الميـاه ! وتارةً أخـرى يقولـون : إن هذا الهـرم الأبله اختلّ عقله (والعياذ بالله) وأخذ يمارس أعمالاً حمقى كهذه ، وأخرى يقولون : إنه يصنعها كي يركب بها ويطير بها في السمٰوات ، فهذا الذي كانوا يقولونه ويستهزؤون به ، لم يكن له أي تأثيـر يثبطُ نوحـاً (ع) والمؤمنين معه عن أداء مهمتهم بـل كانـوا يجيبونهم سيأتي اليـوم الذي نستهـزيء به منكم كمـا تستهزؤون الآن ، وذلك بصريح القرآن المجيد .

الإستقامة ضرورة حياتية :

إن هـذه المسـائـل والأمـور التي هي من الأنبـاء المـذكـورة في القـرآن المجيد ، إنما هي للعبرة والإقتداء بهـا فعلىٰ المؤمنين الذين يؤمنـون بالأنبيـاء والرسل ويقتدون بخطهم ونهجهم أن يستقيموا في طريقهم ما أمكنهم ولا يثني عرفهم ويُخِلُّ باستقامتهم استهزاءُ الجُهّال من الناس بهم فينهزمـون من ساحـة العمـل والجهاد أو يلج الضعف والخيبـة إلىٰ نفوسهم لكـلام غيـر مـوزون ولا منطقي يطوق أسماعهم .

ولـم يكتفوا بالسخرية والإستهزاء بنوح (ع) بل كانوا ، وحينما يـرجع إلى منزله في الليل ، يأتون إلى ما صنع ويخرّبونه ما أمكنهم فشكىٰ ذلك إلى الله ، فأمره ان يختار كلباً ويضعه في السفينة ليَحرُسها ، فجاء بالكلب وأطعمه ورعاه كثيراً ثم أوكله على حراسة السفينة ، ومن طبع الكلب الوفاء كما هو معروف ، فقام بما أرادهُ منه نبيُّ الله ، ولم يجرأ أحد منذ ذلـك الحين على الإقتراب من

---

(١) ﴿وكُلّما مرَّ عليه ملأٌ من قومِهِ سَخِرُوا مِنه . قالَ إنْ تَسخَرُوا منّا فإنّـا نَسْخَرُ منكم كمـا تسخَرُون﴾ سورة هود ، الآية : ٣٨ .

السفينة والعمل على تخريبها .

هلاك الإبن الذي ما هو من الأهل :

بعد اكتمال بناء السفينة ركب بها نوح ومن آمن معه الذين ذُكر أنهم بين الثمانية وبين الثمانين ، فنادىٰ نوح ولده كنعان الذي عصىٰ ولم يؤمن لأبيه قائلاً : تعال يا بني واركب معنا ولا تكن مع الكافرين المغرقين وكما هو نص الحوار في الآيتين (٤٢ ـ ٤٣) في سورة هود : **﴿ونادىٰ نوحٌ آبنه وكان في مَعْزلٍ يا بُنيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلىٰ جبل يعصمُني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمرِ الله إلاّ من رحم وحالَ بينهما الموجُ فكانَ من المُغرقين * ﴾** .

لقد نسي هذا الولد العاق العاصي أن عذاب الله حين يأتي فلا أحد يمكنه أن ينجوَ بنفسه إلاّ برحمة من الله تشمله ، فما كان منه إلاّ أن تسلق قمة شاهق متوهماً أنه ناج من الغرق ، لكن المياه طغت حتّىٰ غطت هذا الشاهق ، ونوح يرىٰ ابنه يغرق ، فيتحرك فيه عرق الأبوة والرحم ، لانه ومهما يكن ولدهُ من صلبه وهنا أخذ يتشفع عند الله لولده ، ويدعو ربّه عسىٰ أن ينجيه ، فيقول كما في الآيات (٤٥) و(٤٦) و(٤٧) من سورة هود **﴿ونادىٰ نوح ربَّه إنّ آبني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنّه ليس من أهلك ، انه عملٌ غير صالح ، فلا تسألْنِ ما ليس لك به علم ، إني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال ربِّ إني أعوذ بك ان أسألك ما ليس لي به علمٌ وإلاّ تغفرْ لي وترحمْني أكُنْ من الخاسرين * ﴾** .

فالمراد من الجواب الإلٰهي أنه ليس من أهلك أي « أهل الأنبياء والسائرين على نهجهم ، انه من أهل الكفر والشرك والمعصية **﴿عمل غير صالح﴾** فلا قيمة ولا أهمية للرحم حينما تكون القضية قضية كفر وشرك وعصيان وهذا ما غاب عن بال نوحٍ (ع) حين طغت عليه عواطف الأبوة وهو أول درس

في التاريخ يعلم الصبر على مثل هذه العواطف والوشائج عندما يتعلق الأمر بين الإيمان والكفر أو التوحيد والشرك أو الإستقامة والنفاق .

وحين وعىٰ نوح التوجيه الإلٰهي ، استغفر ربّه واستعاذ به أن يكون من الخاسرين ولم يأبه بعدها حين حال الموج بينهما وغرق الولد العاصي مع العصاة المعاندين .

ترىٰ هل نحن أهل للشفاعة ؟

نقول هنا بعض الكلام للموعظة : فأنتم الذين تَعُدُّون أنفسكم من أمّة محمد (ص) في آخر الزمان وتنظرون إليه وإلى أهل بيته بعين الشفاعة ، ترى هل أديتم عملاً صالحاً ما كي يقدر رسول الله (ص) ان يتشفع لكم غداً يوم القيامة . أم فعلتم من السيئات والموبقات ما يجعلكم تُحرمون من شفاعته وأهل بيته (ع) ولم تعودوا تستحقونها ؟ فتكونوا من الذين قال الله عنهم في كتابه : ﴿فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾ .

وقد ورد في بعض الروايات أن مجموعة من المسلمين ولكثرة ما جنوْا على أنفسهم في ارتكابهم الذنوب والكبائر والموبقات ما جعلهم ينسون إسم النبي (ص) ويغيب عن أذهانهم ترىٰ هل يتصور هؤلاء وأمثالهم أنهم ناجون من العذاب وبهذه السرعة ؟ إلّا أللهم بلطف وعون منه سبحانه .

ثم يستمر السياق في عرض قضية الطوفان ، وكما مرّ ذكرها تفصيلاً في سورة هود فيقول تعالىٰ :

﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ .

كاد المطر أن يكون سيلاً من السماء من غزارته وشدته فقد ذكر أن الماء كان يهطل كالميزاب من السماء لأربعين يوماً وليلة ، وربما كانت تلك الأيام كأيام القيامة أو صورة منها .

وفي رواية عن الإمام الصادق (ع) مفادها أنه قال للمفضل ، وهو أحد

أصحابه : انظر إلى تساقط المطر كيف جعله الله ينهمر قطرة قطرة ، ولو شاء أن يُنزله مرة واحدة أي يهطل من السحب العالية التي يبْعد بعضها بضعة فراسخ ، فهل سيبقىٰ حيٌّ على هذه الأرض ، وهل تقوم زراعة على أرض غرقىٰ بالماء ، وهل تينع الأرض ؟ وغايته (ع) الإشارة إلى الحكم الإلٰهية في السنن الطبيعية وأداء الشكر علىٰ هذه النعم .

أبواب السماء كناية :

في تعبير أبواب السماء يقول الكثير من المحققين إنه معنى مجازي وكناية ، وليس المعنىٰ الظاهري اللفظي أي إن في السماء أبواباً قد فتحت وآنسكب منها الماء بل إن التعبير كناية عن كثرة المياه وشدة هطولها كما يقال : إن ميزاباً في السماء قد جرىٰ مطراً ويراد بذلك شدة المطر وغزارته ، ثم ينتقل السياق لوصف آخر للطوفان :

﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾ :

أي ان عيوناً آنفلقت على وجه الأرض ولم يأتِ التعبير بصيغة وفجرنا العيون وذلك للتمييز بان الأرض تفجرت كلها عيوناً في التعبير الوارد في الآية ، اما في التعبير الثاني فانه غير شامل لجميع أوجه الأرض ، هذا بالإضافة إلىٰ الماء النازل من السماء

وفي رواية عن الإمام الصادق (ع) مفادها أن في بيت نبي الله نوح (ع) كان هناك تنور يستخدمونه في عمل الخبز والطبخ ، فلما رَفَعَ غطاءه في ذلك اليوم وجد الماء يغلي فيه وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿وفار التنور﴾ فَعَلِم نوح (ع) ، ان ساعة الطوفان قد حانت وهو الوعد الإلٰهي والوعيد للمشركين من قومه فغطى فوهة التنور وأمر أهله وأصحابه المؤمنين بركوب السفينة وحمل فيها من الحيوانات والطيور والحشرات والوحوش من كلٍّ زوجين اثنين وقبل أن

يَصعد هو في السفينة فتح فوهة التنور مرة أخرىٰ وانطلق الماء منه يفور ، وهكذا جرىٰ في كل موقع من الأرض ، تفجَّر ماءً يفور وبدأت السماء تمطر المطر كأنّه الشلال وجرىٰ القضاء الإلٰهي بالسيل الطافح الذي أغرق كل شيء .

نداء النجاة :

روىٰ المجلسي (رض) في بحاره بسند متصل ينتهي إلىٰ الإمام الرضا (ع) يقول فيها ما مفاده : إن جبرائيل (ع) أخبر نوحاً أنك حينما تركب السفينة ، ثم تموج المياه المتلاطمة بالسفينة ، فقل ألف مرة : لا إلٰه إلاّ الله ، حتّىٰ تهدأ السفينة .

وبعد أن ركب السفينة هو ومن آمن معه حدث الموج العاتي وماجت السفينة بمن فيها ، لأن الماء كان يسيل من السماء ويتفجّر فوراناً من الأرض فأراد أن يقول « لا إلٰه إلاّ الله » ألف مرة ، فلم يجد مجالاً لذلك فقالها بالسريانية « لا إلٰه إلاّ الله ألف مرة » .

فهدأ الطوفان ، وبعد انتهائه نزل من السفينة ، وقال : إن هذه الكلمة « لا إلٰه إلاّ الله » هي التي أنقذتنا ، فلا ينبغي أن نغفل عنها ، وننساها ثم كتبها على عقيق خاتمه .

﴿ فالتقىٰ الماءُ على أمر قد قدر ﴾ :

ماء السماء ، وماء الأرض الذي يفور منها التقيا ، لإنجاز الأمر الإلٰهي والقضاء الذي قضاه في هلاك قوم نوح .

يقول المحقق الطبري : إن الآية تعني أن الماءين التقيا أي ماء السماء وماء الأرض (ولأن الإلتقاء لم يكن بين الإثنين ، فجاءت التثنية ، وقال : التقىٰ الماءان) .

وذكر في الروايات أن منسوب المياه وصل حين الطوفان إلى ثمانين ذراعاً إلى أعلىٰ قمة جبل في الأرض (في المنطقة التي شملها الطوفان) .

قطعان الحيوانات البحرية :

كتب الطنطاوي أن خبراء الجيولوجيا والمكتشفين والباحثين الجدد يقولون إن آثاراً بحرية شوهدت في قمم الجبال ، من مثل مجموعات الأسماك والحيوانات البحرية ، ومن ذلك عُلِمَ أن قمم الجبال قد غطاها الماء في عصر من العصور القديمة وهذا ما تفسره من الناحية الدينية عندنا بطوفان نوح .

ويقول البعض في تفسير : ﴿**على أمرٍ قد قدر**﴾ بتساوي الماء النازل من السماء مع الماء المتفجّر من الأرض .

استقرار السفينة على جبل الجودي :

بعد مضي أربعين يوماً وليلة من الطوفان ، حيث فاق ارتفاع الماء بثمانين ذراعاً لأعلىٰ قمة جبل في مناطق الطوفان ، فكان من اللازم أن تمكث في الماء لمدة طويلة كي يهبط منسوب المياه وتتمكن السفينة من الرّسو وبشكل ثابت وإلاّ ستختفي في الطمىٰ الرخو . فجاء الأمر الإلٰهي ﴿**وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين**﴾ فرست السفينة عند جبل الجودي .

« أنباءٌ من داخل السفينة » :

وفي مدة بقاء نوح (ع) وأصحابه في السفينة ذكر في إحدىٰ الروايات أنها ستة أشهر ، وكانوا يحتاجون إلى النور ، ولأن السفينة من ثلاث طبقات وهي جميعاً محاطة بالماء ، لذا فقد تضجّر من في السفينة من الظلام ، ثم هناك أيضاً

الرائحة الناجمة عن تعفن فضلات الحيوانات ، والاتعاب التي أوجدتها الفئران في السفينة مما زاد تضجّرهم وانزعاجهم ، وضاقت صدورهم من الأذىٰ .

فأرسل الله لهم جوهرتين من الجنة ، إحداهما تضيءُ في النهار ، كضياء الشمس والأخرى تُنير في الليل بنور كنور القمر ، وللتخلص من الفضلات خلق سبحانه الخنزير ليأكل هذه الفضلات ويخلصهم منها ، وهو ذات الخنزير الذي يأكل لحمه اليوم السادةُ الفرنساويون بكل رغبة وشهية ، ولا غرابة في ذلك ، لأن ﴿الخبيثات للخبيثين﴾ كما قال الله في كتابه ، وأما الفئران فقد خلق الله لها القطط للتخلص منها .

جواهر سفينة النجاة :

اما سفينة نجاة أمّة محمد (ص) فهو الولاية وفيهما جوهرتان مشعتان ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان﴾ وهما معروفتان جيداً لدينا ألا وهما سيدا شباب أهل الجنة « الحسن والحسين » عليهما سلام الله أبداً ما بقي الليل والنهار .

اما الركن الأول وهو نور اللؤلؤ البلدي فهو الحسن المجتبى (ع) حيث أن ظلمة غيوم معاوية (عليه الهاوية) القاتمة الداكنة لم تدع تلألؤ ونور هذا اللؤلؤ ينتشر لِتنعمَ به الأمّة ، وحينما شعَّ الضياء الشمسي من المرجان وهو أبو عبدالله الحسين (ع) فان عصابة بني أمية عليهم اللعنة الأبدية لم يدعوه ينتشر في الآفاق ويَسعُدَ به الناس .

وفي تفسير ﴿والفجر﴾ ذكر أن الفجر يقصد به نور الحسين (ع) .

﴿ وحملناهُ علىٰ ذات ألواحٍ ودسر ﴾

أي حملناه على ذات الخشب والمسامير أي الفلك ، حيث أن ألواحها كانت من خشب الصفصاف ـ على بعض الروايات ـ وقيل إنها من شجر الساج

« وذكر أنها من شجر الصنوبر ، وذكر أيضاً من جذوع النخل ، كما مرّ آنفاً » (وربما يُقصد بالإثنين الآخرين هيكل السفينة ، والأوّلين يقصد بهما الألواح التي تغطي جدرانها وهيكلها أي إنها من شجر الصفصاف أو الساج)[1] وأما الدسر فهو جمع دسار أي المسمار ، وقال بعض المفسرين : إن الدسر هي بمعني صدر السفينة ، والبعض الآخر يقول : إنها أُسس السفينة التي تبنىٰ عادةً من خشبٍ متينٍ ومقاومٍ ، والألواح المتينة هذه يدق بينها باقي أنواع الخشب كلوح الأسرَّة . فهذه الألواح توضع أساساً للسرير ثم توضع أرجل السرير من الخشب العادي المتين من أربعة جهات تربط بأربعة أخشاب طويلة ، وفي بناء السفينة يُراعىٰ ذلك أيضاً حيث أن لها قواعد رئيسية وأجزاءً ثانوية ، فيتكون معنىٰ الآية وفقاً لذلك « وحملناه عل سفينة لها أُسس وفروع » . ثم ينتقل السياق ليصف قوة السير في السفينة .

﴿ تجري بأعيننا ﴾ :

أي إنها تسير في الأمواج العاتية بحفظنا ورعايتنا لها ولمن فيها ، إنك حينما تريد أن تبني شيئاً وتحفظه من التلف والزوال تقول : إنه أمام عيني أي أنني أراقبه وأحرُسه ، والله سبحانه هنا يريد بيان ذات المعنىٰ ، أي إن السفينة تتحرك وتجري بحفظي ورعايتي إياها ، ولولا هذا الحفظ الإلهي والعناية الربانية ما كانت السفينة تمضي سالمةً بأي حال من الأحوال في مثل ذلك الطوفان الهائل الذي فصلنا عنه آنفاً وبعض المفسرين يقولون : إن المراد بأعيننا هو أولياء الله والحفَظَةُ أو الحراسُ الإلهيون أي الملائكة والأرواح العلْوية للعُمّال الإلهيين الذين هم بمثابة حراس إلهيين ، فيكون تفسير ﴿تجري بأعيننا﴾ وفقاً

(١) هذا ما تبيَّن لي (المترجم) من خلال كلمة ذات (أي إنها مضافة أو مميزة بها) ويمكن حذف العبارة ان لم تحصل القناعة .

لذلك إنّها تجري بحفظ ملائكتنا وبأيادي أوليائنا وعُمّالنا .

وذلك نظير ما هو مذكور في أماكن أُخرى من القرآن المجيد من أنّ لكل فرد أربعاً من الملائكة الحافظين مهمتُهم رعاية الإنسان والعناية به من الامام والخلف واليمين واليسار[1] يحفظونه طيلة مدة حياته حتّى يَحينُ أجلُه فلو لم يكن هؤلاء الحَفَظةُ فكيف بإمكان الإنسان أن يستمر في حياته منذ طفولته وحتى شيخوخته مع كلّ هذه المخاطر في الحياة .

﴿ جزاءً لمن كانَ كُفِر ﴾ :

وكلمة ﴿مَنْ﴾ الموصولة هي كناية عن نوح (ع) ، فلا نعمة أفضل وأحسن من نعمة إرسال الأنبياء والرسل الذين يدعون الناس إلى الله ، فكل النعم التي مَنَّ الله بها على الناس في كفة ، ونعمة بعث الأنبياء (ع) في كفة وأنها لعِظَمِها ذُكِرَ مَنحها بتعبير المَنّ ، فقد قال الله تعالى : **﴿لقد مَنَّ اللّهُ علىٰ المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً﴾** وهو سبحانه بِبَعثه النبي والرسول ، فان لم يَمُنَّ بنعمة من نِعمه التي لا تحصىٰ، كمنّه بالأنبياء علىٰ الناس ، وبعثه إيّاهم إليهم

إذن فالذي يكفر بنعمةٍ عظيمةٍ كهذه يستحق البلاء والعقاب ؟ بالطبع لِمَ لا ، فقومُ نوح ، وبدلاً من أن يشكروا هذه النعمة ويعرفوا قدرها وينتفعون بها تراهم يكفرون ويوجهون الأذى والإضطهاد لنبي الله وأصحابه ، لذلك كانوا يستحقون مثل هذا العذاب .

نشكر الله سبحانه الذي أنعم علينا بنعمة الإسلام وهدانا به ، ولو لم تكن هذه الهداية ترىٰ أين تكون **﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله﴾** .

أما الموعظة التي نستخلصها وننفتع بها من خلال هذه الآية الشريفة هي

---

(١) ﴿ له معقبات من بين يدي ومن خلفه ﴾ .

أن لا يكفر أحدٌ منا بهذه النعمة « نعمة الهداية بالإسلام ورسالته » كي لا يكون مستحقاً لعذاب الله وعقابه سواء في الدنيا أو الآخرة ، ونحن اليوم إذ نعيش في منأىً عن البلاء الإلٰهي مِنْ مثل ما نزل على قوم نوح أو غيرهم من الأقوام وذلك ببركة خاتم الأنبياء محمد (ص) فَانه اللطفُ الإلٰهي بعينه ، ذلك لأن واقعنا المعاش الذي يغلب عليها كفرانُ النعم الواضح يستلزم وقوع البلايا الإلٰهية .

السؤال عن النعمة والنعيم :

يقول تعالىٰ في كتابه المجيد : ﴿ولتسألنّ يومئذٍ عن النعيم﴾ ويفسر بعض من العامة أن النعيم المراد به هنا هو الماء البارد ، وبعض آخر منهم يفسره بأنه الخبز . أو بعض يقول : إنه النوم ! لكن ما ورد عن الإمام الرضا (ع) أنه قال : ما مفاده « إن الله (لأجلُّ) لأعظم وأكرم من أن يسأل عن نعم أنعم بها من مثل الماء والخبز والنوم ، فيا هذا لو أنك أحسنت وتفضّلت على أحد ترى هل ستسألُه ماذا فعلت بهذا لإحسان أو الإفضال ، وأين سلكت به ، هل من اللائق أن ينسب مثل ذلك إلى الله سبحانه ؟ فقيل له إذن ما هو النعيم الذي نسأل عنه يوم القيامة يا ابن رسول الله ؟ فقال (ع) : إنه ولايةُ آل محمد (ص) .

وفي موضع آخر من القرآن يُبيّن بصراحةٍ إنما السؤال هو عن الأنبياء والإيمان بهم فقد قال تعالى : ﴿فَوَربِّك لنسألنَّ الذين أُرسِلَ إليهم ولنسألنَّ المرسلين﴾ فالبشر سيسألون هل اتبعتم أنبياءكم ورسالاتهم أم لا وكذلك الأنبياء والرسل هم أيضاً سيُسألون هل أدّيتم ما عليكم وبيّنتم أحكام الله سبحانه وبلّغتم رسالاتكم للناس وأتممتم الحجة عليهم ؟

كُفران نعمة الأنبياء :

الكفر بالدين هو ذات الكفر بالأنبياء ، كذلك خراب المساجد بهجرها ، وترك مجالس العلماء والإستهانة بالدين ، وعدم الإهتمام به ، وإهمال العمل

بالأحكام الإلهية والواجبات والمحرمات ، وربما الإستخفاف بها أحياناً ، كل ذلك نوع من الكفر أو الكفران بالأنبياء والرسل (ع) .

الجهر بالمعصية والإثم هو كفرٌ واضحٌ وصريحٌ يستوجب العقوبة وإقامة الحد الإلهي وفي مدينة يتم التعاطي بالمسكرات والخمور بشكل علني ، ويُعمل بالنقضِ على ما أوجبت به آيات الحجاب ، وأصوات الموسيقىٰ والغناء الفاحش ، تنطلق من كلِّ محلٍ وبيتٍ فتملأ الأسماع ، وفي التجار يُتعاطىٰ الربا علناً ولا مِنْ رادع ، وغير ذلك من المحرمات والمنكرات ، إن مدينة كهذه أما يستحق أهلُها العقاب الصارم والبلاءَ النازل ؟

الحوائل دون وقوع العذاب :

جاء في الحديث الشريف عن المعصوم (ع) انه قال : « لولا شبابٌ خُشَّعٌ وشيوخٌ رُكَّعٌ وأطفالٌ رُضَّعٌ لَصُبَّ البلاءُ عليكم صبّاً » .

فمن بركات وجود هذه الأصناف الثلاثة بين الناس هو دفع البلاء النازل ولو إزداد الكفران والمعصية عن حدهما ، فان هؤلاء المساكين (الأصناف الثلاثة) سيعمهم العذاب والبلاء أيضاً ، والله تعالى يقول في كتابه المجيد مشيراً إلى هذه الحقيقة : ﴿واتّقوا فتنة لاتُصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ .

نعم فان من نتائج ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو البلاء العامّ الشامل وليت الأمر ينحصر في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرولا يتعدىٰ المشاركة بالمنكر والتشجيع عليه ! فمثلاً أنت أيها المدّعي الإيمان والتديّن ، لماذا تخرج مع هذه المرأة السافرة التي تجهُر بفسقها من خلال سفورها وتبرجها في الشارع أو لماذا تتعامل مع صاحب المحل الذي لا ينفك مشغولاً بالطرب وسماع الغناء ؟ أو تذهب إلىٰ حمامٍ أو مقهىً تملأ أرجاءه الموسيقىٰ الصاخبة الفاحشة ؟ لماذا كل ذلك وغيره يصدر منك وأنت محسوب على الدين والمتدينين !!؟

(النهي عن المنكر) يجبُ تجسيده عملاً :

إنكم أيها المتدينون الملتزمون لو قاطعتم هؤلاء العاملين بالمنكر والغارقين فيه ، لأن هؤلاء ناقصوا الدين وربما أكثرهم عبيد المال ، يسجدون للثروة إنكم لو قاطعتموهم ولم تتعاملوا معهم فاعلموا يقيناً أنهم سينتهون عن ممارسة المنكرات شيئاً فشيئاً ، فلماذا هذا التساهل والتسامح معهم ، وهذه درجة واحد من درجات النهي عن المنكر ، فان كنتم حتىٰ الآن لم تقوموا بذلك ، فعليكم من الآن فصاعداً القيام بذلك ، إتخذوا قراركم من الآن في النهي عن ممارسة المنكرات وآمنعوا ذلك بأيديكم قدر إستطاعتكم ، وعندها سترون أن هذا النضال السلبي كيف سيفعل فِعلَهُ ويترك أثره ، إنكم إنْ لم تتمكنوا من آقتلاع جذور المنكر والقضاء على جميع صوره فاعملوا على تقليله ، علىٰ الأقل وخاصة المنكرات التي تمارس علناً ودون حياءٍ أو خجلٍ .

« خلود السفينة للعبرة » .

﴿ولقد تركناها آيةً﴾ :

لقد أبقينا السفينة وحفظناها ليشهدها الناس إلىٰ يوم القيامة للعبرة والموعظة ، وقد ذكرت التفاسير أن سفينة نوح (ع) وبعد استوائها ورسوها عند جبل الجودي ، شاء الله أن يُبقي عليها ويحفظها أثراً لاتعاظ الأمم وأخذ العبرة منها ، ظلت باقية إلىٰ زمن بعثة خاتم الأنبياء (ص) مع أنها ليست سوىٰ أخشاب وألواح (والمعلوم أن الخشب يتآكل ويضمحل بمرور الزمن وخاصة عندما يكون مدفوناً في الأرض) ، ظلت باقية ، رغم مرور أكثر من خمسة آلاف وثمانمئة عام منذ وقع الطوفان ، فبقاؤها كان لمشيئة إلٰهية استهدفت العبرة والإتعاظ ، كما قلنا وهذا المراد من قوله تعالى : ﴿ولقد تركناها آيةً﴾ .

كتب أحد المفسرين أنه شاهد بأمّ عينيه أجزاءً من سفينة نوح ، وقبل عدة سنوات نقل أحد الأشخاص أنه قرأه في إحدىٰ المجلات أنه تمّ العثور مؤخراً

علىٰ سفينة نوح .

علىٰ أية حال ، فان السّفينة ظلت باقية ليعتبر بها الآخرون وليفهموا أنه إذا عمَّ كفرانُ النعمةِ الكبرىٰ ، أي الكفر بخاتم الأنبياء (ص) ودينه ورسالته ، فانهم لا محالة مستحقون للبلاء والقهر والعذاب الإلٰهي ينزل عليهم ويسودهم . إذن :

﴿فهل من مُدّكر﴾ ؟

فهل من متذكر ، متعظ ، يتعظ ، ويتذكر فيصحو من غفلته .

﴿فكيف كان عذابي ونُذرُ﴾ ؟

وهذا الإستفهام والتساؤل جاء من باب التعظيم والتعجّب ، يعني أنتم أيها السامعون وأنتم الذين وصلتكم أنباء قوم نوح وقصتهم ترىٰ كيف ترون ذلك العذاب والقهر الإلٰهي ؟ وكيف كانت نُذرُنا . وتحذيراتنا ؟

ترىٰ فهل هناك من يتعظ ويتدبر الأمر ﴿فهل من مدّكر﴾ .

كُلُّهم ماتوا :

بعد انتهاء الطوفان ، طلب أصحاب نوح من نبيّهم أن يأتيهم بالغذاء فجلب نوح (ع) كمية من الرمل وقرأ عليها آسم الله ، فتحولت جميعها إلىٰ كومة من القمح وأعطاهم إيّاه ، ثم غرس أعواداً وقرأ عليها فتحولت أشجاراً يانعة ، ثم بدأ أصحابه ببناء المنازل والأبنية ، فصارت تلك المنطقة مدينة سميتْ بـ « مدينة الثمانين » ثم حلَّ وباء ، فماتوا إثرَه جميعاً ، عدا أولاد النبي نوح الثلاثة الذين إمتد النسل البشري منهم وذرّياتهم ، ولهذا قيل عن نوح (ع) بأنه آدم الثاني ، وقد جاء في التواريخ شروح في ذلك حيث أن كل واحد من أولاد نوح الثلاثة ذهب إلى إحدىٰ بقاع الأرض ، وتولدت منهم أنسابٌ وعروق مختلفة ، وفي ذلك ذكر العلاّمة المجلسي (رحمة الله عليه) في كتابه حياة

القلوب شيئاً عن مجريات الأحداث آنئذٍ .

« القرآن للذّكر » :

﴿ولقد يسّرنا القرآن للذّكرِ فهل من مدكر﴾ ؟

أي إننا سهلنا القرآن من أجل التذكر والتـدبّر فيـه، **فهل** هنـاك من يتعظ وتنفعه الذكرى ؟ وأصل كلمة ﴿ **مدّكر** ﴾ هو متذكّر (مكن باب الإفتعال) وقد حذفت التاء من جنس فاء الفعل .

إن القرآن المجيد نُـزّل بشكلٍ سهـلٍ يسير الفهم ، رغم أنـه كلام ربّ العالمين بحيث أن الإنسان لا بدّ أن يعيَ شيئاً منه ويُدركه ويفهمه فيمكنَه حينئذٍ أن يستفيد وينتفع منه بقدر معين ، فهو من حيث سهولة وسلاسة ووضوح عباراته وخطاباته ، إن بإمكان أي شخص يعرف شيئاً في العربيـة أن يفهم وجوهـاً منه وخاصة واضحاته ، مع أنه الكلام الأول ، والقول الأرفـع من ناحيـة الفصاحـة والبلاغة اللامتناهية فيه وهذا هو أحد أسرار الإعجاز في القـرآن ، لذلـك عُرف القرآن المجيد بصفة أنه سهلٌ ممتنعٌ ، وهو أي القرآن بيّن وسرد مراراً وتكراراً قصص الماضين وحكاياتهم من أجل تنويع الكلام وبإطار جذابٍ ولطيفٍ ، كل ذلـك عسىٰ أن يتعظ هذا الإنسـان المتمرّد على ربّـه الرحيم ، فهـذه المواعظ والعبر والقصص التي وردت في القرآن . ما هو الهدف منها ؟ أليس أنـه للعبرة والتذكر والموعظة الحسنة لنا ولمن سبقنا ولمن يأتي بعدنا من الأجيال ؟ ، فهل من مدّكر ؟

بلىٰ يجب الإتعـاظ بالقـرآن في كـلّ زمـان وفي أي مـرحلة يكـون فيهـا الإنسان ، فأيّاً كان اتعاظه فهو ما زال قليلاً أي بإمكانه مهما كان قد استلهمه من القرآن في المرحلة الماضية وما بعدها ، أن يستلهم منه وينتفع بشكلٍ أكثر .

ورد في مجمع البيان بشأن تفسير **﴿فهل من مدّكر﴾** أي متذكّـر يعلم أن ذلك حقٌّ ، فيعتبر به ويخاف ؟ وقيل معناه فهل من طالب علمٍ فيُعـان عليـه ؟

وقيل أيضاً أي متعظ معتبر به ناظرٌ إليه .

والذكر من التذكر ، وهي مقابل النسيان ، والذكر هو في حقيقته موضوع وأمرٌ كامن في ذهن الإنسان ، لكنه الآن لا يخطر علىٰ باله .

فالقرآن المجيد وما فيه من إرشاد وتوجيه وتعليم وكذلك كلمات أهل البيت (ع) ونصائحهم وكافة العظماء والأجلاء ، إنما هو تذكير بذلك الذي يكمن في فطرة الإنسان ، ولا يعلمون شيئاً عنه ، وبالطبع فان ذلك يكون عند ذوي القلوب المنورة بنور الإيمان والعلم .

وجوب أهليّة السامع :

لو أن النور الباطني المعنوي آنطفأ لدىٰ الإنسان لا سمح الله ، فلم يعد الذكر ينفع معه ، فماذا يصنع معه القرآن حتى يجعله يتذكر ويتعظ ويهتدي فالأعمى ماذا ينفع معه !الضياء ، سواء كان موجوداً أو منعدماً ، لكن البصير يمكن أن ينتفع بهذا الضياء ، فقد يظل جاهلاً إن انعدم الضياء الذي يستضيء به ، لكنه سيعي ويهتدي إلى الطريق حينما تضيء له المصباح .

فالله سبحانه ذكر هنا قصة نوح بهدف العبرة والموعظة ، فان كان هناك أحد لم يتعظ ويعتبر بها ، فذلك بسبب تقصيره أو سوء حظه هو .

بهذه الآيات ينتهي عرض قصة نوح وواقعه الطوفان التاريخية الكبرى ، أما الشيء الذي ينبغي ذكره هو فيما يخص سؤال طرحه بعض الزملاء والاخوان في الليالي الماضية ، ونجيب عليه هنا لكي يطلع الجميع على ذلك .

والسؤال هو : هل إن الطوفان في المنطقة التي يعيش فيها نوح (ع) أم أنه شمل العالم كُلّه ؟ أي الكرة الأرضية كُلّها ، فلو كان شمل الأرض كلها ، فقوم نوح كانوا يسكنون الكوفة فما الداعي لأن يعم الغرق والدمار والهلاك جميع من علىٰ وجه الأرض ؟

في أي مكان جاء الطوفان :

طالما قال البعض : إن الطوفان كان مقتصراً على نفس المنطقة التي عاش فيها نوح (ع) . لكن هذا القول هو خلاف ما تصرح به الآيات القرآنية والأخبار الواردة عن أهل البيت (ع) التي يستشف من مضمونها أن الطوفان شمل كل بقعة من الأرض عدا بيت الله الحرام والكعبة المشرفة ، لذلك أطلق على الكعبة بالبيت العتيق ـ أي إن أساسها أيضاً لم يؤثر به الطوفان ـ والروايات كثيرة في هذا المعنىٰ حيث جمعها المجلسي (عليه الرحمة) في بحار الأنوار .

وفضلاً عن ذلك ، فان آثار الحيوانات البحرية ومتحجراتها التي اكتشفت في الجبال وعلى قممها هي بحد ذاتها دليلٌ على أن الماء طغىٰ يوماً فغطى أعلىٰ مرتفع وقمة جبلية ، وترك آثاراً من تلك الحيوانات عليها .

أما الشبهة القائلة بأن قوم نوح إن كانوا في الكوفة ونينوى فلأجل أي شيء عمَّ الطوفان جميع الأرض وأهلك كل من عليها ؟

فان ما أراهُ واستناداً لحكم العقل وآيات القرآن وأخبار العترة الطاهرة المتيقّنين بها هو أن الله سبحانه لا ينزل لبلاء والعذاب على قوم ما لم يُتمَّ الحجة عليهم ويريهم طريق الهداية والحق ، وهو تعالى يقول : ﴿وماكُنّا معذّبين حتّىٰ نبعث رسولاً﴾[1] .

لم تكن كُلُّ الانحاء معمورة :

ذُكر في ناسخ التواريخ أن بين عهد آدم (ع) أبو البشر وعهد نوح (ع) الفين وماءتين وثمانية وأربعين عاماً (٢٢٤٨) ووفقاً لذلك ، فلا شك أن الكرة الأرضية خلال هذه المدة القليلة لم تكن معمورة بكلّ أنحاءها ، وليس هناك ما يثبت أن الأرض كانت مسكونةً ، من قبل البشر في كل أرجائها ، ربما إن جزءاً

---

(١) سورة الحجر، الآية : ١٥ .

معيناً منها كان ينتشر فيه البشر، ولا شك أن نوحاً(ع) الذي هو صاحب شريعة ومنهاج إلٰهيّ ومن الأنبياء والرسل أولي العزم، وقد بعث حينئذٍ إلى كل أفراد بني الإنسان خلال مدة ليست بالقصيرة، إنها تسعمائة وخمسون عاماً من التبليغ للرسالة الإلٰهية والشريعة التي جاء بها ولا ريب أنه قد أرسل إلى جميع الأنحاء من يُمثّله من ثقاته إلى تلك الأنحاء المترامية أو أنه ذهب بنفسه إلى تلك الأماكن خلال مدة حياته الرسالية، يسيح في الأرض داعياً إلىٰ توحيد الله، ونبذ الشرك والأوثان، لذا فانه وأصحابه ووكلاؤه قد أتمّوا الحجة على البشرية الجاحدة حينئذٍ وليس الأمر كما يرى البعض أن القضية كانت تقتصر على موطن نوح الأصلي أي الكوفة ونينوى.

سام وصيُّ نوح والقائم بمقامه :

كان لنوح (ع) ثلاثة أولاد مؤمنين وهم أعوانه وأنصاره، وسام هو أحد أبنائه، كان نائبه وخليفته ووصيّه وحينما أدرك نوحاً الأجل أودع الوصية عند ولده سام، وأحلّه بمقامه.

وأما كنعان بن نوح الرابع فهو كان كافراً وقد أبىٰ أن يؤمن وحلّ به ما حلّ بالقوم من الغرق.

فنوح (ع) ربّما أرسل أولاده أو كافة أتباعه أو الذين آمنوا معه إلى كل ناحية مأهولةٍ للتبليغ وإتمام الحجة على الناس فيها، وربما أيضاً لاقوْا نفس ما لاقاه أبوهم وسيدهم نوح (ع) من الأذىٰ والمعاناة والعذاب والنهر والزجر من قبلهم ورفض التوحيد والإصرار على الشرك، فكانوا يستحقون أيضاً سخط الله وبلاءه النازل وانتقامه منهم فكان الغضب عاماً شاملاً.

وعلىٰ أية حال، ومما لا ريب فيه أبداً أن الله سبحانه لا ينزل البلاء والعذاب علىٰ أمّة ما لم تتمّ الحجة عليها، وكما قال سبحانه : **﴿وما كنا معذبين حتىٰ نبعث رسولاً﴾** .

قصة عاد

﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ﴾ :

بعد أن سرد ربّ العالمين في كتابه المبين وبشكل مقتضب في هذه السورة قصة نوحٍ وقومه والطوفان الذي أغرقهم لعصيانهم وتمرّدهم علىٰ الله وشركهم به ، عاد في سياق جديد ليعرض قصة عاد من أجل تركيز العبرة والموعظة في قلوب الناس ، ويزيدهم حذراً وآتقاءً لبلاء الله النازل وعذابه القاصم فيما لو سلكوا مع أنبيائهم وأوليائهم وأئمتهم وأولي الأمر منهم ذات السلوك التمرديّ فينتبهون حينئذٍ من غفلتهم ويتبعون الرسل ، وخاصة أولئك المشركين من قريش الذين آذوْا رسول الله كثيراً ولم يستجيبوا للإيمان .

كان موطن قوم عاد في جنوب الجزيرة العربية ، وهي المعروفة الآن بحضرموت وبلاد اليمن . والذين يسافرون في تلك النواحي يمرون علىٰ ديارهم التي باتت تحت الرمال .

﴿كذبت عاد﴾ :

لقد نسب قوم عاد إلىٰ نبيهم هود (ع) تهمة الكذب . ولم يكتفوا بذلك بل راحوا يؤذونه ويضطهدونه طيلة مدة وجوده معهم والدعوة لرسالته ، وقد بلغ الأذىٰ والإضطهاد الذي لاقاه منه ، كما ذكرت بعض الروايات أنه قد آنسدّ

حلقومه يوماً وكاد يموت من شدة خنقه ، حتّىٰ ظنوا أنه مات فتركوه لحاله ، لكن اللطف الإلٰهي كان عنده ، فتماثل إلى الشفاء شيئاً فشيئاً ثم عادوا إليه مرة أخرى يؤذونه ويخنقونه ، حتى أُغمي عليه ، ثم مَثُل إلى الشفاء تارة أُخرى وهكذا كان حاله معهم في دعوته ونصحه إياهم .

صور تكذيبهم إياه :

كانوا يقولون لهود (ع) : لو كنت صادقاً وعلىٰ حق كيف تدعونا لأن نعبد واحداً أحداً ، لا بدّ أن آلهتنا قد غضبت عليك ومسَّك الجنون فجعلك تُردّدُ هذه الكلمات .

فقال لهم هودُ (ع) في جوابهم : لست مجنوناً إنما بُعثت لكم من ربّ العالمين ، لأهديكم سبيل الرشاد والهدىٰ والتوحيد ، وفي السورة التي سميت بآسمه (ع) يقول تعالى ، عن لسان حال قومه وحاله : **﴿قالوا يا هود مَا جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول الا آعتراك بعضُ آلهتنا بسوءٍ قال إني أُشهدُ اللَّهَ وَآشهدوا أنّي بريءٌ مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * ﴾**[1] .

ومما قاله لهم هو : أني محذّركم من عذاب الله ينزل بكم إن أنتم عصيتموني كما نزل على قوم نوح من قبل حينما عُرّضوا للقهر والغضب الإلٰهي ، فما كان جوابهم له ـ وبدلاً من أن يتعظوا ويرتدوا عن سوء سلوكهم ـ أن قالوا له : إن قوم نوح كانوا صغار الأجسام ، وأما نحن فان آلهتنا أعطتنا القوة والضخامة .

وذكر العلاّمة المجلسي (رحمة الله عليه) في بحار الأنوار مستنداً إلى رواية هو أن مدة مكوث هودٍ في قومه آستمرت سبْعمئةٍ وخمسين عاماً ، لكنهم

---

(١) سورة هود ، الآيات : ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ .

لم يهتدوا ويؤمنوا رغم طول هذه المدة وكانوا يرفلون بالنعيم الوفير ، مما كان لهم من جنات وعيون ومياه عذبة وبساتين خضراء ممتدة والحاوية على ألوان الفواكه اللذيذة ومساكن طيبة وأطعمة سائغة وأما هُم ذواتهم، فانهم من حيث الأبوان كانوا أقوياء جداً وضخاماً ، وكانت قوتهم أنهم كانوا يقلعون الصخور من الجبال ، ويأتون بها للبناء ، فكانوا يستخدمونها بدلاً من الأعمدة الخشبية التي توضع لبناء السقف عليها ، فكانوا يأتون بها وبنصبونها ، وفي ذلك يقول تعالىٰ : ﴿إرمَ ذات العماد التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلاد﴾ .

أما قاماتهم فقيل : إنّها لا تقل عن إثني عشر ذراعاً ، وربما ذكر بعض المؤرخين ، وجاء في بعض الروايات : أنها سبعون ذراعاً ، وبسبب إعجابهم وغرورهم النابع من واقعهم ، وما يرونه من قوتهم ، فلم تكن تنفع معهم دعوات هودٍ وتحذيراته إياهم بل كانوا يزدادون مقابل ذلك إثماً وطغياناً .

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ :

نعم كيف ذلك البلاء بعد انذارات رسلي وتخويفهم وتحذيرهم لهم .

فالله سبحانه وتعالىٰ أنزل عليهم العذاب شيئاً فشيئاً وبدرجات الواحدة أشد من الأخرىٰ ، فكان أول العذاب والسخط الإلهي ومقدمته أن منع السماء عنهم بالماء فقد أخذ المطر يقل تدريجيّاً ، حتّىٰ انقطع عنهم ثلاث سنوات متتالية فانتشر في بلادهم وما حولها الجفاف الذي أدىٰ إلى حصول القحط الشديد ، وشيوع الغلاء الفاحش حتّىٰ باتوا لا يحصلون على لقمة العيش إلاّ بشق الأنفس ، لكن هؤلاء الوقحين الأشقياء ، لم يستحيوا من الله وأبوْا الإستجابة لما نهاهم عنه نبيهم هود (ع) ورفضوا دعوة الإيمان والتوحيد ، وأصرّوا واستكبروا استكباراً، فضلاً عن أن يندموا عما صدر عنهم في الماضي من شركٍ وكفرٍ ، وكان إصرارهم وعنادهم هذا واستكبارهم نابع من غرورهم وإعجابهم الزائد عن الحد بقواهم ، فقد اعتمدوا على قوة أجسامهم في

الإستمرار بغيّهم .

ولمّا لم ينفع ذلك معهم زاد الله عذابهم ، فدخل في طور آخر ، وكان ضربةً قاصمة وجهها الله سبحانه لغرورهمِ وكبريائهم ، فقد انتزع ذلك من عيونهم إنتزاعاً عندما سلّط سبحانه أضعف حيوانات الأرض وأصغرها عليهم ، ألا وهو النّمل فقد تكاثر النملُ وازداد بشكلٍ لا يُتصور ، حتّى باتوا لا يقدرون التخلّصَ منه بأيةِ وسيلة ، فما أن يجلس أحدهم حتّىٰ يمتلأ بدنه بالنمل الذي تسلق إلى جسمه ، حتى كان لبعض النملة إبراً لاسعةً وبعضه كانت له فكوك تجرح الإنسان حين يقضم بها لحمه ، فكانوا يتأذّونَ كثيراً ، ويتعذبون بسبب هذا النمل الذي لا يدرون من أين يخرج ، ويأتي ليأكل في أجسامهم ، ولقد بلغ بهم الأذى والضجر ما جعل بعض القادرين والأغنياء منهم أن يلجأوا إلى المغارات في الجبال ، وفضّلوا أن يعيشوا هناك على الإيمان والطاعة والإستجابة لنبيّهم .

فانظر إلى أين بلغ بهم الغرور والكبرياء مبلغه ؟

ولمّا لم يتعظوا بهذا الشكل من العذاب والقهر ، شدّد الله سبحانه بالعذاب وقرّب لهم العذاب الذي لا فرصة لهم بعده ، حيث كانت ساعة الصفر تقترب نحوهم شيئاً فشيئاً ، فقد بدأت الريح الشديدة تهبُّ في بضعة أيامٍ صوب ناحيتهم ، وكانت كلما استمرت في الهبوب تزداد قوة وشدة مثيرة معها كثبان رمالِ الصحراء الواسعة ، حاملة إياها صوب مدنهم وأحيائهم وديارهم ، فقد تكونت كثبان ، بل جبالٌ من الرّمل حيث كان هذا الرمل يتجمع يوماً بعد آخر .

ثم أُوحي إلى هود (ع) أن نزول البلاء بات قريباً جدّاً .

فخرج (ع) إلىٰ قومه لينذرهم ، ولعلّه كان الإنذارَ الأخير الذي يتمُّ الحجة عليهم ، فقال لهم : هذا الذي ترونه هو بداية نزول البلاء عليكم ، وبات الأذىٰ والمعاناة والأتعاب يدق أبوابكم فهلمّوا معي وتوبوا إلىٰ الله توبة نصوحاً عسىٰ أن

يرفعَه عنكم ، أنصحكم أن تذروا ما تعبدون من دون الله ، وأن تعبدوه سبحانه إلٰهاً واحداً لا شريك له .

كل هذا النصح وإلقاء الحجة الأخيرة لم ينفع معهم وظلّوا مصرين معاندين ، معتمدين على قواهم بدافع من غرورهم وكبريائهم . وراحوا يستهزؤون بنبي الله ، فيغرسون أرجلَهم في الرمل ويقولون له بتحدٍّ وبلا حياء : نُرى من يقدر على أن يزحزحنا من أماكننا . وهكذا ظلّوا على غيهم حتى جاء الوعيد الإلٰهي وحطّ البلاءُ رحاله في قُراهم كما يبيّن السياق فيقول تعالى :

﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾ :

ورد في كتاب (حياة القلوب) للعلّامة المجلسي (قدس سره) حديث شريف رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما مفاده إن الريح لم تهب لحد الآن وبالمقدار والكمية من حيثُ الشدة والقوة كما هي في زمن عاد ، فقد زادها خُزّانها وأطلقوا عنانها بمقدار سمّ الخياط ، فأهلكت قوم عادٍ . وفي رواية أخرىٰ : أنها أُطلقت من فتحة هي بوسع دائرة الخاتم ، ولو أن الريح قد سنح لها أن تهبَّ بهذه القوة فلن تبقيَ قائماً على الأرض ، فهذه الرياح التي تشاهدونها ، إنما هي رحمة إلٰهية ، ويا للهول إذا ما شاءت الإرادة الإلٰهية الحقة ، ويا للويل والثبور إن فتح لها الباب بمقدار حلقة الخاتم فتتجسد عندئذٍ غضباً إلٰهياً مهلكاً كالذي نزل على قوم عاد .

الصرصر :

ويراد بها الباردة ، فالريح الصرصر ـ هنا ـ هي الريح الشديدة والباردة . هذا على وجه ، ووجه آخر للمعنىٰ كما ورد في التفاسير أن الصرصر هو الصوت الرهيب الناجم عن شدة الهبوب ، كما هو الحال في صوت العواصف والأعاصير .

ومتى كان العذاب ؟ ينقل لنا السياق ذلك فيقول تعالى : **﴿في يوم نحسٍ مستمر﴾** أي في يوم مشؤوم متواصِلٌ شؤمه . فهو ذلك اليوم الذي نزل فيه البلاء والقهر والغضب الإلٰهي .

وفي الروايات إن ذلك اليوم الذي بدأت فيه الرياح المدمّرة تهب على قرىٰ عاد وديارهم ، كان يوم الأربعاء في آخر شهر صفر ، لذا عُد هذا اليوم بالخصوص ، وليس كل أربعاء ، يوماً نحساً ، ويوم شؤم ، لكن البعض راح يُفرط في القضية فيعتبر كل أربعاء هو يوم نحس . وهذا من الخطأ والوهم والخرافة ، فتجد مثل هؤلاء لا يفعلون ويوصون الآخرين بأن لا يفعلوا من أمور يبغونها ، كأنْ يسافروا أو يَحلُّوا ضيوفاً على الغير أو يعودوا مريضاً في المستشفىٰ وغير ذلك في ليلة الأربعاء ونهاره ، لانه يوم نحس باعتقادهم الباطل .

وذات الأمر ينظره البعض بالنسبة ليوم الاثنين ؛ فقد سُئِلَ المعصوم (ع) إذا اقتضىٰ الأمر أن نسافر في يوم الاثنين فما عسانا أن نفعل ؟ فأجابهم (ع) قائلاً : توكّلوا على الله وسافروا .

وجدير بالإشارة هنا أن الصدقة تكاد تدفع البلاء ، وتدفع أيضاً النحس والشؤم .

﴿مستمر﴾ :

أي إنه متواصل وفي الآية متواصل الشؤم ، حتّىٰ يهلك الجميع وفيما يخص عذاب ذلك اليوم ، فقد ذكرت الروايات أنه بدأ يوم الأربعاء في آخر شهر صفر ، واستمر إلى الأربعاء التالي في بداية ربيع الأول ، فكانت مدته وكما جاء ذلك في القرآن في **﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام﴾**[1] .

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : ٧ .

عندما بدأت الرياح الرملية العاتية في ذلك اليوم ، خيل لقوم عاد أنهم قادرون على الصمود أمامها ومقاومتها ، فوقفوا بوجهها بعد أن ركزوا أرجلهم في داخل الرمل والطين ، ولم يحسب هؤلاء الحمقى لنتيجة عنادهم وفعلهم هذا ، فكانت الرياح تقتلعهم اقتلاعاً وتطير بهم إلى الأعالي وكأنهم زرازير وعصافير في الهواء ثم ترميهم بكلّ قوة علىٰ الأرض ، كما يُرمىٰ بقوة من شاهق فيمزقون تمزيقاً ويغدون إرباً إرباً .

وفي الروايات ذكرت أسماء سبعة أشخاص كانوا من أشراف قوم عاد وهم « عمرو بن خلود ، وحارث بن شداد ، وهلقان وخلجان وثلاثة آخرين »[1] ، فهؤلاء حينما وجدوا أنفسهم أنهم لا يمكنهم البقاء في مدينتهم وبناياتهم وحصونهم والعيش فيها ، حملوا أموالهم ونساءهم وأولادهم إلى مغارة في إحدى الجبال ، ولكن ذلك لم ينفعهم ، فقد لحقتهم الرياح العاصفة وحملتهم كغيرهم إلى الأعالي ثم ألقت بهم بقوةٍ إلى الأرض فتقطعوا وماتوا . وأما نساؤهم وأولادهم فقد ماتوا في داخل الغار بعد مضي سبعة ليال وثمانية أيام بسبب الجوع والعطش .

وخلاصة القول : إن أحداً من قوم عاد لم يبق على قيد الحياة ، إلاّ هوداً ومن تبعه علىٰ الإيمان . وفي ذلك يقول تعالى بشأن فنائهم : ﴿**فهل ترىٰ لهم من باقية**﴾ هل ترى لهم ذلك الوجود المتمرد المعاند ، وهل بقي لغرورهم وكبريائهم أثر يذكر ، فحتىٰ أولئك الذين التجاؤا إلى شقوق الجبال ومغاراتها لم يسلموا من الفناء والهلاك .

وفي وصف موتهم ينقل لنا السياق صورة بليغة في الوصف فيقول تعالىٰ :

---

(١) قيل إنّ هؤلاء الأشخاص كانوا يقفون في باب الغار كي يتخلصوا من شرّ الرياح القاصفة، لكنّ الرياح تبعتهم وأماتتهم كبقيّة قومهم

﴿تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر﴾ :

فالريح هذه تقلع الناس من أماكنهم قلعاً وتذرهم في الأعالي ثم ترميهم بشدة فيضحون كالنخل المنقلع .

﴿أعجاز﴾ جمع عجز أي مؤخرة الجذع فحينما ينقلع السعف وينكسر الجذع وينقلع ويهوي إلى الأرض فماذا يبقىٰ في النخل ؟ .

وأشرنا سالفاً إلى قوة أجسام قوم عاد وطول قامتهم التي لا تقل عن إثني عشر ذراعاً كما جاء في الروايات ، لذلك فان الله سبحانه يشبههم بهذا التشبيه البليغ الذي يعكس صورة هلاكهم ، فهم كجذوع النخل المنقعر أي الذي تهشم سعفه ورأسه .

وبعض المفسرين يقولون حول وجه التشبيه هذا ، بأن أبدان قوم عاد كجزوع النخل الذي يفصل الريح رؤوسها ، فذات الأمر قد حصل لهم فهم حين رفعتهم الرياح ورمت بهم بقوة إلى الأرض انفصلت رؤوسهم عن أجسامهم فسقطت هذه الأجسام هامدةً على الأرض ، بلا رؤوس أصحابها كما هو الحال في النخل المنقعر .

﴿ منقعر ﴾ :

بمعنىٰ المنقلع واستخدم التعبير للدلالة على رسوخ وثبات جذوع النخل . ومثل ذلك فعله قوم عاد حيث لجاؤا إلى تثبيت أرجلهم في الطين والرمل كي يقاوموا الرياح العاتية جهد إمكانهم ، لكن ذلك لم يكن لهم ، فقد اقتلعتهم الريح اقتلاعاً، وطارت بهم، ثم رمت بهم إلى الأرض رمية فصلت رؤوسهم عن أجسادهم .

ومما ورد عن الإمام الباقر (ع) أن تلك الرياح قلعت الرجال من مواقعهم التي رسخوا فيها أقدامهم ورمتهم على رقابهم إلى الأرض فهشمتها وبهذه الصورة

انفصلت رؤوسهم عن أجسادهم كجذع النخلة التي فُصِلَ عنها رأسُها وهوت على الأرض . ويمكن ملاحظة ذلك في كتاب (منهج الصادقين) .

أما هودٌ (ع) وأصحابه القلة من المؤمنين الذين اتبعوه ، فقد لجأوا إلى مكانٍ منخفضٍ وعميقٍ في الأرض ، فكان هذا الريح الصرصر الذي دمّرَ القوم وأهلكهم ، كانَ يصل إلى هودٍ وأتباعه المؤمنين وكأنه ريح الصبا العذبة ونسيمه الهادىء .

وهذه مشيئة الله سبحانه فأينما اقتضت مشيئته جعل ذلك المكان جهنم ، وان اقتضىٰ العكس من ذلك جعله جَنةً ونعيماً .

وبعد انقضاء الثمانية أيام وهلاك القوم المشركين العُتاة شدَّ هودُ الرّحال نحو مكة المكرمة ومكث فيها حتّى حان أجلُهُ .

دُفِنوا تحت الرمال :

ذكرت الروايات أنّ الرياح أُمرت أن تسحب كثبان الرمال العالية التي صنعتها إلىٰ القرىٰ والدّيار الهامدة لتغطي أجساد الموتىٰ الهالكين بعدوا قُضيَ عليهم جميعاً ، وفي روايات أُخَر إن البعض هلكوا وهم تحتَ الرمال فقد دُفنوا أحياءً وظلّوا يئنون حتّى ماتوا ، وكما بينا في مساكنهم وقراهم ومدنهم تقع في جنوب شبه الجزيرة العربية ، بدءاًمن حُدود عمان الغربية وانتهاءً ببلاد اليمن .

﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ :

نعم فالريح هي ذات الريح لم تتغير ، لكن الفعل يتغير بمجرد إشارة ربانية بسيطة فيصبح كما أصبح على قوم عاد .

في رواية عن رسول الله (ص) مفادها أنه (ص) كان حين تهب رياح عاصفة صفراء ، فان لونه « بأبي هو وأمي » يتغيّر ، ويميل إلى الصفرة ، لئلاّ

يكون عذاباً إلٰهياً نازلاً ، فكذلك نحن يجب أن لا نستمر في غيّنا آمنين جانب العذاب والبلاء الإلٰهي النازل بل لا بدّ لنا من أن نكون بين خوف ورجاء .

لقد أُنذر قوم عاد لسنوات عديدة طوال ، لكن ذلك لم يكن ينفع معهم فجاءهم العذاب الهالك ليعالجَهم وإلى الأبد ، ولم يأتهم بغتة ، وإن كانوا يستحقون البغتة فيه ، لكن الله سبحانه رحمٰن رحيم فقد شاء أن يجعل مؤشرات ومقدمات عليه ، كما ذكرنا سالفاً ، فكانوا كلما بَنوْا من بنيان جاءت الرياح ودمرته ، حتى نزل بهم ما نزل ، فلم يعد هناك مجال لأحدهم أن يتوب أو يوصي أهله ، ولذا ينبغي علينا أن نعتبر من ذلك ، وما زال مديد العُمر أمامنا فلنعرف قدره ونتوب إلى الله عما سلف منا من الذنوب والآثام والموبقات ، عسىٰ الله أن يتوب علينا .

والإمام أمير المؤمنين عليّ (ع) يقول : « آغتنموا الفرص فانها تمرُّ مرّ السحاب » .

﴿ ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ :

وهنا تكررت هذه الآية الشريفة فانظر كم هي واسعةٌ رحمة الله سبحانه ، فهي بالشكل والقدر الذي يُصرّ الله سبحانه على عباده في اتباع سبيله ومنهاجه . وفي دعاء عن السجاد (ع) يقول فيه[1] : « يا من يجتبي صغير ما يُتَحفُ به ويشكر يسير ما يُعمل له ويا من يشكُر علىٰ القليل ويُجازي بالجليل ويا من يدنو إلىٰ من دنا منه ويا من يدعو إلىٰ نفسه من أدبر عنه ويا من لا يُغيِّرُ النعمة ولا يبادرُ بالنّقمة » .

لذلك يقول المفسرون : إن تكرار هذه الآية في هذه السورة عدة مرات جاء من هذه الناحية من ناحية حبّ الله لعباده ورحمته التي وسعت كل شيء

---

(١) من دعائه (ع) في يوم الفطر والجمعة (الصحيفة السجادية) .

لهم ، والملفت للنظر في الآية ان العذاب جاء التعبير عنه فيها بصيغة المفرد ، وأما النذُرُ فهي صيغة الجمع للنذيرُ ، ومعنىٰ ذلك أن العذاب واحدٌ ، ولكنْ يسبقهُ الكثيرُ من الإنذارات والمنذرين .

لذلك لا ينبغي لنا وفي أي حال من الأحوال أن نغفل وننسىٰ قصة عاد وهلاكهم، بسبعة ليالٍ وثمانية أيام، مكثوا تحت الرمال يئنون من الأذى والعذاب حتّى هلكوا وقد انهمر وانهال عليهم من الرمل ما لم يعد لأبدانهم أثرٌ على وجه الأرض .

أجسادُ قوم عادٍ بعد خمسة آلاف عام:

بعد مُضيّ خمسة آلاف سنة على وقوع العذاب علىٰ قوم عاد ، وفي عهد المهدي العباسي ، جرىٰ التصميم على حفر بئرٍ للحصول على الماء ، فكلما كانوا يحفِرون ويتعمقون في الحفر ، لم يستطيعوا الوصول إلى الماء حتّى أنْ الخليفة العباسي (المهدي) عاد غضباناً منزعجاً ، وأصرَّ على عُمّاله أن يستمروا بالحفر في ذلك المكان حتىٰ يبلغوا الماء ، ولقد أنفق على عملية الحفر هذه ما أفرغ بيت المال . وكانوا كلما حفروا مئة متر عَملوا موضعاً لدولاب الحفر ، وفي نهاية المطاف ، وبعدما أنفقوا من المبالغ الطائلة التي لا حدّ لها وَصلوا في الحفر إلى صخرة عظيمة ، ولم يتمكنوا من رفعها إلاّ بعد جهود كبيرة ، وصعوبة بالغة جدّاً ، وحالما زحزحت ورفعت هبّت رياح قوية وسريعة وشاهد أولئك الذين في القعر أموراً عجيبةً وغريبةً ، فقد رأوْا الموتىٰ مطروحين هنا وهناك ، ولا زالت أوانيهم وبعضُ أثاثهم باقياً وأما أجساد الموتىٰ ، فكأنّها الرّماد ، فكانوا كلما وضعوا أيديهم عليها ولمسوها تطايرت أجزاءٌ منها كالغبار . لذلك ظلّوا في حيرة من هذه الأحجية واللغز الذي لا يعرفون شيئاً وراحوا يبحثون ويفتشون في الأمر ، لكنهم لم يتوصلوا إلى نتيجة لمعرفة شر هذه الأحجية ، فما كان منهم إلاّ أن التجاؤا إلىٰ ملاذ الأمة الحقيقي آنئذٍ ، وإمامها بالحق موسىٰ بن جعفر (عليهما السلام)، فلّما جاؤوه (ع) وأخبروه بالأمر والوصف، بكىٰ الإمام، وقال:

إن هؤلاء هم ممن تبقّىٰ من قوم نوح .

كان ذلك عقابهم في الدنيا ، والله يعلم ما هو عذابهم الأبدي في الآخرة .

وحول مجريات هذه الواقعة نقل العلاّمة المجلسي . أعلىٰ الله مقامه الشريف ، في كتابه (حياة القلوب) بسند معتبر عن علي بن يقطين ، أن المنصور الدوانيقي العباسي آمرَ يقطين أن يحفر بئراً في سر عبادي فأخذ يقطين عماله وأتباعه ، وراحوا يشتغلون في الحفر ، وبينما هم لا يزالون منهمكين في عملهم مات المنصور ، وخلّف إبنه المهدي العباسي ، لكنهم لم يبلغوا الماء بَعدُ ، وعندما أخبروا المهدي بأن لا أثر للماء ، فقال بالطبع يجب أن يستمر الحفر حتّىٰ نبلغ الماء ، ولو أنفقنا بيت المال كُلّه .

بعدها بعث يقطين أخاه أبا موسىٰ الذي كان مشغولاً بالحفر ، ليواصل الحفر مرة أخرى ، فظلّوا يحفِرون ، ويتعمقون حتى اكتشفوا فتحة في قاع الأرض ، وكان يهبُّ منها ريح شديد ، فأصابهم الذعر من ذلك ، فأطلعوا أبا موسىٰ بذلك . فجاء الأخيرُ إلىٰ عند البئر ، فقال لهم : أنزلوني إلى قعر البئر ، وكانت فتحة البئر واسعة حيث كانت أبعادها ٤٠ × ٤٠ ذراعاً ، فأجلسوه بالمحمل وشدُّوه بالحبال ، ثم أنزلوه إلى القعر ، وعندما وصل إلى القعر شاهد بعينيه منظراً هائلاً وعظيماً من تلك الفتحة وسمع من خلالها سفير الريح الشديد ، ثم أمر بتوسيع هذه الفتحة ، وحينما فعلوا ، أمر بأن يرسل رجلين بالمحمل إلى الأسفل ليطلعا على ما فيها ، ثم يعودا ويخبرانه ، وركبا المحمل وشدّا الحبل به وأنزلا إلى داخل الثغر تحت الأرض ، فمكثا هنيهة ثم رفع الحبل ، وصعد المحمل بهما إلى الأعلى ، وبدءا يتحدثان مذهولين عن أمور وأشياء عظيمة وعجيبة .

فقالا : شاهدنا رجالاً ونساءً وبيوتاً وأثاثاً وأواني كلها قد تحجّرت ، وكان الرجال والنساء مغطّين بثيابهم ، بعضهم جالسين وبعضهم نائمين على جوانبهم وبعضٌ علىٰ بطونهم ، وبعضٌ متكئاً ، فمررّنا أيدينا على أجسادهم فأنتشرت

ثيابهم كالغبار تذروه الريح ، وقد ظلت مساكنهم على ما هي ، فتعجب أبو موسىٰ لهذا الأمر ، وبعث بالخبر إلى المهدي العباسي فجمع العلماء وطرح عليهم الأمر ، كي يفسروه لهم ، فعجزوا عن ذلك ، وظلّوا حيارىٰ فيه .

وما كان إلّا أن لجاؤا لأهل بيت العلم والتقىٰ ، لإمام الهدىٰ في عصره ، الإمام موسىٰ بن جعفر عليه وعلىٰ آبائه أفضل الصلاة والسلام بعد أن طلبوه من المدينة إلى العراق فلما أبلغوه بالأمر وسألوه عنه بكىٰ (ع) كثيراً وقال (ع) : إنهم بقية قوم عاد ، قد غضب الله عليهم فدفنهم مع بيوتهم في الأرض ، إنهم أصحاب الأحقاف ، فسأله المهدي وما معنى الأحقاف ، فقال (ع) : الرمل (أو الكثبان الرملية) .

مصير (عاقبة) ثمود

﴿كذّبت ثمود بالنذر﴾ :

قوم ثمود هم أيضاً من المكذبين بالرسل أي إنهم كذّبوا جميع الأنبياء ومنهم نبيّهم صالح (ع) أو إنهم كذّبوهم بتكذيبهم نبيَّهم صالحاً أو ربّما إنهم كذّبوا نبيّهم صالحاً (ع) ومن ينوب عنه من الأولياء الذين انذروهم ووعظوهم كثيراً، ولعل المعنىٰ المراد بالنذر أيضاً النصح والمواعظ التي أسداها لهم صالح (ع) . فكذّبوها .

فبعد أن عرض الله سبحانه في كتابه المجيد قصص الموعظة والعبرة عما جرى لقوم نوح ، ومن بعدهم قوم عاد ، وسبب هلاكهم والكيفية التي دُمّروا فيها ، بيّن الله لنبيّه (ص) من خلال وحيه قصة ثالثة تتعلق بقوم ثمود ونبيّهم صالح لحصول المزيد من العبرة والتذكر والاتعاظ .

الأمة المرحومة :

لقد وُصفت أمّةُ نبيّ آخر الزمان بأنها الأمة المرحومة وأحد الأسباب التي دعت إلى هذا الوصف ، وهو كون أن الرحمة شملتها ذلك ، لانها أمّة نأتي متأخرة من حيث عمر الزمن المديد ، ولما لها من إطلاع وعلم عن تلك الأمم الغابرة التي سبقتها وما جرىٰ عليها من نزول بلاء وعذاب فاتخذت العبرة والموعظة وخرجت بالإيمان والتقوى كي لا يعمها البلاء الذي عمّ أولئك الذين سبقوها .

وجدير بالإشارة إلى أن قوم ثمود قد ذكروا في القرآن بأصحاب الحجر كما جاء ذلك في سورة الحجر .

ثمود بن سام ، وصالح نبيٌّ ذريته :

ثمود هم طائفة من العرب ، كانوا ساكنين بين الحجاز والشام ، وسمُّوا بثمود نسبة إلىٰ جدّهم ثمود ، وهو حفيد سام بن نوح وعرفوا أيضاً بأصحاب الحِجر ، والحجر هي إسم موطنهم وبلادهم التي كانوا يسكنونها .

وقد بعث الله لهم من أنفسهم نبيّاً يُدعىٰ صالحاً ، وفي رواية عن رسول الله (ص) مفادها أن الله تعالىٰ بعث صالحاً (ع) بالنبوة فكان عمره ستة عشر عاماً . وجاء في نفس هذه الرواية أن قوم صالح حينما بعث نبيّاً كانوا يعبدون ويُقدّسونَ سبعين صنماً ووثناً ـ من دون الله ـ وكان صالح ينهاهم عن عبادتها ، ويدعوهم إلى توحيد الله والعمل الصالح والتقوىٰ .

وظل هكذا يدعوهم وينصحهم ويعظهم تلك المواعظ البليغة حتّى مكث فيهم بدعوته وبعثته إليهم ستة وعشرين عاماً، فكانوا في جوابه ومعاملته قوماً جهالاً أجلافاً ، يواجهونه بوحشية وقساوة ، وقد أبتلي ومُحّصَ (ع) بهم ، وكانوا كقوم عادٍ في غرورهم وكبريائهم بما لديهم من القوة والمال .

كان تكبر قوم صالح أنهم كانوا يقولون له : ما أنت إلاّ بشر مثلنا ، فلأجل أي شيء تريد منّا أن نتّبعك ؟ ألأجل مال وفير وثروة طائلة تمتلكها ؟ أم إن لك شهرة وجاهاً كبيراً ؟

وعلى العموم فقد نسبوا إلىٰ نبي الله الكذب والإفتراء .

والنذر في قوله تعالىٰ : ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ وكما بيّنا سابقاً ، فهي إن كانت تعني الأنبياء ـ على قول بعض المفسرين ـ باعتبارها جمع لكلمة نذير ، وهو النبي ، وربما يسأل البعض أن النبي صالحاً (ع) هو شخص واحد ، وليس

أكثر ، فلماذا جاءت صيغة الجمع هنا ، فنقول في جواب ذلك : إن تكذيب نبيّ معناه تكذيب جميع الأنبياء الذين سبقوه ، فالذين لم يؤمنوا برسالة النبي صالح ، لم يؤمنوا في الحقيقة بكل الأنبياء الذين من قبله ، ذلك لأن هدفهم جميعاً وغايتهم واحدة ، ألا وهي توحيد الله سبحانه وتقواه وصلاح أنفسهم .

وإذا كان نذر جمعاً لكلمة إنذار ، فالمعنىٰ يكون أن القوم لم يكونوا يأبهون بنذر نبيّهم وتحذيراته إياهم من غضب الله بل ، وكانوا يكذبونه ويستهزؤون به .

ثم ينتقل السياق ليعكس أبرز صورة كانوا يجادلون بها نبيّهم ليكذبوه : **﴿فقالوا أبشراً منّا واحداً نتّبعه إنّا إذاً لفي ضلال وسُعر﴾** .

فصالحُ (ع) يقول لهم إنكم إنْ لم تتبعوني فستلاقون العذاب الإلٰهي ، فيجيبونه : إننا إن تَبعناك فنحن إذن في تيهٍ وضلالٍ وجحيمٍ .

فهؤلاء ، والجاهلون الحمقىٰ تذرّعوا في رفض دعوته إياهم بثلاث ذرائع واهية .

أولاها : إن النبي بتصوراتهم الجاهلية لا يجب أن يكون من جنس بني الإنسان ، ربما يجب أن يكون ملكاً من الملائكة .

والذريعة الثانية : إن إنساناً عاش بيننا منذ صغره كيف يمكن أن يصبح نبيّاً ؟

أما الذريعة أو الايراد الثالث : هو أن صالحاً عاش وحيداً ، وليس له شهرة أو جاه يُعرف .

وللإجابة على ذرائعهم أو إيرادتهم الثلاث الآنفة نقول :

أولاً ـ لو فرضنا أن النبي يكون ملكاً ، ترىٰ هل سيستسيغ الإنسان ذلك ، أم إنه سيشعر الرعب والخوف منه ، لأن الملك من غير جنسه ، فالإنسان من

طين والملك من نار ، فكيف سينسجمون ويأنسون به ويخالطونه ويجالسونه ؟ وذلك خلاف الفطرة التي فطر عليها الإنسان .

ومن ناحية أخرىٰ : إن الملك لا طاقة له في الصبر وتحمل لحظةً واحدة ترتكب فيها الآثام والمفاسد ، فضلاً عن الشرك والعصيان الذي يصدر من بني الإنسان .

وقد عبرت عن ذلك الملائكة حين خلق آدم فاعترضت ، قائلة قبل بيان الله سبحانه : ﴿**أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويَسفكُ الدماءَ ونَحنُ نُسبّحُ بحمدكَ ونُقدّسُ لك قال إنّي أعلم ما لا تعلمون**﴾[1] ، وفي سورة الأنعام المباركة يجيب ربّ العالمين على مثل ذرائع هؤلاء الواهية فيقول تعالى : ﴿**ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون**﴾ .

هذا فضلاً عن أن الملك من جنس آخر ، كما قلنا ومن عالم آخر حتّى أن الإنسان لا طاقة له على رؤيته ومشاهدته فكيف بمجالسته ومعايشته ومحادثته . والملائكة لا يمكن ان تشهدها إلاّ العيون البرزخية والملكوتية وذلك مما لا يتحقق للإنسان إلاّ بعد الموت كي يكون قادراً علىٰ إبصار الملائكة (وبالطبع ليس بالعين المادية التي هي عندنا الآن) .

إن أربطأ البشر جأشاً ، وأكثرهم قوةً روحيةً ومعنويةً ، ونعني به خاتَم الأنبياء محمد (ص) لم ير جبرائيل سوىٰ مرتين بصورته الحقيقية ، ومع كل قوته الروحية العظيمة فانه (ص) قد أُغمِيَ عليه في كل من هاتين الرؤيتين ، أما في غير هاتين الرؤيتين ، فان جبرائيل لم يكن حين يهبط عَلى النبي ، في صورته الحقيقية ، بل كان يأتيه بهيئة مصغرة ، ومع ذلك ، فان لنزوله هذا ثقلاً علىٰ النبي (ص) يأخذ منه مأخذاً .

وكذلك حين هبط الوحي على مريم بنت عمران عليها السلام ، وكيف

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

نفخ فيها ، فان جبرائيل الأمين الذي يعبر عنه القرآن بروح القدس قد هبط إليها بصورة إنسانٍ صالح ﴿فأرسلنا إليها روحَنا فتمثّل لها بشراً سويّاً﴾ .

الإيمان بالغيب :

بغض النظر عن كل ماسبق من الأجوبة على الإيراد الأول، نقول هذة المرّة: إنه لو اتفق أنّ الرسول أصبح من جنس الملائكة، ترى ما أهمية الإيمان بالغيب إذن ؟ وذلك حينما يعلم الإنسان أن نبيّه ملك جاءه من عالم الغيب ، فقد تكشف له كل شيء إذن ، ولم يعد للغيب معنىً يذكر إذن أو فائدة ترتجىٰ ، وإن أحد الأهداف من خلق هذا الإنسان المختار هو الإيمان بالغيب وبه يُثاب الإنسان ويُجازى بالنعيم ، وكما يقولون : إن الجدير هذا الذي يشترىٰ ما لم يره .

التوبة أثناء الموت :

جاء في الحديث الشريف عن رسول الله (ص) ما مفاده : « إن التوبة مقبولة قبل إنكشاف الغطاء من أمام العين (قبل ان يُعاين) أي قبل ان يرفع الحجاب عن عينيه ويشاهد ملك الموت ، ثم ينتبه ، وبالطبع فلا فائدة من التوبة ترتجى في تلك الساعة التي ينكشف أمامه كل شيء ، كفرعون فحين أدركه الغرق ﴿ قال آمنت بالذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين﴾ .

فلطمه ملك الموت على فاهُ وقال : ﴿الآن وقد عصيت قبلَ وكنت من المفسدين﴾ .

علىٰ العموم يتضح لنا من كل ما مضىٰ أن هؤلاء كانوا يبحثون عن ذرائع وأعذارٍ واهية كي لا يؤمنوا ، ولو فرضنا أن الرسول المبعوث إليهم كان نبيّاً ، فسوف يتذرعون بذات الذريعة ، ولكن على العكس منها ، أو بذرائع أخرى تماثلها كي يبقوا على شركهم وضلالهم .

النبي يجب أن لا يكون من مستوانا :

وهذه هي ذريعتهم الثانية ، فالنبي بنظرهم يجب أن لا يكون من بينهم وخاصة مثل صالح الذي عاش بين ظهرانيهم منذ صغره ، فقالوا : ﴿أبشر منّا﴾ فبنظرهم « كيف لإنسان عرفوه منذ صغره ، وهو من قبيلتهم أن يُبعث لهم بالرسالة والنبوة ؟ » إنهم يقولون : نحن وصالح سواء فلا يمكن له أن يصبح نبيّهم ، وبزعمهم أن النبي لو كان من جنس الإنسان لافتُرض أن يأتيهم من مكان آخر .

نبيٌّ يفتقدُ المال والجاه والعشيرة ! :

وهذه هي ذريعتهم أو إيرادهم الثالث الذي أشكلوا به على صالح (ع) فقالوا وبنص الآية الآنفة : ﴿واحداً﴾ أي إنه وحيدٌ بيننا ، فمن هو حتىٰ نتبعه ونقتدي به ؟ فالنبي كما يزعمون يجب أن يكون له أعوان وجهاز يمكنه في مهمته ، وأن يوجد له موالون وأنصار كثيرون ، وعائلة وعشيرة ، مرموقة معروفة ، حتى يكون أهلاً للاتباع والإقتداء !!

فهؤلاء البلهاء الحمقىٰ يتصورون أن النبوة كالرئاسة الظاهرية المتعارفة لديهم ، وقد غفلوا ونسوْا أن الدين والأمور الروحية لا علاقة لها بأشياء كهذه من مثل المال والجاه والسلطة ، إنهم لم يعرفوا أن الدين والقضايا الربانية هي أمور أخرىٰ .

فموسىٰ بن عمران (ع) كان راعي غنم ، ولا يملك إلاّ عصاه وثياب الرُّعاة ، وحذاءه القروي « الجيوة » وحينما جاءه الأمر الإلٰهي أن اذهب إلى فرعون وآدْعه إلىٰ الإيمان فكلم ربَّه ، وقال : إلٰهي إنني وحدي وبهذا الوضع الذي تراني ، فكيف أُدخل على فرعون ، فجاءه النداء الإلهي : « لو شئنا لزيّناك بزينة لا تجدها في كل خزائن فرعون ، ونحن قادرين ، فاذهب كما أنت عليه فان زينتك التقوىٰ » .

وفعلاً فقد ذهب بذلك المظهر القروي ، بثياب الرعاة ودخل على فرعون في بلاطه وجرىٰ ما جرى ، فكانت العاقبة له وسوءها وخذلانها لفرعون الذي غرق وجنده في اليّم وزال سلطانه وطغيانه من الوجود .

التسليم بين الجبر بالقوة وبين الإختيار :

لو جرىٰ التصميم أن يكون للأنبياء جهاز يدبرون به شؤونهم ، وقوة يعتمدون عليها لكان على الناس أن يؤمنوا بالقوة ، ولا مفر لهم من ذلك ، وهذا ما يتنافىٰ وفطرة الإختيار ، وحريته التي فُطر الإنسان عليها ، يقول أمير المؤمنين عليٌّ (ع) في خطبة له وردت في نهج البلاغة : « ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيثُ بعثهم أن يفتح لهم كنوزَ الذُهبان ومعادن العِيقان ومغارس الجنانِ وأن يحشر معهم طيورَ السماء ووحوش الأرضين لفعَلَ ، ولو فعَلَ لسَقط البلاء ، وبَطَلَ الجزاء ، وآضمحلت الأنباء ، ولما وجب للقابلين أُجورُ المبقلين ، ولا آستحقّ المؤمنون ثواب المحسنين ولا لزمت الأسماء معانيها ، ولكن الله سبحانه جعل رُسلَه أولي قوة في عزائمهم وضعفةً فيما ترىٰ الأعينُ من حالاتهم ، مع قناعةٍ تملأ القلوب والعُيُونَ غنىً ، وخصاصةٍ تملأ الأبصارَ والأسماعَ أذىً » .

إن الله سبحانه لم يشأ أن يؤمن الناس بالجبر والإكراه فيعبدونه ويسجدون له تحت ظل السيف ، فلو كان القيام والركوع والسجود بالجبر والإكراه ذا قيمة تذكر ، لكان الثواب أولىٰ لذوات الأربعة أقدام ، فهي طائعة دائمة الركوع ، ولكانت الزواحف والحشرات أولىٰ بذلك أيضاً ، لانها في سجود دائم ، وأما بالنسبة للقيام فلكانت النباتات أولىٰ لانها قائمة على الدوام أمام عظمة الله .

إنما يريده الله سبحانه من البشر هو الإيمان والطاعة والعبادة بالطوع ، ومن صميم إرادتهم وعن قناعة تامة منهم ، وذلك هو الإختيار الذي خصّه ، إنه سبحانه يريدنا مثل أولئك الذين بامكانهم ان يتركوا الفرائض والطاعات الإلٰهية ، لكنك تجدهم صافّون الأقدام في جوف الليل يسبحون بحمده ، ويقدسونه

ويدعونه ويناجونه ، ويستغفرون لذنوبهم ويعتذرون عما بدر منهم ويطلبون عفوه سبحانه ، بقلوب منكسرة خاشعة وعيون باكية دامعة ، أولئك الذين يصفهم تعالىٰ في كتابه المجيد فيقول عنهم : ﴿**تتجافىٰ جنوبُهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطمعاً**﴾ .

نعود إلى حديثنا السابق ونقول : إن الذي كان قوم صالح يستشكلون به عليه ، ويتذرّعون بأنه وحيدٌ ، هو خطأ في تصوراتهم بأن النبوة والسلطة يجب النظر إليهما بأنهما حقيقة واحدة ، فلذلك كانوا يردّون عليه بذرائعهم هذه ، ويقولون : إننا لو سمعنا حديثك واتّبعناك ، فان ذلك يعني ضلالنا وضياعنا ، ودمار مصائرنا ، واحتراقنا في نارك . وهذا هو معنىٰ قولهم : ﴿**إنّا إذاً لفي ضلال وسُعر**﴾ .

وقيل في كلمة « السعر » : إن المراد منها أيضاً الجنون على تفسير البعض .

فقد عكسوا كلمات نبيّهم ، فهو يقول لهم : إنكم إنْ لم تتبعوني فأنتم إلى تيه وضلال ودمار ، فيعكسون القول عليه ، ويقولون : لو أخذنا بحديثك لكُنّا إلىٰ تيه وضلال وجنون .

﴿ ءأُلقي الذكر عليه من بيننا ﴾ :

أي هل إنه الوحيد الذي أوحي إليه من جمعنا فأرسل نبيّاً ؟

وكلمة الذكر هنا تحمل معنى أعمّ ، وأكثر شمولية ، فهي تعني الكتاب السماوي والوحي الإلهي ، والأحكام الرسالية والتشريعات الرّبانية .

إنهم يعنون بقولهم هذا إن في جماعتنا وعشائرنا أشخاصاً كفوئين شأنهم أعلى بكثير من شأن صالح (ع) بما لهم من المال والجاه والشهرة ، ترى لماذا لم ينزل الذكر عليهم ؟ وهم أولىٰ به بحسب تصورهم ؟

﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ :

وهنا ينسبون لنبي الله تهمتـان ـ والعياذ بـالله ـ من التهم الكبيرة العجيبـة فمرة يقولون له : كذاب ، ومرة يقولون له أشر ، أي أنـاني وطالب جـاه يدعـو لنفسه وحسب ، يقولـون عنه الآن كـذاب ، وفي الأمس ، وقبل أن يُكلّف من الإله الواحد بدعوة الناس إلى التوحيد كانوا يعرفونه بالصدق والأمانة والصلاح . أمـا الآن وقـد دعـاهم إلى الله ، وصـلاح ذات بينهم ، وتـرك عبـادة الأصنـام والأوثان ، فانه أصبح بنظرهم كذاباً ، « والعياذ بالله » لأن المسألة قد آصطدمت بمصالحهم وشهواتهم . وهذا شأن جميع المشركين والكافرين على مرّ التاريخ البشري فهم ينسبون التهم والإفتـراءات للأنبيـاء والأولياء والصـالحين ، حينما يجدون مصالحهم وشهواتهم وأهوائهم تعرّض للخطر ، وهم في قرارة أنفسهم يعرفونهم جيداً بالصدق والتقوى والصلاح ، وكل صفات الخير النبيلة ، لذلك لم يكن الأمر قريباً بالنسبة لرسول الله وخاتم الأنبياء محمد (ص) فكانت قريش الشرك والضلال تعرفه قبل إشراقة نور رسالته على العالم وبعثته بالرحمة للبشرية المعذبة ، بالصادق الامين أليس كذلك ؟

ولكنه (ص) وبعد تلك الساعة المباركة ، ساعة بعثته ودعوته إلى التوحيد ونبذ الشرك ، أصبح (والعياذ بالله) في ليلة وضحاهـا بنظرهـم كـذاباً وسـاحراً وشاعراً ومجنوناً .

ورسول الله (ص) نبي مرسل عرف قومه جيداً ولذلك حين دعاهم جاءهم من حيث يأخذ الاقرار منهم ، وبأسلوب يسدّ عليهم طريق الإتهام ولو أنهم فعلوا ذلك معه ولم يأبهوا ، فقد جمع الناس ، وقال لهم . ما يفيد : أيها الناس لـو أخبـرتكم أن عدوّاً بـات مغيـراً عليكم لينهب أمـوالكم أتُصـدقـونني ؟ فقـالـوا بـأجمعهم نعم يا محمـد نحن لك مصـدّقـون لأننـا لا نعلم منـك إلاّ الصـدق والأمانة ، وهكذا أقروا له بذلك ، عندها ، قال لهم : أيها الناس إني أُنـذركم من عذاب الله لانكم تشركون بالله ، فقولوا لا إلـه إلاّ الله تفلحوا . فمـاذا كان

الجـواب يا تـرىٰ ؟ الجواب كـان أن كالـوا تلك التهم الباطلة التي تقشعـر لها الأبدان عندما تُسمع منسوبةً إلى خير خلق الله أجمعين ، وأول جواب باطل كان من أقرب الناس إليه ألا وهو أبو لهب حيث حمل عظماً وحجارةً ورماه بهمـا ، لذلك كان هذا اللعين مستحقاً للّعن والعذاب حيث نـزل بحقه ﴿تبّت يـدا أبي لهب وتَبَّ﴾ .

ثم جـاء الجواب الثـاني من رأس جلفٍ آخـر من القـوم ، ألا وهـو أبـو جهل ، فقال والعياذ بالله « إنه مجنون » ثم أجاب البقية علىٰ منوالهما ، فمنهم من رمـاه بالحجـارة ، ومنهم من رماه بتلك التهم البـاطلة من كذب وجنـون ، وسحر وماشابه ، بعد أن كان عندهم قبل لحظات الصـادق الأمين ، وبعد أن أخذ الميثاق منهم بالصدق والأمانة ، قبل دعوته إياهم .

فالأمر ليس غريباً ذلك لان الرسل والأنبياء الذين سبقوه (ص) كـانوا قـد لاقوا من التهم والإفتراءات من مثل ذلك ، وهذا صالـح (ع) أحدهم ، فقـالوا عنه : كذاباً ، ثم قالوا : أشداً ، أي إنه يدعو لنفسه بدافع الأنانية ، إنه يطلب الجاه والشهرة والمكانة والرفعة على القوم ، يريد ان يصبح إلٰهاً علينا وسلطانـاً يجلس على العـرش ويتأمـر علينا ، بينمـا كان (ع) ، شـأنه شـأن كـل الأنبيـاء والرسل (ع) ، زاهداً في الدنيا عابداً منقطعاً إلى الله لا شأن ولا طمع له بالجاه والرئاسة والدنيا وزخارفها والمال والثروة ، وإن أردت أن تعلم وتطلع على شيء من زهـد الأنبياء فهـذا أميـر المؤمنين عليّ (ع) يصف لـك جـانبـاً من حيـاتهم وزهدهم وتقواهم في وصفه وخطاباته العظيمة التي وردت في نهج البلاغة ، فهو مثلاً يصف موسىٰ بن عمران (ع) ويقول : « واللهِ ، ما سألَهُ إلاّ خبزاً يأكلُهُ ، لأنه كان يأكلُ بقلَةَ الأرض ، ولقد كانت خضرةُ البقل ترىٰ من شفيفِ صِفـاقِ بطنهِ لِهُزالِهِ وتَشَذُّبِ لحمِهِ » .

ومرة يصف عيسىٰ ابن مريم (ع) فيقول عنه : « فلقد كان يَتوسَّدُ الحَجرَ ويلبسُ الخَشِنَ ويـأكـلُ الجَشبَ ، وكـان إدامُـهُ الجـوعَ وسـراجُـهُ بـالليـل

القمر ، . . . . ، ولم تكن له زوجةٌ تَفتِنَهُ ولا ولد يحزنُهُ ، ولا مالٌ يلفتُهُ ولا طَمَعٌ يُذلُّهُ ، دابّتهُ رجلاهُ ، وخادمهُ يداه » .

حياة محمد (ص) في نهاية الزهد :

روي عن رسول الله (ص) ما يفيد إنه رأىٰ في غرفة إحدىٰ زوجاته ـ وفي ذلك يقول الإمام علي (ع) ـ « ويكون السّترعلىٰ باب بيته فتكون فيه التصاوير فيقول : « يا فلانةُ ـ لإحدىٰ زوجاته وهي عائشة ستارةً جميلةً ـ غيبيه عنّي ، فإني إذا نظرت إليه ذكرت الدنيا وزخارفِهَا » .

وعنه (ص) يقول أمير المؤمنين علي (ع) : « هضم أهل الدنيا كشحاً وأخمصُهُم من الدنيا بَطناً عرضت عليه الدنيا فأبىٰ ان يقبلَها . . » .

ثم يقول (ع) : خرج من الدنيا خميصاً وورد ٱلآخرة سليماً لم يضع حجراً على حجر حتّىٰ مضىٰ لسبيله وأجاب داعيَ ربّه .

إن رسول الله (ص) كان نحيفاً ، وربّما أضعف من كل أهله ، وأصحابه ، وكان من حيث التواضعِ والبساطة من أكثر الناس تواضعاً وبساطةً ، وكل الأنبياء كانوا كذلك كلٌ بحدود نفسه وموقعه ، بينما نرى هؤلاء الجهلة يصفون صالحاً (ع) بأنه يدعو إلى نفسه بالرئاسة والسلطة .

يسمون الغير بما فيهم من عيوب

ربما أثبتت التجارب والممارسات الحياتية هذه الحقيقة ، وهي أن بعضاً من الفُجّار الفسقة يتهمون وينسبون إلى الغير العيوب والصفات الرذيلة البذئية الكامنة في أنفسهم ، ومثل ذلك كان قوم ثمود ، فلأنهم ذوو كبرياء وعجرفة وغرور وكل طموحاتهم هي في طلب الجاه والشهرة لأنفسهم ، لذلك تجدهم ينطلقون في اتهام نبيّ الله مما هو في أنفسهم من هذه العيوب لذلك نجد في السياق التالي : إن الله يُوبخهم أشدَّ توبيخ متوعداً إياهم .

﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشر﴾ :

والمراد من قوله تعالىٰ ﴿غداً﴾ على قول بعض المفسرين إنه يوم القيامة أو على قول البعض الآخر إنه يوم وقوع العذاب ونزول البلاء .

فمهما كانت تُهمهم وافتراءاتهم وتكذيبهم لنبي الله ، فانهم سيعلمون عاجلاً ، وحينما يرفع الحجاب عما كانوا يقومون به من عمل وما كان في أنفسهم من واقع الغرور والكبرياء حينما يجدون أنفسهم أدنىٰ وأضعف من النمل فبعد كل ذلك الكبرياء والغرور وبقدر ما كانوا عليه سيلمسون ذلةً وصغاراً ومسكنةً في أنفسهم وعندئذٍ سيدركون من هو الكذاب ومن هو الأشر الحقيقي .

آية الناقة « ناقة صالح » :

ثم ينتقل السياق إلىٰ المحاججة التي طرحها عليهم نبيهم ليُعلمَ من هو علىٰ حق ممن هو على باطل فيقول تعالى : ﴿إنّا مرسلوا الناقة فتنةً لهم فارتقبهم وآصطبر﴾ .

تفيد الرواية التي ينقلها العلاّمة المجلسي بسند متواتر متصل عن خاتم الأنبياء (ص) أن صالحاً (ع) وبعد أن مكث في قومه يعظهم ويدعوهم ويُحذّرهم منذ بعثته وهو في سن السادسة عشرة إلىٰ أن مضت مئة وعشرون سنة ، فلم يكن جوابهم له سوىٰ الرفض والإتهام والتكذيب لرسالته ودعوته ، بالإضافة إلى ما كان يصحب موقفهم هذا منه ، من أنواع الأذى والإضطهاد ، فضاق صدره منهم بعد كل تلك السنين من الصبر والتحمل حتى جاءهم يوماً ليُلقي الحجة الأخيرة عليهم عسىٰ ان يؤمنوا به ويذروا عباده الأصنام من دون الله .

فقال لهم : أيها القوم تعالوا نعمل أمراً من أمرين ، فامّا أن أطلُب حاجةً من آلهتكم هذه التي تعبدون فان قضتها لي فسأتخلّى عن دعوتي إياكم وأعتزلكم ، وإن لم تستجب لي فاطلبوا عندئذٍ أنتم مني حاجتكم وسأسأل ربّي

إياها لكم ، فان أعطاكموها فما عليكم إلاّ ان تعبدوه إلٰهاً واحداً وتـذروا عبادة الأصنام .

فاستحسن قومه فكرته وقالوا له : لقد أنصفتنا الآن ، فقبلوا بفكرته ، فان شئت فادعو آلهتنا كي تعطيك ، وعيّنوا لذلك يوماً وهو يوم عيـد من أعيادهم ، وخرجوا في فجر ذلك اليوم لتعظيم آلهتهم . وتقديسها وحثها على الإستجابـة لصالح ، فحملوها معهم إلىٰ الصحراء وأخذوا يدورون حولها ويرقصون من أول الصباح إلى ما بعد الظهر ،وكانت تلك مراسم تعظيم آلهتهم وإرضاءها عنهم ، فبعد أن كرموها بالمدح والثناء على طريقتهم الخاصة ، توجهوا نحوها راكعين وساجدين ينـادون : أيّتها الآلهـة هذا اليـوم هو يـومُك الـذي تنصُرينـا فيه ولا تُخزِينا ، هو ذا صالـح يدعـوك فآستجيبي لـه ، ثم فسحوا المجـال للنبي كي يطلب حاجته ، وهو لم يطلب شيئاً فراح يناديها ، فان أجابته فسيطلبُ منها مـا يشاء ، فجاء صالح (ع) أمام كبير الآلهة « الصنم الأكبر » فناداه بآسمـه بصوتٍ عالٍ ، فلم يسمع أحدٌ جواباً ، ثم اقترب منه وناداه مرةً أخرىٰ ، فلم يسمع هو ولا القوم جواباً غير الصمت ، ثم التفت إليهم قائلاً : ها أنتم ترون ، فلا إلٰهكم الأكبر هذا ولا غيره يسمعُ ، فجاء القوم برؤسائهم ونَحّوْا صالحاً جانباً ثم آقتربوا إلى آلهتهم فخرّوا سُجداً لها ومرّغوا وجوههم بالتراب الـذي تحتها ، يـبكـون ويتضرعون لها أن يا أيتها الآلهة احفظي ماء وجوهنا أمام صالح ولا تُخيبنا وظلوا علىٰ ذلك هُنيهات حتّىٰ فرغوا من ذلـك ، وجاؤوا لصـالح ، وقـالوا لـه آذهب وآدْعُها الآن فجاء وفعل كما فعل أول مرةً فراح يصيح وينادي ، ولا من جواب يُسمع ثم لم يكتف القوم بما تضرعوا لها واكرموا فآقتربوا منها ثـالثة ، وراحـوا يـدعونهـا ويتوسلون ويتضـرعون ويبكـون أضعـاف المـرة الأولى ، ثم فسحـوا المجال لصالح ثالثة فلم يسمعوا جواباً وهكذا حتّىٰ مضىٰ النهار ، وعجزوا هم أيضـاً من كثـرة البكـاء والتضـرع ولا من نتيجـة ولا جـواب يُبـطلون بـه دعـوة صالح (ع) .

فالتفت إليهم صالح (ع) ، وقال لهم ها أنكم ترون آلهتكم لا تسمع ولا

تنطق . والآن جاء دوركم فاطلبوا مني ما شئتم لأسأل ربي فيأتيكم به فـاختاروا من قومهم سبعين شخصاً من كبرائهم وأشرافهم ، وقالوا له : هؤلاء من أنفسنا فآستجب لهم بما يـطلبون ، ونحن هنـا معك ، فـان آتيتنا بمـا يطلبـون فنحن مؤمنون لك ، فكرّر صالح عليهم العهد والميثاق ، وأكد عليهم قائلاً : هل إن ما يطلبه هؤلاء هو طلبكُم ، وإن كان ذلك ، أأنتم مؤمنون ؟

فقالوا له : بلىٰ نحن مؤمنون لك إن آتيتنا بـه ، بعدهـا اجتمع السبعـون ليتشاوروا فيما يطلبونه منه ما يُظهر عجزه وتلكأه ، فوقع رأيهم على أمر مستحيل في عقيدتهم وخارق للسنن ، فطلبوا من صالح أن يأتي عند جبل يخلو من أي فتحة أو شق ، فجاؤوا عند هذا الجبل، وقالوا لصالح (ع) : أُدعو لنـا إلٰهك أن يتمخض هذا الجبل عن بعير أولاً ، وان يكون البعير ناقة ثانياً ، وأن يكون لها وبر أحمر ثالثاً ، وأن تكون مليئة بالوبر رابعاً ، وأن تكون ماخضاً حامـلاً بعشرة أشهر خامساً ، وسادساً وأخيراً أن تكون كبيرة بحيث أن بين سناميها مسافة ميل طلبوا منه ذلـك بشرطـه وشروطـه ، وهم لا يصدقـون أن شيئاً كهـذا يمكن أن يحصل .

نعم فهم لا يعلمون أن أمراً كهذا ، أو ربما الأكثر إعجازاً منه لا يُعد شيئاً أمام قدرة الحق تعالىٰ ، ومقابل أمره سبحانه وكافه ونونه ، - (كن) - ، سـواءً كانت الولادة من حيوانٍ أو جبلٍ أو صخرةٍ أو شجرةٍ ، بـل ربما نسـوْا أنهم لم يكـونوا سـوى نطفٍ نتنـة أودعت في أرحام أمهـاتهم فـأصبحـوا بعـدهـا بتلك الهياكل ، وعلى أحسنِ هيئة ، ترى أقليل ذلك ؟ فذات كيفية الخلق والتكوين والنمـو والتطور تُـرىٰ أهي قليلة وهينة إلاّ عنـدَ الله لو أُخـذت بنـظر الإعتبـار ؟ والعظمة لله .

على أية حال ، فـان ذلك مقـابل القـدرة الإلٰهية لا شيء ولا فـرق سواءً بالخلقة الطبيعية المألوفة امّ بالإعجاز .

« ولادة الجبل » :

وكان للقوم ما أرادوا وطلبوا ، وبكل ما آشترطوا ، بعد أن دعا صالح (ع) ربّه وتوجه نحو الجبل الذي أطلق صوتاً وبشكل مفاجىء كأنه استغـاثة الحبلىٰ المـاخض التي يأتيهـا الطلْق ، ثم انفلق الجبـل وآمتدَّ رأس النـاقة منـه ، ولم يكتمل خروج جسم النـاقة بعـد حتّى بدأت بـالاجترار ، ثم خـرجت بأكملهـا وبـالمواصفـات والشروط الستـة التي اشترطـوهـا ، خـرجت من بـطن الجبـل المـاخض ، نـاقـة مثلهُ مـاخض ، وبحمـل ذي العشـرة شهـور فـالتفت إليهم وقال (ع) والآن ماذا تقولون ، فانبهروا وأُذهلوا مما رأوه ثم التفتوا إليه يطلبـون طلباً آخر ، وهو أن يطلب من الناقة ان تلد ، فدعا الله سبحانه ، فألقت حملها علىٰ الفـور ، ثم التفت (ع) إليهم ثانيـةً وقال لهم : والآن هـل أنتم مؤمنون ؟ فآمن السبعون بأجمعهم وقالوا آمنا بك وصدّقناك ، فقال لهم : إذن اذهبوا إلى قومكم ، وقولـوا لهم : كل مـا شهدتُم حتّىٰ يؤمنـوا ، وبينما هم عـائدون إلىٰ أهليهم وقومهم في طريقهم آرتدّ منهم أربعة وستون عن إيمانهم وميثاقهم الذي واثقوا به ، وقالوا إنه السحر سحرنا به صالح ، وبقي ستة منهم مؤمنين على ما عاهدوا عليه .

(قصة صالح وثمود) . كما جاء في شرح ابن أبي الحديد الجزء العاشر ص٢٦١ .

« إن عاداً لما أهلكت ، عمرت ثمودُ بلادها وخلّفوهم في الأرض وكثروا وعُمّروا أعماراً طوالاً ، حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهـدم في حياته ، فنحتوا البيوت في الجبال ، وكانوا في سعةٍ ورخاءٍ من العيش فعتوْا علىٰ الله وأفسدوا الأرض وعبدوا الأوثان ، فبعث الله إليهم صالحاً ، فما آمن به إلاّ قليـل ، فهم ست ضعفون ، فحـذرهم ، وأنذرهم فسـألوه آيـةً ، فقال أيـة آية تـريدون ؟ قـالوا تخـرج معنا إلى عيـدنا ، فتـدعو إلٰهـك وتدعـو آلهتنا ، فـان إستُجيـب لك آتّبعناك ، وإن استجيب لنا آتّبعتنا ، قـال : نعم ، فخرج معهم

ودعوْا أوثانهم وسألوها الإستجابة ، فلم تجب .

فقال سيدهم جندع بن عمر - وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يسمونها الكاتبة : « أخرج لنا من هذه الصخرة ناقةً مخترجةً جوفاء وبراء ، فأخذ عليهم المواثيق ، لئن فعلتُ ذلك لتؤمنُنَّ ولتصدّقُن ؟ قالوا : نعم ، فصلىٰ ودعا ربَّه ، فتمخضت الصخرة تمخُضَ النَّتوج بولدها فَانصدعت عن ناقةٍ عُشراء ، جوفاء وبراء ، كما وصفوا ، لا يعلم ما بين جنبيها إلاّ الله ، وعظماؤهم ينظرون ، ثم نُتجت ولداً مثلها في العظم ، فآمن به جندع ورهط من قومه ، ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا ، فمكثت الناقة مع ولدها ترعىٰ الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترد غُبّاً ، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتّىٰ تشرب كل ماءٍ فيها ، ثم تتفجّج ، فيحتلبون ما شاؤوا، حتّىٰ تمتلأ أوانيهم فيشربون ويدّخرون .

فإذا وقع الحرُّ تصيفت بظهر الوادي ، فتهرب منها أنعامُهم ، فتهبطُ إلى بطنه ، وإذا وقع البردُ تشتّت ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق ذلك عليهم . وزيّنت عقرها لهم امرأتان : عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار لما أضرت به من مواشيهما ، وكانتا كثيرتي المواشي ، فعقروها ، عقرها قدار الأحمر ، وقسموا لحمها وطبخوه ، فانطلق سقبها[1] حتّى رقىٰ جبلاً آسمه قارة ، فرغا ثلاثاً ، وكان صالح قال لهم : ادركوا الفصيل عسىٰ أن يرفع عنكم العذاب ، فلم يقدروا عليه وآنفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها ، فقال لهم صالح : تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة ، وبعد غدٍ وجوهكم محمرّة واليوم الثالث وجوهكم مسودّة ، ثم يغشاكم العذاب .

فلما رأوْا العلامات الثلاث طلبوا أن يقتلوه ، فأنجاه الله سبحانه إلىٰ أرض فلسطين ، فلما كان اليوم الرابع وارتفعت الضّحوة ، تحنّطوا بالصبر ، وتكفّنوا

---

(١) سقبها : ولد الناقة .

بالأنطاع ، فأتتهم صيحةٌ من السماء وخسف شديد وزلزال فتقطعت قلوبهم فهلكوا » [1] .

إنّا مرسلوا الناقة فتنةً لهم :

إنا بعثنا وأخرجنا هذه الناقة من الحجر كي نُمحصهم بها ونمتحنهم .

والفتنة بمعنىٰ الإمتحان والتمحيص ، وبالفعل فأي امتحان كان !

﴿فارتقبهم﴾ ، أنظر إليهم ماذا يصنعون مع هذه الناقة ، فانها علامة إلٰهية كيف سيتصرفون معها ، وماذا سيفعلون بها ، والحقيقة إن كل الموجودات والمخلوقات مدينة لوجودها وخلقها لله سبحانه ، لكن هذه الناقة شيء آخر ، فهي ليست عادية ، خلقت بالمعجزة وأي معجزة ، إنها معجزةٌ غايةٌ في الغرابة والعَجَب ، إنها علاقة خاصة في الإيجاد والتكوين المعجز .

﴿وآصطبر﴾ فاصبر عليهم حتى تعلم ما يكُنّون في أنفسهم وتتضح لك حقيقتهم .

تناصف ماء العين :

كان لقوم ثمود عين ماءٍ غزيرة يستسقون منها الماء كل يوم فجاء الأمر الإلٰهي أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة ، يوم لهم يستسقون من العين لهم ، ولأنعامهم ، ويوم للناقة تشرب منه ، فكانوا يفعلون كما أُمروا ، فتأتي الناقة في يوم فتشرب ماء العين كُلَّهُ ، وبدلاً من ذلك تعطيهم اللّبن السائغ يشرب القوم منه جميعهم حتّى لا يبقىٰ أحدٌ منهم لم يشرب منه ، في ذلك اليوم ، ثم تغادر

---

(١) وقد جاء في الحديث أن رسول الله (ص) مرّ بالحجْر في غزوة تبوك ، فقال لأصحابه : « لا يدخُلَنَّ أحدٌ منكم القرية ولا تشربوا من مائها ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلاّ أن تمرّوا باكين أن يُصيبكم مثل ما أصابَهم » .

إلى مرتعها وفي اليوم التالي يأتي القوم إلىٰ العين التي تمتلأ ثانية ، فيشربون منه ، ويأخذون منه حاجتهم ويسقون أنعامهم . وفي ذلك يبين السياق هذه القسمة فيقول تعالىٰ : ﴿ونبّأهم ان الماء قسمةٌ بينهم كُلُّ شرب محتضر﴾ أي أطلعهم بأن الماء قد قسم بينهم وبين الناقة ، يوم لهم ويوم لها .

﴿كل شربٍ محتضر﴾ أي إن النّهل من الماء يكون بشكلٍ دوزي أو بالنوبة وكلمة محتضر جاءت لتُخصّ تقديراً محذوفاً ، وهو كلمة (صاحبه) أي (محتضرٍ صاحِبَه) أي الناقة والقوم ، كلّ بدوره ينتفع من ماء العين .

وآستمر القوم علىٰ هذا المنوال مدةً من الزمن ، يوم تأتي الناقة وتشرب كل الماء وتعطي اللّبن عوضاً عنه ، ويوم يأتي القوم يشربون ويسقون أنعامهم ، حتى أخذ البعض منهم يتمرّد بعد فترة ويحتج بالقول بأي حق ، ولأي شيء تأتي هذه الناقة وتشرب كل ماء العين .

ومن ناحية أخرىٰ ، وكما ورد في الروايات ، فان البعض منهم ولأجل التخلص من الناقة قام يتعلل بأسباب واهية ، منها أن الناقة حين تشرب الماء وترجع ، فانها تربض في مكان لا تجرأ قطعان أغنامنا على الإقتراب منه ، لذلك فقد أصبح أصحاب هذه القطعان أعداءً للناقة ، وقرّروا أن يقتلوها ، ولا نقيض بين الأمرين من حيث الهدف ، سواء على الرواية الأولىٰ أم على الثانية .

كان في القوم رجل يدعىٰ قدام ، وقد عُرفَ بين أبناء قومه بالتهتك والقساوة فضلاً عن أنه لقيط وفاسق فاجر ، وكان جسمه مليئاً بالشعر الأحمر ، لذلك كانوا يدعونه الأحيمر ، وعلى هذا الأساس جرىٰ الأمر على أن يُوكل قتل الناقة إليه ويُساعده في ذلك شخص لا يختلف كثيراً عنه في السمات ، يدعىٰ « مصدع » .

فتآمروا بهذه المؤامرة : العصيان ، ووضعوا خطة لذلك .

مؤامرة قتل النّاقة :

كانت بين القوم في القبيلة آمرأتان إحداهما تدعىٰ صدقة وعنيزة ، فأمّا صدقة فقد قطعت وعداً لمصدع ، بأن تهبَ له نفسها وتصِلْه ، وأما عنيزة فقد وعدت قدار بأن تهبَه آبنتها .

جاء القوم إلى هذين الشقيين ورغبوهما بالطمع ، وحرضوهما بهاتين الإمرأتين الفاجرتين ، وحينما مرّ قدار ومصدع قرب منزلي هاتين الإمرأتين تصنعتا الغمّ والحزن وبدتا وكأن مصيبةً حلت بهما ، فسأل هذان العاشقان سيئا الطالع الإمرأتين وقالا نراكما مغمومتين حزينتين فعلام هذا الحزن والغم ، فقالتا إن سبب أذانا هذه الناقة ، فان قتلتماها فسنهبكما أنفسنا .

إيّاكم وأذىٰ الناقة :

في مناسبات عديدة نبّه صالح قومه وحذرهم منها ما جاء في قوله تعالى عن لسان حاله في سورة الأعراف حيث يقول لهم :

﴿هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكُلُ في أرض الله ولا تَمسُّوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب أليم﴾ .

ومع كل هذه الوصايا والتأكيدات ، ومع ما كانت هذه الناقة الآية تعود عليهم بالفائدة الجمة ، فهم بدل الماء كانوا يشربون لبنها مع هذا كله ، فان هذين الشقيين صمّما على قتل الناقة بتحريض وتشجيع من قومهم ، وبما وعدتهما به تلكما الفاحشتان .

﴿فنادَوْا صاحبهم فتعاطىٰ فعقر﴾ :

وصاحبهم هذا هو قدار ، حيث كَمنَ هو ورفيقه مصدع ، وعندما لاحت لهم الناقة من على بُعد آتية نحو عين الماء لتشرب منه فنادىٰ القوم على قدار كي

يستعد لذلك .

والمراد بقوله تعالى : ﴿فتعاطىٰ﴾ ، قيل إن معنىٰ ذلك أنه آستلّ سيفه من غمده . وبعض المفسرين ، قالوا عن معنى كلمة : ﴿فتعاطىٰ﴾ أي آجترأ لأن كلمة تعاطىٰ تعني أخذ الشيء بالتكلّف ، وحقّاً فان أمراً كهذا يحتاج إلى الجرأة للاقدام عليه ، فلو لم يكن العاقر ابن زنا ، لما كانت له الجرأة على أداء فعل كهذا .

وحول ، كيفية إرتكاب هذه المعصية يقول بعض المفسرين : إن مصدع رمىٰ من بعيد بالنبل أرجل الناقة ، ثم نادىٰ صاحبه قدار قائلاً له : إذهب إليها وأرِحْها ، فآستل قدار سيفه وتوجه نحوها .

﴿فعقر﴾[1] :

فضربها ضربةً أولىٰ فلم تفعل فعلها ، ثم ضربها ضربةً ثانيةً فقطع رجلها وسقطت الناقة إلى الأرض وأما (سقبها) ، فقد فرّ مذعوراً إلىٰ صوب الجبل الذي أنجبَ أمّه فرى ثلاثاً ثم اختفى عن الأنظار .

وأما القوم فقد راح كل منهم يُخبّر الآخر بنبأ عقر الناقة ، وتداعىٰ عبيد البطون علىٰ الناقة وأخذوا يقطعونها ، ويتقاسموا لحمها بينهم ، حتّى لم يبق أحدٌ منهم لم يأكل من لحمها إلاّ المؤمنون مع صالح (ع) .

(١) روىٰ المحدّثون أن النبيّ (ص) قال لعليّ (ع) : أتدري من أشقىٰ الأولين ؟ قال : نعم ، عاقر ناقة صالح ، قال : أفتدري من أشقىٰ الآخرين ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال (ص) : من يضرِبُك على هذه حتّىٰ تخضبَ هذه (مشيراً إلى كرعتِهِ) (يرجىٰ النظر في الرواية عن ابن أبي الحديد في صفحة ١١٤) .

التآمر علىٰ قتل صالح (ع) :

لم يكتفوا بعد كل ما فعلوه مع الناقة ، فقد آتفقوا على أن يقوم قدار ومصدع وسبعة أشخاص آخرين عينوهم لكي يقتلوا صالحاً (ع) ويُلحقوه بناقته ، وعلى العموم ، فان التسعة أشخاص الذين أُوكلت إليهم مهمة قتل صالح (ع) اجتمعوا ، وقالوا : إذا كان صالح صادقاً فيما يقول بنزول العذاب فيما لو قتلنا الناقة ، فالأولى أن نقتله قبل ذلك وإن كان كاذباً ، فنحن بقتله عاجلاً سنكون قد تخلصنا منه .

وفي الليل وبينما كان صالحٌ في كهفٍ منهمكاً في العبادة والتهجد جاء هؤلاء التسعة الجُناة ، وبيدهم سيفٌ عارٍ مسلول وهمّوا بالهجوم عليه ، فجاء النداء إلىٰ الملائكة أن آقذفي هؤلاء بالحجارة ، وكانت الإرادة الإلٰهية فانهالت الصخور عليهم وذهبوا إلى جهنم وبئس المصير .

فلما أُخبرَ صالح (ع) بأن القوم عقروا الناقة تأثر تأثراً كبيراً ، وآسف لعمهم هذا كثيراً وآستاء من قومه ، لأنهم عصوْا ربّهم وفعلوا ما نهاهم عن فعله فجاء إلى قومه والأسىٰ والألم قد أخذ منه مأخذاً عظيماً ، ووقف عليهم يؤنّبهم غاضباً : تباً لكم وسحقاً لم فعلتم هكذا ؟ ألم أقل لكم إياكم وأن تمسّوا الناقة بسوءٍ فيسحُتكم الله بعذابٍ ؟ وها أنتم عقرتموها فانتظروا إذن العذاب ينزل بكم .

وجاء الوحي الإلٰهي لصالح أن القوم لا محالة هالكون إلاّ أن يتوبوا ويتوب الله عليهم فينجيهم منه ، وكانت الفرصة ثلاثة أيام وليالي كي يفكروا بمصيرهم علّهم يندمون عما بدر منهم ، ويتوبوا إلىٰ الله ، وإلاّ فهذا هو عذاب الله على الأبواب ينتظرهم ليحصدهم ، ولهذا العذاب علامات ثلاث يرونها ويلمسونها بأيديهم ، وهي مقدمة له ، فالأولىٰ أن يصبحون ووجوهم صُفراً ، ثم يُمسون ويصبحون ثانية ، فيرونها حمراء فيمسُون أُخرىٰ ويصبحون ثالثة ، فيرونها مُسوَدّةً ، ثم يحل أخطبوط العذاب الإلٰهي ، كل ذلك بيّنه لهم (ع) ثم غادر

ناحيتهم أسفاً على ما آقترفت أيديهم ، وكان ذلك البيانُ النبويّ فرصتَهم الأخيرة ، فكم هي واسعة رحمة الله ؟

ترى هل فيهم من يتعظ ويخزُّ في ضميره الندم ، ويلجأ إلى ربّه تائباً مستغفراً ؟

كان الصباح الأول في الغد ، وخرج القوم كل ينظر إلى صاحبه ، فيراه مصفرَّ الوجه « يا سبحان الله » فهرعُوا إلىٰ كبرائهم ليُرشدونهم ، ماذا يصنعون وقد ظهرت عليهم الآية الأولىٰ ؟ يبدو أن صالحاً قد صدق فيما أنذر ، لكن الكبراء قد عُموا بالغرور والعجرفة والكبرياء ، قالوا لهم : لا عليكم إذهبوا إلى شؤونكم من هو صالح ؟ وما قيمة أقواله ؟

فانصرفوا وأمسوا ليصبحوا في يومهم الثاني .

فوجدوا وجوهم قد غدت حمراء ، فليعرفوا حينئذٍ من هو صالح وأي انذار أنذرهم ؟ وباتوا ذلك اليوم ليصبحوا على العلامة الثالثة .

فكانت الوجوه قد آسودّت ، وصار لونُها كالقير في سواده ، والآن فليسخؤوا .

فكم تلطّف عليهم ربّهم ، وكم رحمهم ، وكم كان حليماً رؤوفاً بهم ؟ حتّى أعطاهم كل هذه الفرصة . وإلاّ فان الغضب كانوا قد استحقوه لحظةَ هوت الناقة المعقورة إلى الأرض .

وقبل ان يقطعوا لحمها ، أليس كذلك ؟

لكنهم سيئوا الطالع يطلبون السعير بأيديهم ويسعون إلىٰ نارها بأقدامهم فليذوقوها غداً وإن غداً لناظره قريب ، وهذا جزاء كل متمرد عاص لم يدخل الإيمان قلبه ولو للحظة واحدة .

واليوم هناك من يعيش بين ظهرانينا من الأفراد الذين قضوا عمراً كاملاً في لهوٍ ولعبٍ ولهثٍ وراء الشهوات حتّى غدت شعورهم بيضاء وكالقطن ، وخارت

بهم القوى وغَدَ الموتُ يطوق أبوابهم ، لكن جعبتهم فارغة خاوية ، إن لم تكن مليئةً بما يُذلُّ ويخزي ، وليس لهم من متاع مدخر ليوم الهول العظيم ، والأنكىٰ من ذلك أنهم مع ما بلغوه من العمر ، تجدهم مع ذلك مصـرّين على غيّهم لا يتعظون ، فتبّاً لهم وسحقاً .

وقوم ثمود مثل هؤلاء رأوا بأعينهم علامات العـذاب واضحةً وعلمـوا أن العذاب لا مفرّ منه ، ومع ذلك فلم يُحدثوا أنفسهم بالتوبة .

« صيحة الموت » :

نعم فقد كان العذاب كما هو الوعيد الإلٰهي لهم فيقول تعالى :

﴿إنا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيم المحتظر﴾ :

وفي الرواية إن جبرائيل (ع) صاح صيحةً عظيمةً مـزقت أغشية آذانهم ، وفلقت قلوبهم ، وقطعت أكبادهم إرباً إرباً . ثم ماذا كان بعد الصيحة ؟ إنه دور الصـاعقة ، فقـد وقعت الصاعقـة عليهم فأحـرقتهم جميعاً فـأصبحوا كـالهشيم المحتظر والهشيم هو العلف الـذي يخزّن في حفـر في الأرض بعد أن يِجفف ويُكبس ثم يحفظ في تلك الحفـر للإستفـادة منه في مـوسم الشتاء ، فـالهشيم إذن : هو العلف الجاف وذو اللون الأصفر .

﴿محتظر﴾ :

وعندما تُقرأ بفتح الـظاء ، فانهـا تعني الحفرة الـذي يُخزّن فيهـا الهشيم المدروس ، أما حين قراءتُها بكسر الظاء ، فانها تعني صاحب الحظيرة .

فالله سبحانه وتعالىٰ يقول في هذه الآية الكريمة : « بأن عاقبة قوم صالح كانت أن ماتوا بصيحةٍ واحدةٍ فتساقط بعضهم علىٰ بعض « كهشيم محتظرٍ » .

وقد استخدم هذا التعبير عنهم إستهانة وتحقيراً لهم أي أنهم تافهون ولا وزن لهم ، ولا قيمة ، وبلغوا بتفاهتهم حدّاً كأنهم التّبن .

نعم فكل شخص يرفض الإيمان بالله فيولي وجهه عن الله سبحانه ، فانه حقير صغير وذليل أدنىٰ وأسفل من الحيوانات ، بل ربما أحقر من التراب ، حتى أنه يتمنى أن يكون تراباً ، ولم يخلق إنساناً **﴿يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾** ، بينما المؤمن على العكس من ذلك فانه عزيزٌ عند الله سبحانه ، لأنه سلك سبيل الله ، وأفنىٰ عمره الطيب في كسب طاعته ورضاه فالعزة لمثل هؤلاء ، والله تعالى يقول : **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾** .

« عاقروا النّاقة » :

من عقر الناقة أهو شخص واحد أم الجميع ؟

في هذه الآيات التي نحن بصدد بحثها ورد ذكر عاقر الناقة بالمفرد ، فقال تعالى : **﴿فتعاطىٰ فعقر﴾** ويُعنىٰ به ذلك الشقي اللقيط الذي عقرها بيده وهو « قدار » ، ولكن حينما يرد ذكر الناقة وعقرها في سورة **﴿والشمس وضحاها﴾** فان الآية الأخيرة تشير وتنسب عقر الناقة إلى الجميع ، فيقول تعالى فيها : **﴿فكذبوه فعقروها﴾** رغم أن الآيات التي تسبق هذه الآية تشير إلى قدار **﴿إذ انبعث أشقاها﴾** .

إذن : فإذا كان عاقر الناقة رجل واحد ، لماذا نسبت الخطيئة للجميع ؟ ويمكن معرفة سبب ذلك من خلال أقوال وخطب أمير المؤمنين (ع) التي وردت في نهج البلاغة كما أوردها السيد الشريف الرضي (عليه الرحمة) وكما جاء أيضاً في تفسير البرهان .

وهنا نذكر ما جاء في نهج البلاغة : أيُّها الناس لا تستوحشوا في طريق الهُدىٰ لقلة أهلِهِ ، فان الناس اجتمعوا على مائدةٍ شِبَعُها قصيرٌ وجوعُها طويلٌ .

أي إنهم جميعاً لا يفكرون ، ولا يهتمون سوىٰ بالمال والجاه وطلب الرئاسة وحبّ الدنيا ، فلا يعرفون الشبع في ذلك ، ولا يقف نهمهم عند حدّ .

وفي موضع آخر من الخطبة ـ وهو بيت القصيد ـ فانه (ع) يقول :

«أيها الناس: إنّما يجمع الناس الرّضا والسُّخط، وإنما عقر ناقةَ ثمودَ رجلٌ واحدٌ فَعمَّهُمْ الله بالعذابِ لمّا عمُّوه بالرضا، فقال سبحانه: ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ فما كان إلاّ أن خارت أرضهُم بالخسفة خُوارَ السُّكَّة المحماة في الأرض الخوّارة.

أيّها الناس: من سلك الطريق الواضح ورد الماء ومن خالف وقع في التِّيهِ».

ثم يقول ـ عليه السلام ـ مشيراً إلى الرضا والغضب فيقول: «إنما جمع الناس الرضا والغضب».

فلو أن إنساناً أَحَبَّ عملاً وأراد أن يقوم به ويُنجزُه، لكن يده لم تقبل إليه ولم يتمكن من ذلك، فان كان العمل خيراً كُتبَ له ثوابُهُ في صحيفة أعماله.

ولو أن إنساناً رضي وأَحَبَّ ورغب بعمل إنسانٍ كان في ركاب رسول الله (ص) وعلي (ع) والحسين (ع)، قد جاهد معهم ثم آستشهد في الدفاع عن حقهم ونهجهم، فانه شريكٌ له في ثوابه أي يُثاب بمثلما أُثيب.

وبالطبع ليس رضاه ورغبة تلك مجرد لقلقة لسان، إنما ذلك تابع من صميمه ووجدانه أي: إن الفرصة لو سنحت له ومُحِّص ووضع على المحك، فان أقواله ورغبته تلك تتجسدُ عملاً واقعياً، فلو سنحت له فرصة المجاهدة من أجل نصرة الحق ونصرة كلمة الله وتوحيده وإقامة العدل التي أُراق الحسين (ع) من أجلها دمه الطاهر الزكي فانك تجده مجاهداً حاملاً سلاحه وفي الخط الأول من سوح القتال، فمثل هذا الذي يُثاب ثواب الشهيد ويحشر معهم، وليس مجرد أن يقول بلسانه: «يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزاً عظيماً»، وليس مجرد رغبة عابرة تُثيرها العواطف أحياناً.

كلهم عاقروا الناقة برضاهم :

وهنا يقول أمير المؤمنين (ع) : « لا جدال في أن عاقر الناقة كان رجلاً واحداً لكن الله تعالىٰ عذبهم وأهلكهم جميعاً لأنهم رضوا بذلك وإنما جمعهم الرضا » .

ودليل رضاهم جلي وواضح ، وهو أنه حين أُذيع نبأ عقر الناقة ، فان كل واحد منهم جاء وأخذ قطعةً من لحمها ، وراح يأكلها ، فلو لم يرضَوْا بهذه الخطيئة ، فلما أكلوا لحم الناقة ، وكان بمستطاعهم أن يبدوا عدم رضاهم وانزجارهم من هذه الخطيئة بامتناعهم عن تناول لحمها ، وهو أضعف الإيمان ، فباعراضهم عن أكل لحمها يبدون معارضتهم لعقرها وذبحها ، إنهم أثبتوا رضاهم التام والواقعي بمشاركتهم هذه بتقطيع لحم الناقة وتناوله .

ويقول أمير المؤمنين(ع) : «أيها الناس : إنّما يجمع الناس الرّضا والسُّخط ، وإنما عقر ناقةَ ثمودَ رجلٌ واحدٌ فَعمَّهُمْ الله بالعذابِ لمّا عمُّوه بالرضا ، فقال سبحانه : ﴿فعقروها فأصبحوا نادمين﴾ فما كان إلّا أن خارت أرضهُم بالخسفة خُوارَ السِّكَّة المحماة في الأرض الخوّارة .

أيّها الناس : من سلك الطريق الواضح ورد الماء ومن خالف وقع في التِّيهِ » .

الإنكار القلبي لا يحتاج إلىٰ الاحتراز :

وعلى الضد من الرضا ، فان الغضب يجلب التفرقة والنهي عن المنكر هو من أهم الواجبات الإلٰهية ، وهو علىٰ درجات فالدرجة الأولى التي لا تحتاج إلىٰ أي من المستلزمات أو ما يُحترز به ، وهو واجبٌ على الجميع ، وفي أي مكان وجدوا ذلك هو الإنكار القلبي « من رأىٰ منكم منكراً فلْيغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

نعم فلا يستثنىٰ أحد من هذه الدرجة من الإنكار ، وهو الإنكار القلبي وهو أضعف الإيمان ، فحينما ترى محرماً يرتكب أو إثماً أو خطيئةً تقترف فعليك أن تستنكر ذلك في قلبك في أدنى الأحوال ، إن لم يكن بمقدورك التغيير باليد أو باللسان .

ترىٰ هل نعي الآن أي واجبات قد فاتنا العمل بها ، ونحن غافلون عنها ولا نعلم بها فنحن ، إن لم نشمئز ونستاء من منكر جرىٰ أمام أعيننا فضلاً عن تغييره باليد أو اللسان فاننا بالإضافة إلىٰ تركنا العمل بواجب شرعي ، فقد كتبنا رُبّما شركاء في هذا المنكر وفعله ، وهو الأخزى والأنكىٰ وربما يكون لنا في الآخرة نصيب من عذاب فاعل المنكر هذا .

وبهذا الذي بيّناه أعتقد أننا أزلنا هذين الاشكالين اللذين وردا بشأن عقر الناقة فعاقرها واحد والقوم صاروا عاقرين أي شاركوه بالعقر برضاهم وتشجيعهم له وقد قيل : « من رضي بعمل أو بفعل قوم حُشر معهم » فقاتل الناقة معروف ويستحق العقاب الصارم ، وفي سورةُ الشمس ، فان عقر الناقة قد نسب للجميع ، فقال تعالىٰ : ﴿فكذبوه ، فعقروها * فدمدم عليهم ربّهم بذنبهم فسواها﴾ فالعقر والذنب كان للجميع .

الإنتقام من الراضين :

وفي نهاية هذا البحث نود أن نشير إلى أن الإمام المهدي ، الحجة بن الحسن أرواحنا لمقدمه الفداء سيطلب بالثأر لدم الحسين (ع) حين إشراقته البهية على العالم الغارق في الظلم والجور والطغيان ، وسيقتل كل من رضي بقتل الحسين (ع) حيث أن الراضي مشترك بدمه (ع) لذلك جاء في دعاء الندبة الشريف « أين الطالب بدم المقتول بكربلاء » .

« قوم لوط »

﴿كذّبت قوم لوطٍ بالنذر﴾ بعد أن بيّن ربّ العالمين وعرض لقصة قوم نوحٍ وأسباب دمارهم وطريقة دمارهم وهلاكهم ، ثم عرض بشكلٍ مقتضب لقصتي عاد وثمود ، هنا أيضاً يُبيّن لنا من خلال السياق القرآني وباقتضاب قصة قوم آخرين ، ألا وهي قصة قوم لوط ، مع نبيِّهم زيادةً منه سبحانه وتعالىٰ في العبرة والموعظة .

« المؤتفكات » هي إسم موطن قوم لوط ، وهو عبارة عن خمس أو سبع مدن ملتحمة أحداها بالأخرىٰ ، وذكر في الروايات أن مجموع سكانها كان بحدود أربعة ملايين نسمة .

مكث النبي لوط (ع) في قومه ثلاثين عاماً مندوباً عن النبي إبراهيم الخليل (ع) وكان يحذرهم وينذرهم من عذاب الله أن يُصيبَهم إن هم لم يكفوا عن أفعالهم الشنيعة ويتوبوا إلىٰ الله .

فكان (ع) يقول لهم : إن هذا الذي تفعلونه وهو اتيانكم الرجال لاشباع شهواتكم الجنسية إنما هو نقيض الطبيعة الإنسانية ، والله سبحانه قد خلق لكم النساء لسدِّ حاجاتكم الجنسية ، أفصحيح هذا الذي ترتكبونه من الإثم الكبير بأن تدعون نساءكم جانباً وتكتفون بالرجال ، وهذا ما نجده على لسانه (ع) ينقله كتاب الله المجيد في سورة الأعراف : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشَةَ ما

سبقكم بها من أحدٍ من العالمين * إنّكم لتأتون الرّجال شهوةً من دون النساءِ بل أنتم قوم مسرفون﴾[1] وفي سورة الشعراء تأتي صيغة خطابه (ع) ﴿أتأتون الذكّران من آلعالمين وتذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم بل أنتم قومٌ عادون﴾[2] .

تبديد النطف من الاسراف :

لقد خاطب لوط قومه في تحذيره هذا بأن في عملهم إسراف يصدر منهم ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ كما مرّ في الآيات السابقة ، فأي اسراف أكثر من هذا الذي يكون بالنطفة التي هي بمنزلة البذر واللّقاح الذي يُودع في رحم المرأة فهو مادة خلق الإنسان وتكوينه فكيف تُهدر وتبدد بشكلٍ قبيحٍ في غير محلّها ! ؟

ماذا دهاكم أيها الناس تضربون بعرض الحائط ناموس الطبيعة الإنسانية التي هي سبب الإمتداد وبقاء النوع الإنساني والتناسل بين بني الإنسان وفيها تكمن أسباب المحبّة والألفة والوُدّ بين أبناء البشر والتزاوج والنكاح الذي فيه حرارة الحياة ودفئها ، تضربون ذلك كله عرض الحائط وتنتهجون سبيلاً خاطئاً وقبيحاً وإثماً تجورون وتظلمون من خلاله أنفسكم ونسائكم

هكذا كان لوط (ع) يخاطبهم محذراً ومنذراً لهم ، لكنّ قومه كانوا وقحين وبمنتهىٰ الصلافة لا يعرفون للخجل معنىً ، فلم تترك كلمات لوط ونصحه ومواعظه أي أثر عليهم وآستمرّوا غير مبالين في فعلهم القبيح هذا وجريمتهم الكبرىٰ التي هي أسوء وأقبح من الزنا وتترتب عليه حدودٌ أشد[3] .

ولما لم تعد هناك نتيجة ، ولم تنفع معهم نصائح نبيّهم بل إن هؤلاء

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٨٠ ـ ٨١ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٣) بخصوص هذا الموضوع وفيما يخص الزنا فقد تعرض السيد الشهيد آية الله دستغيب وبشكل مفصل في كتابه « الكبائر » « گناهان كبيره » .

الفجرة أخذوا يعمهون في غيهم وجريمتهم حيث بلغ بهم الأمر أنهم أخذوا يتجاهرون أمام الملأ بفعلهم القبيح هذا ويفعلونه بكل وقاحة ، فقد مُحيَ الخجل والحياء من مفاهيمهم .

لذلك يخبّر السياق القرآني عن مصيرهم وجزاءهم فيقول تعالى :

﴿إنّا أرسلنا عليهم حاصباً﴾ والحاصب هو الريح الذي يحمل الحجارة والحصى فيسقط عليهم كالمطر ، أي إننا أمطرناهم بالحجارة فأهلكناهم جميعاً .

والحصب هو الحصىٰ بأصغَر مما يملأ للكف ، والحاصب هو الشيء الذي يحمل هذا الحصى ويقذف به . وفي هذه الآية الشريفة فان الصيغة جاءت الموصوف محذوف على التقدير هو « ريحاً » فتكون الآية إنا أرسلنا عليهم ريحاً حاصباً .

الإمطار بالحجارة :

عندما رفع جبرائيل (ع) مدن قوم لوط السبعة إلىٰ السمٰوات العليا ، حيث بلغ بها موقعاً بات سكانُ تلك السمٰوات يسمعون أصوات دَيَكَتِهم وحيواناتهم ، فان ريحاً عاصفة قوية مليئة بالحصىٰ والحجارة هبت عليهم فقُصفوا بتلك الحجارة والحصىٰ ، وهلكوا جميعهم على الفور إلّا لوطاً وبضعة نفر ممن كانوا معه في دعوته وانذاره يستقبحون أفعال قومهم .

لم يبق منهم حي إلّا وأصابته حجارة فأهلكته .

وينبغي الإشارة هنا إلى أن كل من آستساغ فعل قوم لوط ، وقام بهذا العمل الشنيع فانه حين موته سيُقصف بمثل هذه الحجارة ، ثم يموت ، وذلك وفقاً لمراد الآية الشريفة **﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾** ، يتمُّ ذلك له دون أن يُفتضح ، فهذا الستر هو نوع من التلطف الإلهي عليه كي لا يُهدر ماءُ وجهه ،

وهو ما يزال في الحياة الدنيا ، وعلى أيةٍ حال ، فيبدو أن هذا عذاب من نوع خاص لمرتكب هذا العمل الشنيع .

وبعد قصف ديارهم ومدنهم بالحصىٰ والحجارة ، قُلبَ بهم ، وكما يقول تعالىٰ : ﴿**فلما جاءها أمرُنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارةً من سجيلٍ منضود * مُسوّمةً عند ربّك وما هي من الظالمين ببعيد** *﴾[1] .

ثم ينتقل السياق القرآني ، ليوضح الإستثناء في هذا العذاب فيقول تعالى :

﴿**إلاّ آلَ لُوطٍ نَجّيناهُم بِسَحَر**﴾ أي إننا أرسلنا هذا العذاب وأهلكناهم جميعاً الا آل لوط (والآل) هنا تطلق على كل من يكون أمره إلى المعني بالآل أي ولي الأمر ، لذلك فان آل لوط ، وكما هو متفق عليه هنّ بناته الثلاث[2] .

وأما آمرأته ، فلأنها لم تكن موجودةً مع لوط حين وقوع العذاب ، وكانت كافرةً مناصرةً للقوم ، فانها لم تُعَدَّ من آل لوط .

﴿ نجيناهم بسحر ﴾ :

أي إن آل لوط نجوا من العذاب حينما خرجوا من السحر ، فقبل طلوع الفجر ، وهو موعد البلاء والعذاب الإلٰهي أخبرنا لوطاً أن يخرج هو وبناته الثلاث في آخر ثلث من الليل إلى خارج حدود البلدات .

---

(١) سورة هود، الآية : ٨٢ ـ ٨٣ .

(٢) وقال البعض ان أصهاره وبضعة نفر آخرين من الذين آتبعوه واستنكروا على القوم فعلهم بحيث لا يتجاوز عددهم الثلاثة عشر نفراً هم المعنيّون بآل لوط .

﴿ نعمة من عندنا ﴾ :

وخروجهم هذا الذي كان سبب نجاتهم إنما هو فضل ونعمة منّا أنعمناها علىٰ لوط وآله .

﴿كذلك نجزي من شكر﴾ :

فالنجاة هذه هي هديتهم على شكرهم .

ويتجسد الشكر الإلٰهي الواقعي بطاعة أوامر الله سبحانه وآجتناب الإثم والمعصية فكل من تجنب هذه الحقيقة في حياته وواقعه ، فانه يكون خارج نطاق غضب الله سبحانه حين نزوله على العصاة والفجّار والمجرمين من الناس ويشمله هذا اللطف الإلٰهي والنجاة من العذاب حتى قيام القيامة الكبرىٰ ، فالأمر لا يختص بوقت معين .

فكم ينزل من أنواع البلاء والنوازل العظيمة في الحياة الدنيا التي تعمّ الناس كوقوع الزلازل واجتياح السيول وتفشي الأوبئة والأمراض المعدية وغير ذلك من البلاء العام الشامل لكنك لو تفحصت لوجدت أن الشاكرين وهم المطعين والعاملين للخيرات والصالحات الورعين عن إرتكاب المعاصي والآثام والخطايا ، لوجدتهم في مأمن ومنجىً من هذا البلاء النازل « نسأل الله تعالى أن يكتبنا من الشاكرين » .

حجارة العذاب مقابل حجارتهم :

يشير هنا بعض المفسرين إلى نقطة مهمة في هذا الموضوع ، وهي أن السبب في كون هلاك قوم لوط قد جرى بإمطارهم بأحجار جهنم هو لأنهم كانوا يعملون عملاً عدوانياً علاوة على جريمتهم الرئيسية ، وهو أنهم كانوا يحملون عُلَباً مملوّةً بالحصىٰ ويجلسون عند مفترق الطرق ، فكل من يدخل مدنهم يرمونه بإحدىٰ الحصىٰ فان أصابته ، فقد صار ضحيتهم حيث يقتادونه ويعملون

معه عملهم الشنيع لذلك أبىٰ الله إلاّ أن تكون عقوبتهم بمثل ما كانوا يعتدون إلاّ أن الحجارة كانت من جهنم ، من سجيلٍ منضودٍ .

وأما بالنسبة لأوضاعهم فقد بلغوا من القذارة والنجاسة والدناءة درجة بحيث أنهم لم يأبهوا ولم يعودوا يراعون الطهارة والنظافة حينما يقبولون ويتغوطون « ـ أجلّ الله القارئين ـ » ولا يغتسلون من الجنابة إضافة إلىٰ أنهم نبذوا كل آداب المعاشرة ، ولم يعد للأخلاق معنى في قاموسهم ولا يراعون ولا يحترمون الأصول والقواعد التي يبتنىٰ عليها المجتمع الإنساني السليم ، كل ذلك نبذوه وراء ظهورهم وغدَوْا كالبهائم ، بل أضل سبيلاً ، حيث كانت تبدو منهم الطباع الحيوانية الوحشية ولا يأبهون بأبسط أنواع الآداب (فهم كانوا « ـ أجلّكم الله ـ » في مجالسهم الخبيثة يُخرجون الريح و . . . . كما جاء ذلك في الروايات) .

كيف نُجّيَ آلُ لوط :

إن آل لوط ، وكما يرىٰ ذلك بعض المفسرين هم ثلاثة عشر نفراً لا يزيدون ، هو وبناته الثلاثة وأصهاره وبعض أصحابه المقرّبين ، فقد نجا من مجموع أربعة ملايين فقط هؤلاء النفر القليل .

وذكر في الروايات أن جبرائيل (ع) حينما قال للوط (ع) ، عليك بالخروج من المدينة في وقت السحر ، لأن هؤلاء هالكون صباحاً ، كما في قوله تعالى : ﴿إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب﴾ ، فأجابه إن الناس قد أحاطوا بداري وحاصروها فكيف يتسنّى لي الخروج منها ؟

فقال جبرائيل (ع) أنه سيكون هناك عمودٌ من النور فاخرج أنت وأهلك وأتبع خط هذا النور وآمضي على هديه .

وبعد أن فرّ لوط ، ومن تبعه ، خرجت آمرأته إلىٰ القوم لتُخبرَهُم بأنّ لوطاً قد فرّ بآله ، لكن حجارة فاجأتها من أحجار العذاب ، فأخمدت أنفاسها

وأهلكتها بمكانها .

اللّهُ الشكور :

علىٰ أية حال فان الله سبحانه لا يضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثى فهو سبحانه يشكر عبده على كلّ عمل صالح وخَيرٍ ينجزه العبد في سبيله ولمرضاته ويجزيه بالطيّب تجسيداً لهذا الشكر . واما المكافأة ، فانها كبيرة وممتدة إلىٰ الحد الذي تقول عنه الروايات بأن عمل الخير تشمل مكافأته أيضاً الكُفّار والفجّار في نفس هذه الدنيا ، فالله سبحانه يكافأهم هنا لأن المكافأة في الآخرة ممنوعة عليهم ﴿وما له في الآخرة من نصيب﴾ ، وأما شكل المكافأة فقد يختلف من شخص لآخر ، فقد يكون بشكل دفع آفة أو مرض يصيبه أو قد يزداد مالاً وأولاداً وفي ذلك من خيرات الدنيا .

﴿ولقد أنذرَهم بطشَتَنا فتماروْا في النذر﴾ :

والبطش بمعني القهر الشديد ﴿إن بطش ربّك لشديد﴾ فلا طاقة لأحدٍ بتحمل القهر الإلٰهي الشديد والصبر عليه ، وهذا هو الذي أنذرهم به لوط وحذّرهم منه إنه العذاب الإلٰهي الشديد لكن هؤلاء لم يأبهوا بذلك ، ولم يعيروا اهتماماً له ، بل راحوا يستهزؤون بلوط وينكرون عليه أقواله ويكذبونها .

ثم ينتقل السياق بنقل ما جرى بينه وبين قومه حين حلّ عليه ضيف السماء . فيقول تعالى :

﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ .

ولإيضاح ما ورد في هذه الآية ، لا بدّ من تقديم نبذة مختصرة عن مجريات هذه الحادثة فقد هبطت الملائكة إلىٰ الأرض لانجاز الوعيد الإلٰهي بهلاك القوم وتطهير الأرض من لوثهم ، كان من بينهم جبرائيل (ع) وفي بعض

الروايات الأخرى ذكر أنّه كان معهم إسرافيل وميكائيل ، فكانوا بين أربع إلى سبع ، ومن الملائكة دخلوا أبواب المؤتفكات ، قبل غروب الشمس وبهيئة فتيان أو شباب بوسامة الملائكة وجمالها ، وجاؤوا إلى عند لوط (ع) ودخلوا داره كضيوف، حلّوا عليه .

فاستوحش منهم لوط ، وقال لهم : من أين أنتم أما تعلمون أن هؤلاء القوم وقحون لا يعرفون الحياء والخجل ؟ وهنا آمتنع الملائكة عن التصريح بهويتهم ، فلم يعرفوه بحقيقتهم ، وإنما أجابوه : إن هو لأمر سيدنا أمرنا أن ندخلَ هذه الديار وَنَحِلَّ ضيفاً عليكم .

فآرتعد لوط خائفاً لئلاّ يعلم قومه بمقدم الضيف فيُخزوه في ضيفه ، هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخرىٰ أنه رجلٌ مضياف يحب الضيف ويُقربه ، لذلك قرّر أن يمكثوا قليلاً حتّى يحلّ الظلام على المدينة ، فلا يراهم أحدٌ عندها يقودهم إلى داره .

وحينما أرادوا دخول الدّيار نبّأهم بأن لا يدخلوا ولا يمرّوا من وسط الطريق بل يأتون من أحد أطرافه لكنهم أبَوْا إلاّ أن يدخلوها من وسط الطريق وحينما آعترض عليهم لوطٌ ، قالوا له : إن سيّدنا هكذا أمرنا ، وعلى أية حال فقد سلكوا سبيلهم حتى بلغوا دار لوط (ع) ودخلوها .

وحينما رأت إمرأة لوط (لعنها الله) أن عدداً من الشبان الوسيمين دخلوا الدار ، صعدت إلى سطح الدار ، وأوقدت ناراً ، وهي علامة يفهم القوم منها أن ضيوفاً حلّوا على لوط (ع) ، فجاؤوا زرافات زرافات صوب الدار[1] وصنعوا في باب الدار ذلك الضجيج ، ففتحت آمرأة لوط باب الدار ، ودلّتهم على ضيوف لوط .

وحالما وقعت عيون القوم الفجّار على جمال ووسامة هؤلاء الشبّان خاطبوا

---

(١) ﴿وجاءه قومُه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات﴾ سورة هود ، الآية : ٧٨ .

لوطاً ، قائلين أَلَمْ تقل لنا إنّك لن تستقبل ضيوفاً بعدها ، والآن ما دمت قد استقبلتهم فواحد لك ، وأما البقية فأعطنا إياهم .

فأخذ لوط (ع) ، كما كان دأبه معهم ، ينصحهم ويعظهم أن اخجلوا واستحيوا من الله أي عمل شنيع وقبيح تفعلون ، وأي منكرٍ قمتم به فيما مضىٰ من عمركم ، ثم وقف أمام إثنين من رؤساء قبائلهم ، وقال : إذا كانت غايتكم إشباع شهواتكم فانني مستعد لأن أزوجكم بناتي هؤلاء ، وأعقدهُن وأُنكحهُن لكم حلالاً طيّباً ، فهن أطهر لكم ونص خطابه هذا كما أورده القرآن الكريم **﴿يا قوم هؤلاء بناتي هُنّ أطهر لكم﴾**[1] فأجابوا ، وكما هو نص القرآن المجيد : **﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حقّ وإنّك تعلم ما نريد﴾**[2] أي إننا لا رغبة لنا في بناتك وأنت تعرف غايتنا جيداً .

فاضطر لوط الذي بدا ، لا حيلة له إلّا الإستغاثة والرجاء والتوسل بهم . وأخذ يصيح ويستغيث أما فيكم رجل رشيد وعاقل ، لِم تريدون أن تخزوني في ضيفي ، **﴿فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾** ، أما فيكم من توقظه الغيرة عن سدره في غيّهِ وإثمه ، كل ذلك لم ينفع معهم ، فالتفت إلى ضيوفه وقال : **﴿قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركنٍ رشيد﴾** أي يا ليت لي من أسباب القوة والمنعة من قوم وأصحاب أوفياء وقبيلة طيبة ، فأستند إليهم وأدافع عنكم بهم .

ثم يستمر السياق في نقل وقائع الحادث ، فيقول تعالىٰ :

﴿ولقد راودوه عن ضيفه﴾ .

والمراودة هنا المنازعة والجدال الحاد في الطلب وفي ذلك الأثناء وعندما حطموا الباب ودخلوا غرفة لوط ظهر من ناحية أُخرىٰ القهر والبطش الإلٰهي .

---

(١) سورة هود ، الآية : ٧٨ .

(٢) سورة هود ، الآية : ٧٩ .

فحين آرتفع صوت لوط في المشادة التي جرت مع قومه ، نهض جبرائيل وكشف عن نفسه ، وقال للوط : إهدأ ولا تخف فنحن ملائكة الله أرسلنا لهلاك هؤلاء القوم عما قريب ﴿ إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك ﴾ ، دعهم كي يدخلوا .

وفي هذه الأثناء امتلأ الدار بالقوم ، وهنا ضرب جبرائيل بجناحيه على أعينهم فغارت وطمست أعين كلٍّ من كان في الدار وليس فقط إنهم عُموا بل أصبحوا وكأن لا أعين لهم أصلاً أي إن أثر لمحل العين لم يبق لهم ، فغدا محلها وكأنه جلدُ الكف المستوي أي إن جباههم تساوت مع وجناتهم لذلك يقول تعالىٰ في ضربة جبرائيل هذه في السياق القرآني :

﴿فطمسنا أعينهم﴾ وهذا هو أول العذاب وآمكثوا وانتظروا عما قليل :

﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ .

لقد قلنا لهم وبلسان الملائكة أن ذوقوا عقابنا الصارم وذلك الذي حذرناكم وأنذرناكم منه بلسان لوط (ع) ، وبعد كل هذا الذي وقع لهم وبدلاً من أن يؤثر هذا العمىٰ الفظيع في أنفسهم ويصْحوا من غفلتهم ويتجهوا إلى الباريء سبحانه يستغفرونه ويطلبون العفو منه ويتوبوا إليه عما سلف منهم وبدل ان يؤمنوا بما شهدوه من آية شديدة بيوم الحساب والجزاء ، فان الصلافة والوقاحة بلغت بهم حدّاً أن يقولوا ويتهموا لوطاً (ع) بأنه جاء بعددٍ من السحرة ، وراحوا يطلقون الكلام البذيء على لوط وآله .

وقد أرادوا الإنتقام في نفس الوقت من لوطٍ (ع) لما رأوْا من كثرة عددهم ، لكن الرعب والذعر أخذ منهم مأخذاً بحيث جعلهم لا يجرأون على القيام بأدنى ردٍّ فعلٍ فتوجه الملائكة عندئذٍ إلى لوط وقالوا له : نحن مأمورون بإنزال العذاب على هؤلاء وإهلاكهم غداً صباحاً .

وكما يقول القرآن عن لسانهم : ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ .

« العذاب الدائم » :

﴿ولقد صبّحهم بُكرةً عذابٌ مستقر﴾ .

والتصبح هو مجيء الفرد أو الشيء صباحاً أي خلال فترة الصبح ، وهي الفترة الممتدة ابتداءً من طلوع الفجر وحتّىٰ طلوع الشمس ، أي إن العذاب نزل عليهم خلال فترة الصبح وكلمة ﴿بُكرة﴾ جاءت لغرض التأكيد ، وهي تعني أول الصبح ، وحين طلوع الفجر ، فالعذاب وقع حال طلوع الفجر واستمر إلى حين طلوع الشمس .

أما قوله تعالى : ﴿مستقر﴾ أي إن العذاب قد تقرّر وصار القرار أن يكون دائماً ومستمراً ومتصلاً بعذاب الآخرة ، أي إن هؤلاء لن يُرفَعَ عنهم العذاب ، حتّىٰ يهلكوا جميعاً ثم يستمر معهم في عالم البرزخ ومنه إلىٰ يوم القيامة .

لقد جاء الأمر الإلٰهي : أن ارفعوا هذه البلدات ، وفي ذلك روايتان :

إحداها تفيد أن ملكين قلعوا المنطقة من أركانها الأربعة .

وفي رواية أخرى إن جبرائيل قام بذلك بمفرده .

ولم يبق في هذه البلاد التي قلنا أنها تتكون من أربع إلى سبع مدن وعدد نفوسها أربعة ملايين نسمة ، لم يبق منها سوىٰ بيت لوط بقي كالحلقة ، فارغ ما حوله أي لم يبق من تلك الأحياء المترامية الأطراف والمتصلة ببعضها سوى هذا البيت الذي كان يُعبد الله فيه . وجاء تأكيد ذلك في القرآن المجيد ، حيث يقول تعالى : ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ .

ولقد بلغ بهم الإرتفاع في السماء ما جعل سكان السمٰوات يسمعون أصوات دِيَكِهُم والحيوانات ، فضلاً عن عويلهم واستغاثاتهم ، ثم قذفوا بالحجارة وأي حجارة ، بحجارة من سجيل منضود ، ثم قلبت المدن على

وجهها ثانيةً[١] .

﴿عذاب مستقر﴾ العذاب الثابت الدائم ، وما ذاقوه من الويل والعذاب كان مقدمة للعذاب الأبدي بل هو فاتحة العذاب ، ويا ويلهم مما لاقَوْهُ في أول موتتهم وما يلاقونه الآن في البرزخ حتّى قيام القيامة الكبرىٰ فيستمر هناك ويبقون خالدين في جهنم .

كل موقع يُذكر فيه اسم الله مقدس ومُجلّل :

وهنا نلفت نظر القارىء العزيز إلى نقطةٍ مهمةٍ ، وهي أن دار لوط (ع) ظلت أثراً قائماً على مختلف العصور والدهور وستبقىٰ عبرةً للناس والأجيال حتّىٰ يوم القيامة ، ومفاد عبرتها هو أن كل محلٍ ومقامٍ ومكانٍ يذكر فيه آسمُ الله سبحانه ويُعبد يبقىٰ مكاناً جليلاً مقدساً ، وفي ذلك جاء في الروايات أنه حين تقع زلزلة القيامة ، هذه الزلزلة التي تجعل الشواهق ورواسي الأرض تتصدع وتنهار ، فتصبح قطعاً متناثرات هنا وهناك[٢] والأرض تصبح مستويةً منبسطةً[٣] فمع كل ما تحدثه هذه الزلزلة العظيمة الهائلة ، فان المساجد تبقىٰ رغم ذلك ماثلة باقية قائمة ، المساجد العامرة بذكر الله ، والعبادة والتسبيح والتهجد بحمده ، فأنّى لزلزلة القيامة ان تمسّها بخراب ودمار[٤] ؟

وهنا لا بدّ للمؤمنين من أن يعيروا الإهتمام بمساجدهم ويعتنون بها بشكلٍ أكثر ويعمروها بالعبادة ، وقد ذكرت مجموعة من الآداب بشأن المساجد ، فيجب مراعاتها واحترام قدسية المساجد وأماكن العبادة ، ومردود

---

(١) ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد﴾ سورة هود ، الآية : ٨٤ ـ ٨٦ .

(٢) ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسبها ربّي نسفاً﴾ سورة طه ، الآية : ١٠٥ .

(٣) ﴿لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتاً﴾ سورة طه ، الآية : ١٠٧ .

(٤) للمزيد من المعرفة يمكن مراجعة كتاب « المعاد » للسيد الشهيد آية الله دستغيب « عليه الرحمة » .

ذلك وفائدته يعود علىٰ المؤمنين يوم القيامة ، حيث إن المساجد تعُـدّ في ذلك اليوم من بين الشفعاء .

وبعد هذا الذي نزل بقوم لوط يعود السياق ليؤكد على التوبيخ والعقاب فيقول تعالى :

﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ . فذلك هو العذاب الذي أنذركم به لوط مراراً وتكراراً ، حينما حذركم من الإستمرار في تلك الأفعال القبيحة الشنيعة ونصحكم بالكف عنها والتوبة إلىٰ الله ثم يكرر السياق قوله تعالىٰ :

﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مُدّكر﴾ .

روي عن سعيد بن جبير (رض) أن الذكر هنا بمعنىٰ الحفظ .

فمن المميزات التي يتمتع بها القرآن المجيد ، ويختص بها من بين الكتب السماوية هو السهولة واليسر في الحفظ ، فربما تكون آية أو بضع آيات أو ربما سورة أو بضع سور ، حتى يُمكن حفظُ القرآن كله ولعلّ البعض من الأمّيين يتمكنون من حفظ سورة أو أكثر منه حينما تتكررُ عليهم تلاوتها ، وهناك في البلدان العربية بعض الأشخاص الذين حفظوه كلّه من فاتحته وحتّىٰ خاتمته ، ولقد كان لحفظ القرآن أهميّة بالغة جدّاً في الصدر الأول من الإسلام ، وكان الحُفّاظُ كثيرون ، حتى قيل إن الذين استشهدوا من حُفّاظ القرآن في حرب مسيلمة الكذّاب كانوا سبعين شهيداً .

لذا فطبقاً لهذا المعنىٰ الذي ذكره الصحابي الجليل سعيد بن جبير (رض) يكون مراد الآية الكريمة ، ولقد سهّلنا ويسّرنا هذا القرآن لأجل الحفظ ترى فهل هناك من يحفظه . ؟

الذكر اللساني :

وبالمستطاع القول بأن للذكر الذي يقصد به التذكر عدةَ مراتب ، والله سبحانه جعل القرآن المجيد سهلاً يسيراً فهمه في مختلف هذه الدرجات والمراتب من التذكر ، وهو بهذا الشكل من السهولة بحيث أن مرتبة الذكر اللساني (اللفظي) محسوسة يشعر بها المؤمن من أعماق وجدانه واحساساته وهذه هي خاصية من خصائص القرآن ، وقد جاء في كتاب أنيس الأعلام إن ما يحفظه القرويون المسلمون من القرآن المجيد هو أكثر مما يحفظه كبار قساوسة النصارى من أناجيلهم وفي الكثير من البلدان الإسلامية هناك من الأشخاص من حفظ القرآن كُلّه وخاصة في « مصر » ولكن لو فتشنا في جميع بلاد النصارىٰ فلا نجدُ ربما شخصاً واحداً قد حفظ كل ما في العهد الجديد (وهو الأناجيل الأربعة) وكذلك بالنسبة لليهود ، فليس فيهم من حفظ العهد القديم أي (أسفار التوراة) .

الذكر القلبي :

ومن بين مراتب الذكر أيضاً ، الذكر القلبي ، أي ذلك الذي غُرز في فطرة الإنسان من معرفة الله سبحانه ويوجهه نحو الآخرة والدار الخالدة ، والميل نحو عمل الفضائل والصالحات ، لكنه ضاع وآندثر في وادي النسيان والضلال نتيجة الغفلة والإنشغال من البحث في أمور الدنيا والإنصراف إلى الماديات ، لكن القرآن المجيد وبسهولة تامة رفع حجاب الغفلة الداكن ، ونبه الإنسان بما في فطرته الأولى ، وبالطبع هذا التأثير القرآني إنما يعني أولئك الذين لم تطمس فطرتهم الأولى بشكلٍ تام ، وتزول ، ولم تمت قلوبهم أو يصبها مرض الجهل والضلال .

ما جدوىٰ الوعظ لسود القلوب   وهل يمضي مسمارُ الحديد في الصخر

« شعر فارسي »

لـو كانت المـواعظ تنفع مـع ذوي القلوب الميتة والسـوداء والمرضىٰ ، لكانت مواعظ سيد الشهداء (ع) وأصحابه الكرام البررة نفعت مـع عساكـر ابن زياد اللعين ، فرغم بلاغة وفصـاحة وعمق تلك المـواعظ ، لكنها لم يكن لهـا أدنىٰ تأثير يذكر عليهم .

والمرحوم الـطبرسي ذكـر هذا المعنىٰ أيضـاً ، لكن معظم المفسـرين ، قالوا : إن الذكر هو بمعنىٰ التذكير ، والمذّكر هو الواعي والمتنبه كما أسلفنا .

« قصة فرعون والفراعنة »

وهنا يبدأ السياق في عرضٍ جديدٍ ، وللقصة موعظة جديدة في سورة القمر فيقول تعالى :

﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ .

والمعني بالنذر هنا هما موسى بن عمران وأخاه هارون (عليهما السلام) أما جواب قومهما وتأذنهم منهما هو كما يقول السياق فيما بعد .

﴿كذّبوا بآياتنا كُلّها﴾ :

والمراد هنا بالآيات هي الآيات أو العلامات التسع التي أرسل موسىٰ (ع) بها إلى قومه والتي ذكرت في عدة سور أخرىٰ من القرآن المجيد سنذكرها هنا بشكلٍ مجملٍ ومختصرٍ :

عصا موسى (ع) :

إن أول الآيات العجيبة التي أرسل بها موسىٰ (ع) إلىٰ فرعون وقومه ، والتي يجب أن نؤمن بها جميعاً ، هي آية العصا وهي العود الخشبي التي ألقاها موسىٰ (ع) فصارت فجأة ثعباناً عظيماً ، كان أحد فكيه أسفل قصر فرعون والفك الآخر فوق القصر ، حتّىٰ أن فرعون فزع منه ، وطلب من موسىٰ راجياً أن يُعيده

إلى صورته الأولىٰ بلىٰ فهي ذات العصا التي صارت ذلك الأفعىٰ الكبير ، الذي نلقف ما صنعه السّحرة وفي ذلك يقول الله تعالى في كتابه المجيد : ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا﴾[1] .

وهي ذات العصا التي بها ضرب البحر فانفلق ، حتّى اجتازه موسىٰ (ع) وأصحابه وأتباعه ، وفيه يقول تعالىٰ : ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم﴾[2] .

ثم هي العصا ذاتها التي ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً﴾[3] .

ربّ موسىٰ لا ينام :

اتفق السحرة بينهم وقالوا حينما ينام موسىٰ بن عمران نذهب إليه ونسرق العصا منه فان كانت من السحر في شيء نأخذُها منه وان لم تكن لها صلة بالسحر فان النوم واليقظة لموسىٰ أمرٌ واحد ولا فرق عنده في ذلك ، وحالما ذهبوا لسرقتها تحولت العصا من ذاتها إلى ذلك الثعبان الكبير وراح يهجم عليهم ، فما كان منهم إلاّ ان لاذوا بالفرار إلىٰ قومهم يخبرونهم بأن موسىٰ كان نائماً لكن عصاه يقظةٌ لا تنام .

اليد البيضاء :

اما الآية الثانية التي دلّ بها موسىٰ على نبوته ورسالته عند فرعون وقومه فهي آية اليد فعندما كان موسىٰ (ع) يضع يده في جيبه ثم يخرجها بيضاء أي ان نوراً يشع كنور القمر من يده يضيء ما حولها وفي ذلك يقول تعالى : ﴿واضمم يدك إلىٰ جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آيةً أخرى﴾[4] .

---

(١) سورة طٰه ، الآية : ٦٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية : ٥٠ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٦٠ .
(٤) سورة طٰه ، الآية : ٢٢ .

الطوفان المهيب (الفيضان المرعب) .

الفيضان المرعب هو الآية الثالثة من آيات موسىٰ (ع) ، فأيما جهد ، وسعي بذله كليم الله من أجل أن يؤمن فرعون وآل فرعون ، ويكفوا عن طغيانهم ووثنيّهم ، لم يكونوا يستجيبوا بل يزدادون إثماً وآستكباراً ، حينئذٍ لم يجد موسىٰ مفرّاً سوىٰ أن ينزح عن مصر هو وقومه الذين آمنوا به من بني إسرائيل ، الذي كانوا يقبعون بزنزانات وطوامير الفراعنة ، فعرض موسىٰ على فرعون ان يُطلقهم من الحبس ، ويرحل معهم عن بلاد مصر ، لكن هامان وزيرَ فرعون أشار على سيده ، بأنه إن أطلق بني إسرائيل ، فانهم سيؤازرون ويلتفون متحدين حول موسىٰ (ع) وعندئذٍ ستكون الكلمة لهم والطغيان في الأرض .

فآقتنع فرعون بما أشار عليه وزيره ، ورفض ما طلب منه موسىٰ (ع) .

فآضطر نبيّ الله هنا إلى أن يظهر معجزة وآية أُخرى بعصاه . فذهب إلى شاطىء النيل ، وضرب بعصاهُ على الماء ، فطغىٰ الماء بقدرة الله سبحانه وفاض من النهر وراحت أمواجه تقتحم كل مكان ذي صلة بالفراعنة ، فدخل الماء بيوتهم وأغرق أُسرتهم مما آضطروا إلىٰ الفرار نحو البراري والصحاري .

والشيء الأعجب من هذا إن الماء في الوقت الذي لم يترك بيتاً وقصراً للفراعنة لم يدخله ، هو نفس الماء لم تدخل قطرة منه بيوت بني إسرائيل الذين هم مؤمنوا ذلك العصر ، وكانوا في بيوتهم آمنين مطمئنين . وبالإضافة إلى أن الماء أغرق شوارع ومساكن الفراعنة فانه قد أغرق أيضاً بساتينهم وحقولهم ومزارعهم ، وأتلف كل ما فيها بما أجر ذلك فرعون ـ (عليه اللعنة الأبدية) ـ أن يلجأ إلىٰ موسىٰ ويطلب منه أن يدعو ليكفّ الفيضان الهائل واعداً إياه بإطلاق السجناء من بني إسرائيل فما كان من موسىٰ (ع) إلاّ أن دعا ربّه وضرب النيل مرة أخرى بعصاه فهدأ الفيضان وعاد الماء إلى مجراه وأما الوعد فقد نكثه فرعون ، ولم يفِ بأقواله وبقي المسجونون من بني إسرائيل حيثُ هم .

الجرادُ الآيةُ الرابعة :

وأما الآية الرابعة التي أُبتلي بها فرعون وقوم فرعون هو الجراد الذي سُلط عليهم وكاد يهدد وجودهم وحضارتهم ويكون سبباً في فنائهم وزوالهم ، فبعدما كشف العذاب والبلاء السابق ، وهو بلاء الطوفان ، ولم يفِ فرعون بما وعدَ عليه موسىٰ (ع) ، سلط الله سبحانه وبدعاء موسىٰ (ع) عليهم الجراد ، فكان آية من آيات موسىٰ وأيّ جراد هو ؟ لم يكن هذا الجراد الذي نعرفه اليوم الذي يكتفي بقضم وتناول كل ما هو أخضر ، بل كان نوعاً غريباً وعجيباً من الجراد ، لقد كان يأكل كل شيء يصادفه ويصطدم به الزروع ، والفواكه والحبوب والملابس ، والأبواب والشبابيك والأخشاب الجافة ، وحتّى مسامير الحديد ، وشعر الإنسان وقد غزاهم في كل زاوية من بيوتهم إلاّ بيوت بني إسرائيل المؤمنين برسالة موسىٰ (ع) ، فلم يكن يدخل بيوتهم ولا يمسُّهم بأي ضرر أو أذىٰ سواءاً بهم أو بممتلكاتهم وأثاثهم ، فقد كان مسلطاً ومعنيّاً بفرعون وقوم فرعون وحسب .

لقد تسببت آفة الجراد هذه لآل فرعون من الأذى والاضرار ما بلغ بهم الجزع والتذمر بل راحوا يستغيثون منه ، ولا يعرفون ، بل لا يقدرون على التخلّص من أذاه وشره وخطره ، وأنّى لهم الحيلة ؟ .

فما كان من فرعون إلاّ ان يلجأ إلىٰ موسى (ع) مرة أخرىٰ ويقطع عهداً جديداً أنْ إن زال الجراد وشرّهُ عنهم ، فسوف أسلّمكَ بني إسرائيل ، فدعا موسىٰ (ع) ربّه أن يقشع هذه الآفة عنهم ، فاستجاب الله سبحانه له وقُضي علىٰ الجراد كله ، وزال ، لكنَّ شيئاً لم يتغيّر ، ولم يزل بنو إسرائيل في حبسهم .

وينبغي هنا الإلتفات إلى مدىٰ الحلم والإمهال الإلٰهي لفرعون وقومه .

القُمّل الآية الخامسة :

في كل مدة يتصوّر فرعون أنه عاد في مأمن من البلاء حينما يرفع عنه بدعاء موسىٰ (ع) ، وقد نسي أن الله لا يغفل عن عبده ، وأنه للظالمين بالمرصاد ، فحينما لم يفِ بما قطعه من العهد السابق ، أُبتلي هذه المرة هو وقومه بالقُمّل ، وأي قُمّل كان لم يبق مكان من أبدانهم لم يلسعه القُمل ، حتّىٰ بدت وكأنّها مصابة بالجُدري والجروح تنتشر في كل ناحية منها ، وقد آزداد القمل بشكلٍ بات يسلبُهم نومهم وراحتهم ، وقد انتشر في كل مكان من بيوتهم وأثاثهم ، وحتى أطعمتهم فغدت مخلوطة بالقُمّل ويأكلونه هكذا ولا حيلة لهم على دفعه .

وهذه المرة يأتي فرعون مستغيثاً بموسىٰ قاطعاً له وعداً جديداً ، بأنه سيُحرّر قومه من أغلاله ، ولمّا كان حلم الأنبياء (صلوات الله عليهم أجمعين) من حلم الله سبحانه ، يرفع موسىٰ (ع) هذه المرة أيضاً بالدعاء أن يا إلٰهي إدفَعْ عنهم القُمّل ، ويزول القمل ويرتفع ضرره وأذاه ، فيعود فرعون مرة أُخرىٰ إلى غروره وكبريائه وينقض العهد ويُخلف الوعد ، والله سبحانه بالمرصاد .

الإبتلاء بالضفادع الآية السادسة :

ولما نقض فرعون وعده سلّط الله عليهم آفة الضفادع فأمر عبده ورسوله موسىٰ (ع) أن اضرب بعصاك البحر فلم تبق ضفدعة ماكثة في البحر لم تخرج إلىٰ اليابسة وتغزو ديار الفراعنة ومساكنهم ، فامتلأت ملابسهم وأمتعتهم وأثاثهم وكل شيء بهذه الضفادع ، حتىٰ أنهم إذا أرادوا الجلوس لم تخلُ أماكنهم من الضفادع ، في الجدران والسقوف ، بل ما عادوا يفتحون أفواهَهم حين أكلهم الطعام حتّىٰ يسبق الضفدعُ اللقمةَ ، حتى بلغ بهم الجزع مبلغهم ، ويطأطأ فرعون لموسىٰ رأسه مرة أخرى أن الغوث ويقطع له العهد والوعد ، ووعداً لوعدٍ أنْ لا يكون كما سبق من الوعود والعهود المنقوضة .

والعجب هنا من ناحيتين ، العجب من هؤلاء الذين يقهرهم البلاء الإلٰهي ، ثم لا يتعظون ، ولا يتوبون ، وفوق ذلك لا يلتزمون بما واثقوا عليه ، والعجب الآخر هو طول الحِلم الإلٰهي والإمهال والصبر على الأذى ، وهذه المرة أيضاً يرفع عنهم بلاء الضفادع ، ولكن من غير وفاءٍ بالوعد والعهد .

مياه النيل تضحىٰ دماً الآية السابعة :

لمّا لم يفِ فرعون بوعده السادس ضرب موسىٰ (ع) ماء النيل بعصاه ، فصار دماً أحمر قانياً ، وليس ماء النيل وحده ، بل غدا كل ماء دماً بيد العصاة من آل فرعون ، لكنه بقي ماءً على حاله لدىٰ بني إسرائيل ، وقد أُبتلي فرعون نفسه بهذا البلاء ، حتى أنه جاء في الروايات أنه كان يمتص عصارة النباتات لينجوَ من الهلاك بالعطش ومع ذلك كان حتّى هذا الماء الخارج عن النبات يتحول إلى دمٍ في فمه .

وقد أُضطر آل فرعون إلى اتباع بعض الحيل ، فكانوا يأتون إلىٰ بني إسرائيل يطلبون منهم الماء أو أن يحملوه بأيديهم ويُعطونه إليهم فيرونه بأعينهم ماءً لكنْ حالما يأخذونه ينقلب دماً ، وعندما لم تنفع هذه الطريقة توسلوا بطريقة أخرى ، وهي أن طلبوا من أفراد بني إسرائيل أن يزقّونهم بالماء من أفواههم ففعلوا ، فكان يخرج ماءً ، وحالما يدخل في أفواههم هم يتحول دماً ، ولا عجب في ذلك فالحيلة والمكر لا ينفع مع المكر الإلٰهي .

أرض القيامة عند الصالحين والمفسدين :

هل غاب عن ذهنك أن الأرض في القيامة كفرن صهر الحديد ، أي أنها في منتهىٰ الحرارة وشدتها ، أمّا هي لمن ؟ إنها كذلك للكُفار والفجار والمنافقين ، وكل المفسدين في الأرض . وأما المؤمن ، فانه سيستشعر البرد تحت قدميه إنها بردٌ وسلامٌ بالنسبة للمؤمن الصالح لا يمسه أدنىٰ منها بل إنه في

غاية من الراحة والطمأنينة بينما المنافق والكافر فانها أشد حريقاً عليهم من النار .

وفيما يخص الآية السابعة بالنسبة لفرعون وآله ، فانه ذات الشيء ، فالماء ماءٌ عند المؤمنين من بني إسرائيل ، ولكنه دم لا يُجرع حالما يقع بيد الفرعونيين ، في متناولهم فهم كانوا يستغيثون ببني إسرائيل أن اسقونا الماء بأفواهكم ، فيفعلون ، ولكن بلا فائدة ترتجىٰ ، فحالما يدخل الماء حلقومهم يغدو دما قانياً ، ومثل هذا الموقف سيُشاهد في القيامة غداً ، فأهل السوء والكفر يستغيثون بالمؤمنين أن انظروا إلينا لنتمتع قليلاً بنوركم ، وذلك لما يعانونه من ظلمة ما بعدها ظُلمة ، وفي القرآن صورة عن لسانهم **﴿يوم يقولُ المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم﴾**[1] فيأتيهم الجواب **﴿قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً﴾**[2] أي إن نورنا هذا لا ينفعكم أبداً ، كان عليكم أن تأتوا بهذا النور معكم من الحياة الدنيا ، فارجعوا إن استطعتم واقتبسوا من النور ، وهل ذلك بامكانهم ؟ . هيهات هيهات لهم .

على أية حال ، فعلىٰ كل شخص أن يبذل جهده ، ويسعىٰ ويُشمّر ساعداً في هذه الدنيا ليوم لا محالة آتية ، وعندها لا يكون معه ويصحبه سوىٰ عمله « واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ، فالأولى بالإنسان اليوم أن يفكر بغدِهِ وما يعُد له ، وأن يلتفت إلىٰ نفسه فما تأثير الغير على الإنسان إن هو آمن واهتدى والله تعالى يقول : **﴿يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم﴾**[3] .

إن ما نخافه ونحذره في ذلك اليوم أن نذهب وما لنا من النور إلاّ الضئيل

---

(١) و (٢) سورة الحديد ، الآية : ١٣ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ١٠٥ .

القليل ، وعندها نئن ونبكي ونقول : ﴿ربّنا أتمم لنا نورنا﴾ [1] فهناك لا ينفع الندم والبكاء والعويل ، مهما طال ، فلا عودة إلى الحياة الدنيا ، لا عودة ولا رجوع مهما استغثنا ودعونا أن يا ربّنا ارجعنا علّنا نعمل صالحاً ﴿ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلّا إنها كلمةٌ هو قائلها ، ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثون﴾ [2] ربما نؤمّل أنفسنا في تلك الساعات الرهيبة بالعودة إلى الدنيا لنعمل الخير أو نعطي صدقة أو نفعل جميلاً ، ولكن هيهات لنا ذلك ، فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل ، فالفرصة الآن وليست غداً ، ﴿كلّا انها كلمةٌ هو قائلها﴾ .

القحط والبَرَد الآية الثامنة والتاسعة :

أما الآية الثامنة من آيات التحذير والتخويف الإلٰهي التي لم يأبهوا بها أيضاً ، بل ربما كذّبوها هي آية القحط ، حيث جفت أراضيهم وماتت مزارعهم ، ويبست بساتينهم ثم تلتها الآية التاسعة وهي آية البَرَد الشديد الذي هطل من السماء [3] ، بكل قوة عليهم ، ولم يكن من البَرَد العادي المعروف ، بل قيل : إن في داخله ناراً ، وقيل : إنه أحمر اللون وقد مات الكثير منهم بسببه ، ومع ذلك فلم ينتبهوا إلىٰ أن هذا بلاءٌ آبتلوا به وعذابٌ نازلٌ عليهم ، ولم يتعظوا ، ولم يفوا بوعودهم التي أعطوْها لموسىٰ (ع) بالإفراج عن السجناء من بني إسرائيل .

وفي بعض الروايات ذُكر أن هناك آيتين آخرتين ، هما إنفلاق البحر

---

(١) سورة التحريم ، الآية : ٨ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٣) وورد في بعض التفاسير أن بدل البَرَد نزل الوفر الأحمر الذي لم يألفه أحدٌ من قبل وقد تسبب في جزعهم حيث أن كثيراً منه هلكوا بسبب ذلك .

وانفجار الحجر عن اثنتي عشرة عيناً .

على أية حال ، فانه رغم هذه الآيات الإلٰهية الواضحة التي تعتبر كل واحدة منها درساً عظيماً ، وكافياً للعبرة والموعظة ، وعلىٰ آمتداد الأربعين سنة التي أُبتلي بها آل فرعون ، رغم ذلك كله لم تنفع معهم ولم تؤثر فيهم ، وظلوا على طغيانهم واستكبارهم وظلمهم للمؤمنين .

الآيات العقلية والسمعية :

يرىٰ بعض المفسرين ، ومن خلال كلمة ﴿كُلّها﴾ التي أعقبت كلمة ﴿آياتنا﴾ في قوله تعالى : ﴿كذّبوا بآياتنا كلّها﴾ بأن المراد بالآيات هو جميع الآيات العقلية والسمعية ، فيكون المعنىٰ إن قوم فرعون أنكروا جميع الآيات العقلية وغيرها .

وفضلاً عن تلك الآيات الخلقية والقهرية المذكورة والتي أنكروها وكذّبوها ، كذلك كان شأنهم مع الآيات السمعية ، فالآيات العظام التي بعثناها هم الأنبياء ، ومنهم موسىٰ وهارون اللذان كذب بها آل فرعون .

وكالذي مرّ ذكره فان تكذيب وانكار نبيّ من الأنبياء إنما يعنِ تكذيباً لكلّ الأنبياء .

مللُ موسىٰ (ع) واشمئزازه :

وهكذا شيئاً فشيئاً يزداد اضطهاد بني إسرائيل ، وتتفاقم معاناتهم وآلامهم فيطلبون من نبيّهم أن ييأسَ من فرعون وقومه ، فلا أمل في هديهم وتوبتهم بعد كل هذا الذي لمسوه من الفتنة والإبتلاء بالآيات السابقة ، فيتجه موسىٰ (ع) إلىٰ ربّه ويُكلّمه « يا ربّ إن هؤلاء الفراعنة ، قد طغوا وتمرّدوا بما أوتوا من المال والثروات ، وآستعبدوا بني إسرائيل » « وحقاً فان الثروة والمال يولّدان الغرور ،

والكبرياء » ثم يدعو موسىٰ ربّه ، وفي القرآن صورة عن هـذا الحوار القـدسي « ربّنا إنّك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ، ربّنـا ليُضلّوا عن سبيلك ، ربّنـا آطمس على أموالهم وآشـدُدْ علىٰ قلوبهم فلا يؤمنـوا حتّىٰ يروْا العذابَ الأليم » .

وبدعاء موسىٰ ونفوره من فرعون وقومه ، فان كل أموالهم وممتلكاتهم من الثـروات الطائلة والكنـوز الهائلة ، وحتّى مخـزونـاتهم من الـطعـام « الحنـطة والشعير » وحيواناتهم كلّها آلت إلى حجر وصخر ، فلم يعُد بإمكـانهم الإنتفاع بها والإستفادة منها .

هروب بني إسرائيل :

بعد بلوغ اليأس من فرعون وقومه المصريين يأذن موسىٰ (ع) لأتباعه من بني إسرائيل أن يخرجوا في جوف الليل خلسةً من بلدة الفراعنة الذين يشملهم العذاب عما قريب .

وواعد موسىٰ (ع) بني إسرائيل بأنهم سيعبرون النيل بسلام واطمئنـان ، لكن ذلك لن يكون إلاّ حين طلوعَ البدر ، وحين يخبرهم موسى (ع) بنفسه .

وفعلاً فقد خـرج بنو إسـرائيل في جـوف الليل فـرادى إلى خارج البلدة وآجتمعوا مع نبيّهم عند ضفاف النيـل ، وتهيّأوا للعبـور ، لكن البدر لم يـطلعْ بعد .

حملُ جثمان يوسف (ع) :

يقول العلاّمة المجلسي (عليه الرحمة) إن هناك عدة روايات موثوقة في شرح هذه القضية وتطوراتها ومضمونها : إن موسىٰ (ع) لمّا وجد البدر لم يطلع بعد ناجىٰ ربّه ، وقال : إلٰهي لِمَ لم يطلعْ البدر ؟

فنودي بالجواب ، عليك أن تحمل معك جسد النبي يوسف (ع) وتدفُنَه ، وكان جسد يوسف (ع) قد وضع في تابوت صخري وأودع في مكان خاص على ضفاف النيل .

فنادى موسىٰ في قومه : ألا هل منكم من يعلم أين يكون جسد يوسف الصديق (ع) ؟ فلم يعرف ذلك أحد ، ولا يعلم به سوى آمرأة عجوز عمياء مشلولة فقالت : أنا أعلم ، ولكن إذا لم تقض لي حاجتي فلن أقول ، فسألها موسىٰ (ع) وما حاجتك ؟ فقالت : إنها أن أعود شابة ، وأبرء من شللي ، وتبصر عيناي ، وأن أكون زوجتك في الجنة . وسكت موسىٰ عن جوابها قليلاً ، فنزل الوحي مخبراً إيّاه أن حاجتها عندنا ، فدعا موسىٰ (ع) وقضيت حاجتها إذ وقفت على قدميها وعادت شابة وعاد النور إلى عينها فنظرت ثم صحبت موسىٰ ومعه أتباعه من بني إسرائيل إلى حيث محل الجسد ، فاستخرجوا التابوت وحملوه معهم .

فرعون يلاحق بني إسرائيل :

ولقد طال المقام ببني إسرائيل عند ضفاف النيل وفرارهم من البلدة ، حتى بلغ ذلك أسماع فرعون فنهض معبئاً جنده وقومه وكانوا مليوناً وستمئةِ ألف شخص وتجهّزوا لملاحقة موسىٰ (ع) وأتباعه من بني إسرائيل ، ثم تحركوا نحوهم ، وقد شجع قادة فرعون سيّدهم وحرّضوه بأن بني إسرائيل قلة قليلة ، وهم ينصبون العداء لنا ويغتاظون منا ، وكما عبّر عن ذلك القرآن المجيد إذ يقول تعالى عن لسان حالهم : **﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنّهم لنا لغائظون﴾** .

وحالما بانت مقدمة جيش فرعون لبني إسرائيل بدأ عليهم الجزع والفزع وقالوا لموسىٰ (ع) : ها نحن الآن سنقع بأيديهم ونعود مرةً أخرىٰ للعذاب والإضطهاد والإستعباد ، فأجابهم موسىٰ (ع) إن وعد الله حق ، ولن يخلف الله

وعده وستمضون جميعاً بسلام وتنجون من فرعون وطغيانه وبطشه .

يوشع يمرُّ علىٰ الماء :

في رواية أن يوشع (ع) وهو وصي موسىٰ (ع) سأل مولاه ما هو الوعد الإلٰهي لنا فقال موسىٰ (ع) ان يُنجّينا من الغرق في الماء ، فمضىٰ عندئذٍ بيقينٍ صادقٍ يعبرُ بالنهر ماشياً علىٰ الماء ، حتى اجتاز النهر ، وكأنه يمشي علىٰ أرض صُلبة ، لكن بني إسرائيل ، ضِعاف الإيمان ، لم يجرأوا أن يضعوا أقدامهم علىٰ الماء ليعْبرُوا ، وقالوا : لا بُدّ من أن ينفلق البحر حتىٰ يجتازه فدعا موسىٰ (ع) بجاه محمد وآل محمد ، ثم ضرب الماء بعصاه ، فانفلق البحر وتراكمت المياه علىٰ الجانبين .

تشابك جدران الماء :

وحينما انفلق البحر ، قال بنو إسرائيل لنبيّهم نحن آثنتي عشرة قبيلة ، وربما نتنازع في مسيرنا ، لذا لا بُدّ لكل قبيلة منا طريق تسلكه ، فضرب موسىٰ (ع) بعصاه فانفتح إثنا عشر زقاقاً في البحر وتراكمت المياه وكأنها التلال العالية بين الأزقة المفتوحة ، ولا زالوا لا يجرأون على المضي ، فاحتجّوا هذه المرة قائلين : إن أرض القاع من الطُمىٰ ونخشىٰ أن لا نقدرَ علىٰ السير فيه لأن أقدامنا ستغطس فيه ، نعم هكذا كانوا ضعافاً في إيمانهم ودينهم وهذا هو ديدنهم علىٰ مرّ التاريخ ، مع جميع أنبيائهم ، فهم لم يُصدّقوا نبيُّهم وسيّد أنبيائهم موسىٰ (ع) حينما وعدهم من أول مرة بالنجاة من الماء إلاّ القلة القليلة منهم من أمثال الوصي يوشع الذي عبر ماشياً علىٰ الماء ، وهذه المرة دعا الله فجعل الطين والطمىٰ متماسكاً قوياً بحيث لا تغطس فيه أرجلهم ثم هبت رياح جعلت القاع يجف زيادة لهم في الإطمئنان فبدأوا بمسيرتهم في طرقاتهم الاثنتي عشرة التي فتحت لهم .

فجأة آنطلق صوت واستغاثة وصلت إلىٰ أسماع موسىٰ (ع) فآستفسر ممن حوله ما آلخبر ؟ فقالوا له : أدركنا لقد غرق بعض أصحابنا ، أدركنا هلك أتباعنا فدعا موسىٰ ربّه أن يجعل جدران المياه ، متماسكة متشابكة كي يقدرَ كل واحد منهم أن يرىٰ الآخرين من جماعته .

وفي نهاية المطاف مرّوا جميعهم بسلام وعبروا النهر ، وحالما وصلوا تلك الضفة الأخرى كانت حشود فرعون وجحافله قد بلغت الضفة الأولىٰ وحينما رأوا جدران المياه وتلالها المتراكمة اندهشوا ، وقالوا لملكهم « فرعون » : أنظر إلى المعجزة الإلٰهية العجيبة هذه التي جرت على يد موسىٰ ، لكن هذا المتكبر المتغطرس الذي لا يستحي من الله وكان يرى المشهد العجيب ، ورغم ذلك ، قال ؛ كلا إن هذا يخالُ إليكم وقع علىٰ يد موسىٰ بل إنه وقع على يدي ، فلقد شئت أنا أن ينفلق الماء ، فصار ذلك بمحض مشيئتي ، فهلمّوا بنا نتعقبهم حتّى نقبض عليهم .

غرق فرعون وجحافله :

انطلق فرعون سالكاً وجيشه وراءه ذات المسالك التي سلكها موسىٰ وقبائل بني إسرائيل ، وكان فرعون راكباً صهوة جواد ، فتردد يتوجس الخوف في قرارة نفسه لكنّه لم يُرد إظهار ذلك كي لا يبدو منكسراً مهزوماً ، أمام أتباعه وأعداءه ، وجاء في مضمون إحدىٰ الروايات أن جبرائيل هبط عليه إلىٰ الأرض راكباً على فرس ، وكان يتقدم جواد فرعون ، وحينما وقعت عينا الجواد على الفرس همَّ يجري وراءها ومضىٰ جيش فرعون يتبعه ، حتّى دخل وديان المياه آخر شخص من أتباع فرعون ، وصار الجميع في هذه الأزقة وحلت حينها الساعة الإلٰهية الموعودة ليمضوا من الهلكة في الدنيا إلى عذاب الآخرة ، وذلك كما يصوره السياق الكريم :

﴿فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ :

والعزيز بمعنىٰ الغالب القاهر الذي لا يُغلب عليه ولا يقهر ، فيكون المعنيُّ هو الله سبحانه فله العزة التامة المطلقة ، وكلُّ ما دونه ذليل صغير محتاج إليه ، ولا بد من أنه مغلوبٌ ، فان لم تكن غلبة في نزاع أو قتال أو منافسة ، فانها تكون بضعفٍ أو هَرَمٍ أو مرضٍ يُصيبه ، وإن لم يكن مثل هذا أيضاً ، فالموت غالِبُه وقاهره في نهاية المطاف ، إذن فلا عزة ولا غلبة حقيقية تامّة دائمة ومطلقة إلّا لله سبحانه .

والمقتدر أي القادر بالقدرة المطلقة ، فيكون معنىٰ الآية أنّنا أخذنا آل فرعون أخذ الغالب القادر ، وكيف تمّ ذلك ؟ لقد جاء أمرنا لتلك المياه المتراكمة أن تعود إلى طبيعتها الأولىٰ ، فاندفع الموج من كل جانب وأطبقت المياه على فرعون وجنوده وأتباعه ، وعندها آستيقن فرعون وأدرك الأمر والقدرة الإلٰهية ، ومات غروره وكبريائه وزالت عظمته وبطشه في لحظةٍ واحدة ، ولكن ما الفائدة ؟ عندها قال فرعونُ مُستسلماً كما ينقل لنا القرآن حال لسانه : ﴿حتّىٰ إذا أدرَكَهُ الغَرَقُ قال آمنتُ أنّهُ لا إلٰه إلّا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين﴾[1] فكان الردّ الإلٰهي علىٰ آعترافه الذي لا مفرّ له منه ﴿الآن وقد عصيت قبلُ وكُنت من المفسدين﴾[2] .

نعم هكذا لُطِمَ علىٰ فمه ليذهب إلىٰ العذاب الأبدي .

ترىٰ أين هو من طول هذه المدة والمهلة التي أُمهل بها ونبي الله يدعوه دعوة الحق ليتوب ويؤمن ويكفَّ عن قول الألوهية والربوبية وعن ظلمه واضطهاده للمؤمنين بدعوة الله ورسالته ؟ وأين هو من كل تلك الآيات العظام التي شاهدها وعاشها، والمعاجز التي يؤمن لها الصخر والحجر، فكم من بلاء ومصيبة نزلت به

---

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ٩١ .

وبقومه ، وهو ما يزال بينهم مستكبراً مغروراً ينادي : ﴿أنا ربّكم الأعلى﴾ ووزيرُه يُشيّد له الصرح ليبلغ ربّ موسىٰ (ع) بزعمه ، أما الآن وقد حال الموج بينه وبين غروره وطغيانه فلا جدوىٰ ولا مفر له من العذاب بعد أن رآه أمامه وإن كرّر آعترافه ألف مرة .

لم يكن أكثر من كلام :

يرىٰ البعض من المفسرين أنّ حتّى اعتراف فرعون هذا ، وإقرارَه إنّما هو مجرد كلام ولفظ نطق به ، وقد جعله مكراً في نفسه ، قال تلك الكلمات لعلّ الله يُنجيه من الغرق في تلك الساعة ، ثم يعود بعدها ، كما هو دأبه في كل مرّة ، فحين وقوعه في الشدة والمحنة يلجأ مضطراً إلىٰ موسىٰ (ع) طالباً منه أن يدعو ربّه ليزيل عنه وقومه تلك الشدة والمحنة ، وواعداً إياه بالكف عن الظلم والطغيان ، لكنه سرعَان ما يتنصلُ عن أقواله ووعوده .

فاعترافه كان مجردّ كلام كما تراه هذه المجموعة من المفسّرين ، لكن البعض الآخر يقول : إنه ربما كان صادقاً في تلك اللحظة بإيمانه وتوبته ، لكنّ هذه التوبة لم تُقبلْ لأنه رأىٰ العذاب رأيَ العين ، ثم أعلن توبته ، ومثلها لا يُقبل لعديم فائدتها وجدواها ، وفي ذلك يقول القرآن المجيد : ﴿وليست التّوبة للّذين يعملون السّيئات حتّىٰ إذا حضرَ أحدَهُم الموتُ قال إنّي تُبتُ الآنَ وَلا آلّذين يَموتونَ وهم كُفّارُ أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾[1] فكل واحد حين يرىٰ الموت بعينيه ثم يقول أستغفر آلله ، فان مثل هذه توبة آضطرارية لأن الفرصةَ لا تسنح بعدها كي يعود إلى آقتراق الذنوب والمعاصي ومثل هذه التوبة لا قيمة لها .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٨ .

الندم والتصميم علىٰ الإمتناع والترك :

إن للتوبة شرطين أساسيين هما الندم على اقتراف من الذنب والمعصية أولاً ، والتصميم علىٰ الإمتناع والترك في المستقبل ثانياً . لذلك فالذي يرىٰ نفسه أنه لا محالة ميت وهالك ، وليس أمامه من مستقبل يبني عليه الآمال السيئة والنوايا الخبثية في اقتراف المزيد من الذنوب والآثام أو ربما يتجنّبها ويمتنع عنها حقاً فان توبته هذه ، كالتوبة في زاوية القبر ، لا فائدة منها ولو كان يُقبلُ مثلها لقُبلتْ التوبةُ في جهنّم أيضاً .

علىٰ العموم ، فان فرعون كان من المغرقين وواحداً من سبعةٍ هم أشدُّ الناس عذاباً في نار جهنم يوم القيامة .

رحمة الله سبحانه سبقت غضبه :

إن الله سبحانه صاحب ألطاف عظيمة وهو في ذات الوقت جبارٌ قاهرٌ شديدُ العقاب لكن رحمته ورأفته وألطافه تقدّمت سخطه وغضبه ، وغلبت عليها ، لذلك فانه سبحانه وتعالىٰ يتعامل مع عبده بالرحمة والرأفة واللطف والمغفرة ، ذلك أنه سبحانه يصف نفسه في كتابه المجيد ﴿كتب علىٰ نفسه الرحمة﴾ أي إنه سبحانه أوجب الرحمة على نفسه ، لكن العبد خلق مختاراً غير مكره ، فلو اختار السيء من نفسه وسلك مسلكاً سلبيّاً في حياته فاختار الكفران والتمرد والعصيان على الإيمان والطاعة والإنابة ، فكان مستحقاً لأن يُعامل بالردع والقهر ، والتأنيب والعقوبة ، فان الله سبحانه سيعامله بالذي طلبه بمحض اختياره السيء .

نعم لقد سبقتْ رحمتُه غضبه ، إنها أربعون عاماً مضت على فرعون وقومه العصاة العتاة كان الله سبحانه يعاملهم بحلمه ولطفه وبرحمته التي وسعت كلّ شيء ، نعم إنها أربعون عاماً كان فرعون يُنازعُ الله ربّه فيما يختصُّ به سبحانه

وحده ، ويقول للملأ : ان اسجدوا لي ، أنا ربّكم الأعلى ، - (والعياذ بالله) - ومع ذلك ، فـان الله سبحانـه الرحمٰن الـرحيم ، لم يبتلِهِ بأدنىٰ عِلّة كمـا تقول بذلك الروايات ، ولذلك فانه لما استغل الرحمة الإلٰهية والإمهال والفرصة التي سنحت له استغلالاً قبيحاً في الإصرار على تكبره وطغيانه والإمعان في غيّـه ، جعل الله له ساعة انتقام شديد منه وهي الساعة المار ذكرها والتي يقول تعـالىٰ فيها : ﴿**فأخذناه أخذَ عزيز مقتدر**﴾ أي عاملناه بالعزة والإقتدار اللذين كانا يغتر ويستكبر بهما .

فتبّاً وتُعساً ، فان ربّ العالمين وملك الملوك حين يشاء فانه يعامله بعزّته .

إلقاء فرعون خارج الماء :

بما كان جسدُ فرعون يحمل من الحديد والفـولاذ الكثير فيفتـرض به أن يغطس إلىٰ القعر وفق القانون الطبيعي ، لكن المشيئة الإلٰهية آقتضت أن يطفوَ جسدُ هذا الطاغية كي يكون عبرة لمن آعتبر ، ثم قذف به إلىٰ السـاحل كي ينظر إليه بنو إسرائيل ويزدادون عظةً وآعتباراً حينما يعودون إلىٰ مصر .

وبالفعل فقدْ شاهـد بنو إسـرائيل الجسـد وغنموا مـا عليه من الجـواهر والذهب والفضة وفي ذلك يقول تعالىٰ في كتابه المجيد : ﴿**كذلك وأورثنـاها بني إسرائيل**﴾[1] وفي شأن فرعون يقول تعالىٰ : ﴿**فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية**﴾[2] لكي يعلم مَنْ يطلعُ على مصير فرعون بأنّ الله سبحانه حين يُمهـلُ الطاغيـة والمغرور فـانه لم يُهملْه ويـدعْه في طغيـانه وغـروره إلى الأبد « حاشىٰ لله » أن يكون منه مثل ذلك ، بل إن له ساعـةً يجازىٰ فيهـا وينال مـا يستحقه ويعرف عنـدها معنىٰ الغـرور والكبريـاء والظلم والجـور ، عندئـذٍ فلا يُصيبينَّ أحداً الغرور والكبرياء بجاه يتمتع به ومال وثروة طائلة يملكها أو منصب

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٥٩ .

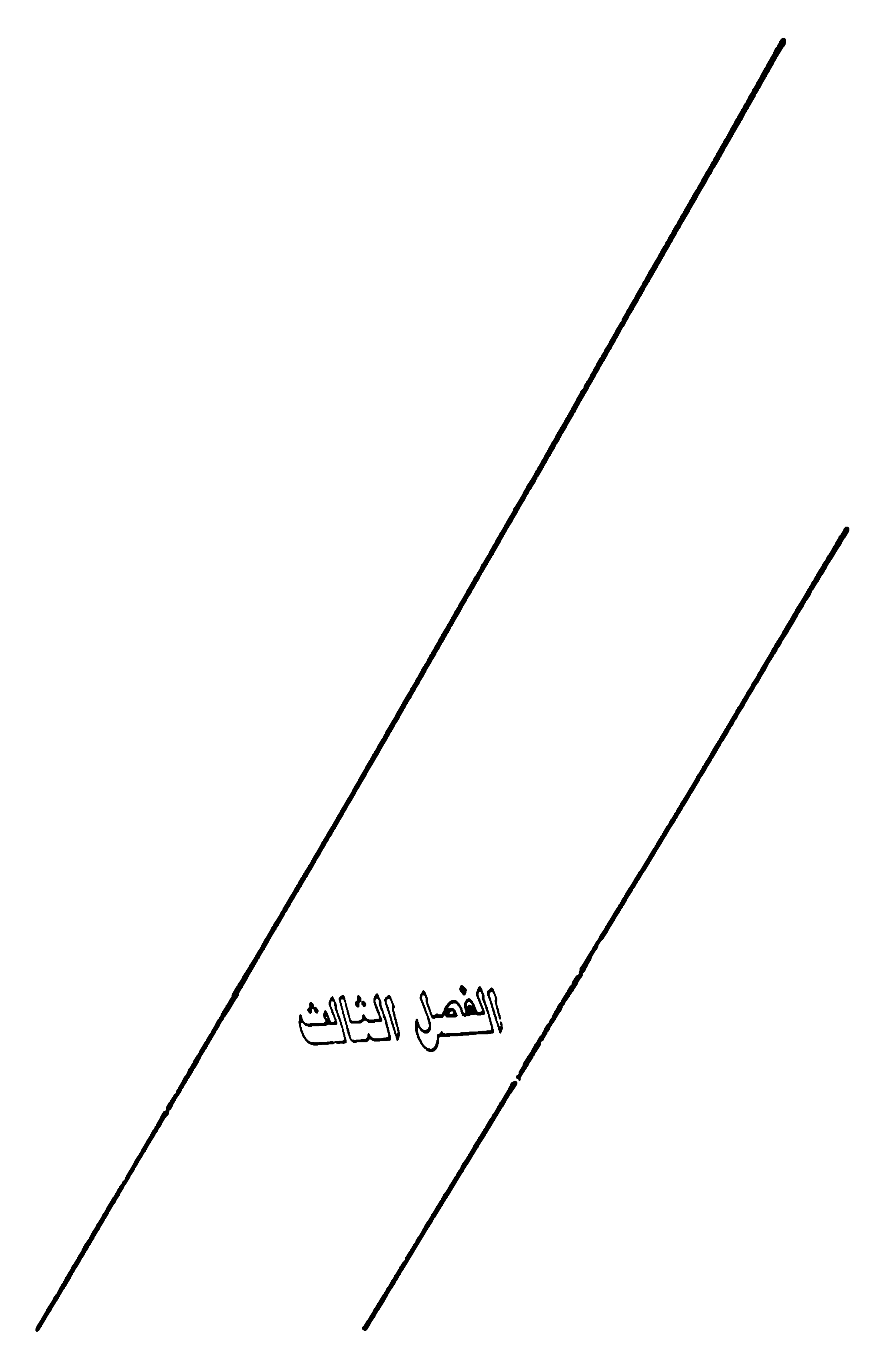
(٢) سورة يونس ، الآية : ٩٢ .

أو رئاسة قبيلة أو عشيرة ولا يغفلنَّ عن الله سبحانه وسطوته وجبروته .

كان ذلك عذابَ فرعون في الدنيا أما عذابه في برزخه والقيامة فان ذلك ما يبيّنه القرآن المجيد ولا حاجة لوصفه ﴿النَّارُ يُعرَضُون عليها غدوّاً وعشيّـاً ويوم تقومُ الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾ (١) .

---

(١) سورة المؤمن ، الآية : ٤٦ .



الفصل الثالث

« هل أنتم آمنون »

بعد عرض قصص الأولين مع أنبيائهم وابتلاءاتهم وعذابهم بما عصوْا ولم يتقوا ، وبما أشركوا ، وكفروا بأنعم الله يعود السياق القرآني مخاطباً الكافرين والمشركين من قريش فيقول تعالى :

﴿أكفّاركم خير من أولٰئكم أم لكم براءة في الزُّبر﴾ .

فبعد ذلك العرض المقتضب لقصص الأقوام الخمسة أي قصة نوح مع قومه وعاد وثمود ولوط وفرعون ، ينتقل السياق في الآية أعلاه مخاطباً مشركي قريش ، ترى هل ترون أفضليةً في كفاركم على أولٰئكم السابقين ، أنتم يا هؤلاء الذين يشع نور محمد (ص) نبيّكم ، انكم لستم أفضل من أولئك وليس لكم ما يُميّزكم عليهم ويجعلكم تتفرقون عليهم ، بل ربما إنهم كانوا أفضل منكم بكثير من حيث القوة والثروة والغنىٰ ومديد العُمُر .

فإذا قارنا بينكم وبين قوم عاد ، فأنتم لا شيء بالنسبة لقواهم الجسمية وضخامة هياكلهم البدنية ، فقد كانوا من القوة ما يمكنهم من حمل الصخور الكبيرة ونقلها ، واستخدامها في بناء أعمدة وسقوف قصورهم وقلاعهم ، بدلاً من الحديد ، وإن قورنتم من حيث المال والثروة ، فأين أنتم وما تملكون وأين فرعون وخزائنه ، ترىٰ في أي ميزة تمتازون عليهم ؟ .

﴿أم لكم براءة في الزُّبر﴾ :

أم إن لكم في الكتب السماوية ما يزكيكم وينـزهكم ؟ ويجعلكم أحراراً فيما تسلكون وتتعاملون ، وفيما تؤمنون به وتكفرون ، هل هناك في كتب السماء ورسالات الأنبياء ما يقول : إن العرب ناجون ، في مأمنٍ من عـذاب الله ، إن الجدير الذي يجعلكم تفرحون حقّاً ذلك عندمـا تخبر جميـع الكتب السماويـة عنكم وتقـول : إن العرب في منجـاة من عذاب الله ، وجـاء التأكيـد هنا على جميع الكتب السماوية أي الزبر التي وردت بالصيغة الجمعية ، لتبيان أنهم غير مبرّئين من العذاب بأي شكلٍ من الأشكال .

﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ :

أم يدّعون بأنهم كتلة واحدة يتعاونون ويحمل كلُّ واحدٍ منهم صاحبـه ، فهم غالبون بجمعهم وتحزّبهم ؟

ذلـك لأن المشـركين قـد تحـزّبـوا وآتفقت كلمتهم علىٰ تسـديـد الأذىٰ والإضطهاد لرسول الله (ص) وأصحابه المؤمنين بكل جرأة ولا يخافون أحداً ، فقد قاطعوا رسول الله (ص) والمؤمنين معه ثلاثَ سنوات ، لا يتعاملون معهم ، ولا يقيمون معهم أيَّـة رابطة ، كانوا يقولون إننا بأجمعنا في صـدد الإنتقام من الرسول (ص) وأتباعه .

أو ربما يكون معنىٰ ﴿منتصر﴾ أي متحدين لا نقبـل الهزيمـة والإنكسار والتراجع ، لأن كل واحد منا يدعم الآخر ويسند ظهره ويتعاون معه .

فيكون مفاد الآية أن الله سبحانه يخبر رسوله الأكرم (ص) إن هؤلاء ليسوا كما يدّعون ويقولون بأنهم متحدون ، وهو كمراد قوله تعالىٰ ﴿تحسبهم جميعـاً وقلوبهم شتّى﴾ .

ثم ينتقل السياق بـزفّ البشرىٰ ، بشـرىٰ انتصار الحق وانـدحار البـاطل

لرسول الله (ص) فيقول تعالىٰ :

﴿سيُهزم الجمعُ ويُولّون الدُّبر﴾ .

إنها من الأنباء الغيبية العظمىٰ للقرآن المجيد ، فالله سبحانه وتعالىٰ يخبر رسوله الأكرم (ص) ، إنهم أي مشركي قريش وكفارهم عمّا قريب مهزومون مندحرون ، وهذا الجمع الفرح المغرور بنفسه بما يجعله يتطاول على رسول الله (ص) ويصدُّهُ عن أداء رسالته وبث دعوته ، إنه لا بُدَّ أنه ممزقٌ وزائلٌ ومتشتتٌ ، نعم في ذلك اليوم الآت سيولي المشركون دبرهم ويفرون هلعين أمام سيوف المؤمنين .

إن هذا الموضوع لم يكنْ يُصدَّق في بادىء الأمر ، لكن الله سبحانه علاَّم الغيوب قد أخبر به رسوله (ص) بأن حزب هؤلاء مغلوب مندحر وأن جمعهم متفرق متمزق لا محالة .

« معركة بدر الكبرى »

لم تمض فترة طويلة على مقدم النبي المبارك إلىٰ المـدينة التي تنـورت بحط أقدامه الشريفة فيها ، وما هي إلاّ ثمانية عشر شهراً حتى وقعت معركة بدر الكبرىٰ التي هي من أعظم المعارك الجهادية ، التي قادها النبي بنفسه الشريفة إذ كـانت المعركـة الحاسمـة الفاصلة في التـاريخ الإسـلامي ، وكان الـوجـود والإستمرار الإسلامي يتوقف على نتائجها . وفي يومها تلا رسول الله صلى الله عليـه وآله الآيـة السابقـة التي نزلت قبـل وقوع المعـركـة ، بـل قبـل الهجـرة المباركة ، وحين كان النبي في مكة ﴿سيهزم الجمع ويُولّون الـدُّبر﴾ وعنـدها عرف المسلمون أن الوعد الإلٰهي بالنصر المبين قد آن أوانه .

(بدر) آسم عين أو مجموعة آبار قرب مكة ، وهو المكان الـذي دارت فيـه رحىٰ الحرب بين المسلمين ومشـركي قـريش ، وكـان في جـانب قـريش تسعمئـة وخمسـون من أبـطَالهم وفـرسـانهم بـرمـاحهم وسيـوفهم لقتـال رسول الله (ص) والمسلمين معه ، تحركوا وتجهزوا منطلقين من مكة المكرمة ، وقد تعهد كل واحد من أشراف قريش وكبرائهم بتحمل نفقات يوم واحد ، من طعام وشراب ، لجحفل قريش ، وقد كانوا قد عقدوا الآمال الطوال علىٰ النصر والنيل من رسول الله (ص) وأصحابه ، وقد غرّتهم هذه الآمال ، وحملتهم على أن يصحبوا معهم في خروجهم لحرب الرسول الشراب والمغنيات والراقصـات وأدوات العزف والطرب ، كي لا يشعرون بالضعف والتباطىء والفتور ، ويبعث

فيهم الهمة والشجاعة أثناء الحرب .

وقد وصل هذا الجيش ذو العُدة والعدد الكبير (بالنسبة لذلك اليوم) إلى منطقة قرب آبار بدر .

ومن الجانب الثاني كان جحفل رسول الله (ص) الذي لا يتجاوز عدد أفراده من الأصحاب والأتباع الثلاثمئة وثلاثة عشر نفراً ، ولا سلاح معهم سوىٰ سبعة سيوف . وأما البقية من الأصحاب ، فكانوا يحملون الأعواد وجريد النخل على ما يبدو ، ولا فرسان معهم ، بل كلُّ ما كان لديهم هو سبعون ناقةً وجملاً

ولذلك فان المسلمين من حيث عددهم وعدتهم لا يُقارنون بأي شكل من الأشكال مع جيش قريش ، وما تجهزوا به ، إضافة إلى أن معنوياتهم كانت قد هبطت عندما شاهدوا حشود قريش وفرسانها وأسلحتها ، وقد دبَّ الخوف إلىٰ قلوب الكثير منهم لانهم لم يعودوا يصدقون أنهم سينتصرون .

مطر الرحمة « الغيث » :

من الألطاف الإلٰهيّة التي شملت المسلمين في وقتها هو المطر الذي أنزله الله من السماء ، فكان في نزوله ضرورات عدة بالنسبة للمسلمين ، منها أنه عَمل على تثبيت الرمال وتماسكها ، فلم يَعُد المسلمون يعانون من المسير على الرمال التي كانت أقدامهم تغوص فيها في أحيان كثيرة ، وبعد نزولِ المطر كان مسيرهم سهلاً وسريعاً ، من ناحية أخرى إن المياه توفرت لهم بشكلٍ أنهم استعملوها للغسل والوضوء والطهارة من النجاسات العرضية ، علاوة على ريّ ظمأهم في تلك الصحراء وحرارة شمسها .

فنزول المطر كان أول الألطاف الإلٰهية التي تمتع بها المسلمون ، والتي جاء ذكرها في سورة الأنفال إذ يقول تعالىٰ : ﴿ويُنزّلُ عليكم من السماء ماءً ليُطَهِّركم به ويُذهِبَ عنكُمْ رجز الشيطان وليربطَ علىٰ قلوبكم ويُثبِّتَ به

الأقدام ﴾[1] .

وقوع المعركة :

قبل وقوع الحرب أرسل النبي (ص) رسولاً عنه إلىٰ المشركين يُعلمهم بأنه لا يريد الحرب معهم ، فتعالوا نتصالح ، فرفضوا عرض الرسول (ص) إليهم ، فقال (ص) لهم : إذا كان الفتح والغلبة لي ، فان أغلبكم من قبيلتي فأجابوه إننا لا نرضىٰ بغير هلاكك ومن معك !

عندئذٍ كان لا مفر من وقوع المعركة ، حيث بدأت بمبارزة بين وجهاء القوم ورجال المسلمين العظماء ، فكان عليّ (ع) وحمزة وشيبة ، بينما تقدم من المشركين عتبة والوليد وآخرين .

علىٰ العموم فقد قُتِلَ في هذه المعركة من المشركين سبعون فرداً من وجهاء قريش وأُسِرَ منهم سبعون آخرون على أيدي المسلمين ، وقد قُتل علىٰ يد علي بن أبي طالب (ع) فقط سبعة وثلاثون من المشركين ، من بين السبعين نفراً المقتولين ، حيث رحلوا إلى جهنم والعذاب الأخروي ، بسيف ذي الفقار ، أما البقية ، فقد قتلوا بيد بقية المسلمين ، ومعونة الملائكة التي هبطت من السماء لنصرة المسلمين ودعمهم .

العون الملائكي :

وفي ذلك يقول تعالىٰ في سورة الأنفال : ﴿إذ تستغيثون ربّكم فآستجاب لكم أنّي مُمدّكُمْ بألفٍ من الملائكة مردفين﴾[2] . وفي رواية عن أمير المؤمنين (ع) مفادها أنه قال : « كنت منهمكاً بمقاتلة المشركين والإشتباك معهم ، وبينا أنا راجع شاهدت رسول الله (ص) وقد وضع جبهته على التراب

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ١١ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ٩ .

وهو ينادي يا حيٌّ يا قيوم برحمتك أستغيث ، ثم عدت ثانية إلى ميدان الحرب وقاتلت المشركين ورجعت من الميدان فرأيت رسول الله (ص) لا زال ساجداً ، ويردد ذات النداء ، وفي الثالثة وجدته كذلك يفعل وقالها ثلاث مرات « اللّهم أنجز لي ما وعدتني » .

نعم فلقد كان ذلك اليوم يوماً مصيرياً حاسماً وتاريخياً ، فلو لم يكن النصر والغلبة للمسلمين ذلك اليوم العصيب ، لما كان للإسلام عودٌ يخضر ووجودٌ يستمر ، وفي تلك اللحظات جاء وعد الله سبحانه واستجاب لرسوله (ص) دعاءه ، فسُمعت أصواتُ دمدمة رهيبة ، فكانوا خمسة آلاف من الملائكة هبطوا بهيئة البشر يرتدون العمائم ذات الحنكين لمؤازرة المسلمين ، وفي ذلك يقول تعالىٰ في سورة آل عمران بشأن هذا العون الجديد : ﴿بلىٰ إن تصبروا وتتّقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا يُمددكم ربُّكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسومين﴾[1] وكانت علامة أولئك الذين قتلوا على يد الملائكة هو أن الدم لم يكن يسيل منهم ، وبعضٌ أُسِرَ بيد الملائكة وبيّنة ذلك أن يبساً ظهر علىٰ أيديهم .

مقتل أبي جهل :

لقد قتل في معركة بدر ألدّ أعداء رسول الله (ص) من قريش ألا وهُوَ أبو جهل (عليه اللعنة) وقصة مقتله هي أن آثنين من المسلمين الذين كانوا يقاتلون بين يدي رسول الله (ص) قالوا : اليوم يوم نقتل فيه أعدىٰ أعداء الله ورسوله ، وفي أثناء ذلك ، فأشار إليهم أبو جهل سيّء الحظ أن على نفسه أن يبارزوه فحمل عليه فهمٌ يدافع عن نفسه ويقاتلهم ، فكانت عاقبته أن وقعت ضربةُ سيف أحدهم علىٰ إحدىٰ رجليه فقطعتها فسقط علىٰ رأسه ، فآدّاركه ولدُه ، وقطع يدَ ذلك المسلم ، ومع ذلك فان المسلم كان فرحاً مسروراً ، وذلك لما أنزل بأبي جهل من الجراح التي لم يعُد بعدها يقوم ، وكم هي الذلة التي تصيب الجريح

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٢٥ .

المقطوع الساق حين يسقط على الأرض ، فتدوسه الخيل بأقدامها في أوج المعركة .

وفي اليوم التالي نادىٰ رسول الله (ص) في أصحابه من يأتيني بخبرٍ عن أبي جهل ؟

فنهض عبدالله بن مسعود وطلب الرُّخصة أن يذهب ويفتش عنه فرخَّصه رسول الله (ص) فسأل البعض من الأصحاب عن علاماته وما يتميَّزُ به ، ثم انطلق يبحث عنه حتّى وجده مطروحاً بين القتلىٰ ، وكان ما يزال حيّاً ، ففرح ابن مسعود لذلك ، لأنه سيتبرّكُ بقتله وحزّ رأسه فجلس علىٰ صدره .

فقال له أبو جهل : لقد جلست على مكان مهيب أيها الرُّويعي « تصغير الرّاعي » وتريد القيام بشيء وفعل عظيم ، تريد أن تقتل أفضل وأعظم الرجال في أهل مكة ، أخبرني لمن كان الفتح والنصر في نهاية المطاف ؟

فأجابه ابن مسعود : كان لله ورسوله يا عدوّ آلله ، ثم قال له حينئذٍ : يا من هو أسوء حظاً من فرعون ، فذلك قال بإيمانه في لحظات موته ، أما أنت فما زلت مصراً على كفرك ؟ فقال أبو جهل : إنني الآن آزدَدْت عداوةً وحقداً ، ولا أحد أكثر عداءً مني ، وعندما همّ ابن مسعود بحز رأس هذا اللعين ، قال له : إقطع شيئاً من صدري ليكون رأسي أكبر الرؤوس كلّها ، وحقاً كان أباً للجهل والجاهلية .

فأخرج ابن مسعود خنجراً ويبدو أنه متصدأ قديم وغير حاد ، فكلما حاول أن يقطع رأسه مع جزء من صدره ، لم يتمكن من ذلك فآضطر إلىٰ أن يستعين بسيف أبي جهل نفسه على قطع رأسه المشؤوم ، فكان القطع خلاف ما أراد هذا اللعين أي إن جزءاً من رقبته ظلّ في جسده فكان رأسه عندئذٍ أصغر رؤوس قتلىٰ القوم ، ثم سحبه حتىٰ أوصله عند رسول الله (ص) .

فسجد رسول الله (ص) حينها لله شاكراً إذ زالت الشوكة التي كانت عقبة

في طريق الإسلام والمسلمين .

نعم لقد أنجز الله وعده ، ووفّى به لرسوله (ص) والمؤمنين معه حين أنبأه باكراً أن ﴿سيُهزم الجمعُ ويُولّون الدّبر﴾ ، فلقد انكسرت شوكة القوم وانهزموا وتشتت جمعُهم وتمزقت حشودهم التي كانوا يتباهَوْن بها مغرورين وسقط عددٌ منهم قتلىٰ ووقع عددٌ آخر أسرىٰ بيد المسلمين .

إسلام العبّاس عمّ النبي :

كان بين السبعين نفراً من أسرىٰ المشركين العباس بن عبد المطلب عمُّ رسول الله (ص) وكان موثقاً بالحبل الذي أحاطوْا به عنقه ، نعم إنهم ذات الأفراد الذين أظهروا العناد والغرور من ذوي الرقاب الميتة ، ذوي الابهة والكبرياء .

ولما حلّ الليل من ذلك اليوم المبارك كانت أصوات أنين الأسرىٰ تصل إلىٰ أسماع رسول الله (ص) فسأل ما هذا الأنين فقالوا انه وثاق الأسرىٰ قد شُدَّ عليهم بقوةٍ فباتوا يتأذّون منه فأمر (ص) ان يخفف عنهم الوثاق وتُرخّىٰ الحبال .

ولما كان صباح اليوم التالي عُرض الأسرىٰ علىٰ رسول الله (ص) فلما وقعت عيناه المباركتان على عمّه العباس والحبال في رقبته ، آبتسم (ص) ضاحكاً فقال له العباس (رض) أتشمت بي ؟ فأجابه الرسول (ص) كلا ، انما ضحكي علىٰ هؤلاء الذين يجرّونهم إلى الجنة بالقوة والجبر والوثاق .

على أية حال فقد تقرر حينئذٍ أن يُدفعَ الفدية عن كل أسير وكما ورد في حياة القلوب للمجلسي (عليه الرحمة) فان أعلىٰ فدية للمشركين كانت أربعة آلاف درهم وأقلها ألف درهم فبعثت قريش بهذه الفديات شيئاً فشيئاً وأفرجت بها عن أسراها .

عتق زوج زينب (رض) :

لقد شملت الفدية جميع الأسرىٰ بالعدل دون النظر إلى مكانتهم وقرابتهم من رسـول الله أو أيّ من الصحابـة ، فحتّى زوج زينب بنت رسـول الله (ص) شملته الفدية فلأنه لم يكن يملك مالاً يعتقُ به نفسه فان زوجته أي زينب بنت رسـول الله (ص) بعثت بقـلادتهـا كي تعتق بثمنهـا زوجهـا وحينمـا رأىٰ رسول الله (ص) قلادة آبنتـه بَكىٰ (بأبي هووأمي) وقال : إن آبنتي قـد ضاق صدرها لانه صلىٰ الله عليه وآله كان يعرف القلادة فقد كانت لـزوجته خـديجة أم المؤمنين سلام الله عليها وقد أهدتها لابنتها في ليلة زفافها .

لذلك فقد عُفي زوج زينب وهو أبو العاص بن ربيع من الفدية بناءً على رغبة رسول الله (ص) .

ترىٰ أما تستحقُّ الزهراء (ع) المحبة والتكريم :

وهنا لابن أبي الحديـد المعتزلي ـ شـارح نهج البـلاغة ـ كـلام في هذا المضمار من المؤسف أن يبقىٰ دون الإشارة إليه ، وزُبدته : إن أبا بكر وعمر ، كم سبّبـوا الأذىٰ والمعانـاة للزهراء (ع) فمـا المانـع لو أنهمـا ومن أجـل رضـا رسول الله (ص) أن يدعوا فدكاً لها (سـلام الله عليها) دون تلك المضـايقات والمتـاعب التي أوجدوهـا لها ، ثم ان لـو فعلوا ذلك أكـان أحدٌ من المسلمين يعترض على ذلك ؟

فهذا العالم السنيُّ المـذهب ، يريـد أن يقول : إن من قلة سَعْـدِ هذين الرجلين أن وقفا تلك المواقف مع الزهراء في حرمانها حقّها ، وأما نحن فنعرف جيداً أين تكمُن العلة في هذه القضية التاريخية[1] .

---

(١) للمـزيد من الإطـلاع والتفحص يمكن الرجـوع إلىٰ توضيحـات السيد الشهيـد آيـة الله دستغيب حول تاريخ فدك الذي ورد في أواخر كتابه « الصديقة الكبرىٰ » .

حظّنا في ريائنا ، فما عملناه وقلناه كان رياءً في رياءٍ . .

عندها يأتي الخطاب من الحق تعالىٰ وهو الرؤوف الرحيم ما مفاده : لان هؤلاء ذكروه ولهجت به ألسنتهم وعفّروا وجوههم وجباههم في التراب ساجدين له ، فان لطفه قد شملهم ، رغم ما كان صدر منهم من رياءٍ في أعمالهم .

وهكـذا يتـرتب على هؤلاء من مـوقف صعب ، وبهـذه الصـورة يكـون جزاؤهم .

١٩٨

إنه الحقد والعناد وسياسة التزويـر والتحريف ، هي التي أدّت إلى سلب الحق المسّلم به ، والملكُ المقطوع فيه للزهراء (ع) من يدها ، وإلاّ لـو أنّهما أرادا حقّاً اتباع سيـرة النبي (ص) ، وعلى فرض أن فـدكاً لم يكن حقّـاً مسلّماً لهـا (ع) ، ولـم يكن إرثاً لها ، كـان من الأولىٰ لهم أن يهبـوه إيـاهـا من أجـل رضاه (ص) وليس هناك في المسلمين من يُشكل ذلك علىٰ الرجلين ، فضلاً عن أن يستحسنوا الأمر ، ثم ما قيمة فدك بالنسبة لسيدة نساء الأولين والآخرين حتى قيام يوم الدين !!؟

هذا في الوقت الذي قال فيه رسول الله (ص) عن ابنتـه فاطمـة : « إنها بضعة مني » ، أوَلـم يقل عنها « سيدة نساء العالمين ، من آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذىٰ الله » ولكنه قال ذلك ، والحديث مشهور متواتر عند أهل السنّة والشيعة ، قاله بشأن الزهراء سلام الله عليها وحسب .

« القيامة موعد الكفار »

﴿بل الساعة موعدهم﴾ :

إنَّ أولئك الذين قتلوا من المشركين ، قد يتصور البعض أنهم بلغوا نهايتهم ، ونالوا جزاءهم ، والإنتقام منهم بمجرد قتلهم وموتهم ، كلّا فلا يخالُن أحدٌ أنهم بنيل حتفهم قد بلغوا جزاءهم ، إن هذا الذي ذاقوه وأنهىٰ حياتهم الدنيا ، إنما هو قليلٌ وصغيرٌ جداً ، بالنسبة لما ينتظرهم يوم غدٍ في القيامة . فهذا الذي لاقوهُ من القتل والأسر ، إنما هو عيّنة صغيرة من عذابهم الذي وعِدوا به يوم القيامة .

البعض من المفسرين يعطف الضمير « هم » في كلمة ﴿موعدهم﴾ ويرجعه على ما سبق أي جمع الأقوام السابقين أي أقوام نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون ، وكذلك مشركي قريش ، وربما كل العصاة والكفرة والمشركين والمنافقين على مرّ العصور والدهور ، حتى يوم القيامة ، فالقيامة موعدهم أجمعين .

إن منتهىٰ درجات النقمة والإنتقام في الدنيا هو القتل والهلاك ، وهذا الأخير لا يُعد شيئاً من العقوبة في الحقيقة إزاء أعمالهم المنكرة وشركهم ، ومعاصيهم وجرائمهم ، فمحلُّ الإنتقام الحقيقي هو أنهم لا يموتون مهما عُذّبوا ، بل يبقون معذّبين في آلام وجزع وحسرات ومرارة وعذاب أليم ، ذلك

العذاب الذي تستبدل به جلودهم ولحومهم كلما زالت من العذاب ، وذلك ما جاء في صريح القرآن المجيد : **﴿كُلّما نضجت جلودُهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾**[1] .

بالطبع سيُعطون أجساماً خشنة قاسية لها قابلية تتحمل هذا العذاب ، لكن الإحساس يظل عذاباً بالنسبة للكافر أي ليس ذلك أنه يتعود على العذاب ، ولم يَعُد شيئاً بالنسبة له ، كلا ، بل يبقىٰ يُحسّه عذاباً أليماً ومعاناةً مريرةً لاذعةً ، نعم ستكون أجسامهم قاسيةً عليهم ، كما هي قلوبهم في الدنيا ، من حيث قساوتها ، ففي عالمنا تشبه الأشياء القاسية الخشنة بالصخر والحجارة ، فقلب الكافر أشد قسوة من الحجر ، وفي ذلك يقول تعالىٰ : **﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً وإنَّ من الحجارة لما يتفجَّرُ منه الأنهار وإن منها لما يشَّقُّ فيخرجُ منه الماء وإنَّ منها لما يهبطُ من خشيةِ الله﴾**[2] أما قلوب الكفار فانها لا تهتز ، ولا تتأثر أدنى تأثير لآيات الله ولرؤية آثار ودلائل العظمة الإلٰهية فضلاً عن أن تتغيّر وتتبدل .

ولقد بلغت القسوة لدىٰ قلوب البعض ما جعلهم لا يأبهون ولا يتأثرون ، ولو أن الموتىٰ نهضوا من قبورهم وحدثوهم بما جرىٰ عليهم في ذلك العالم الذي رحلوا إليه وأنهم بقسوتهم وعنادهم هذا إن لم يكن لهم مصلحة من ورائه ، فانه يكون لمجرد تسديد الأذى للمؤمنين ومضايقتهم .

إن الله سبحانه لا يبتلي الكافر ، ولا يُعرّضه للمحن ، بل إذا اتفق أن يكون شيء من البلاء ، فانه في أغلب الأحيان يكون من نصيب المؤمن ، فالمؤمن مبتلىٰ وأقل بلاءه أن يرىٰ الكافر متمتعاً في هذه الدنيا ، لا يمسُّه سوء ولا نَصب لذلك ، فان الله سبحانه جعل عقوبة الكافر تأنيبه أحياناً في هذه الدنيا كنموذج للعقوبة والعذاب الأخروي الأبدي وفي هذا المعنىٰ يقول الله تعالىٰ في

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٦ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٧٤ .

سورة الزخرف :

﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرّحمٰن لبُيُوتِهم سُقُفاً من فضةٍ ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يَتكئون * وزخرُفاً وإن كلّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرةُ عند ربِّك للمتقين *﴾[1] .

إذن فطبقاً لهذا المعنىٰ ، فان الدنيا ليست بمحل الإنتقام من الكفار والظالمين ، وان آتفق أن واجهوا البلايا والمحن والصعاب والعقوبات ، فذلك نموذج بسيط وهين من العذاب ، إنما أصلُ العذاب في الآخرة .

« عذاب القيامة أشد » :

وهنا ينتقل السياق ليتحدث عن عذاب القيامة فيقول تعالىٰ :

﴿والساعة أدهىٰ وأمر﴾ .

إن كل شيء مفزع لا يمكن الفرار والنجاة منه يقال عنه بأنه أمر « داهي » ، وأدهى هو إسم التفضيل فيكون المقصود به إن كل عذاب شديد وعجيب وغير اعتيادي ، ولا يمكن تصوُّر الخلاص والنجاة منه يمكن أن يقع في هذه الدنيا ، فان عذاب الآخرة أشدُّ من ذلك وأقسىٰ ، بل إن من يبتلي بعذاب الآخرة ، فان أشد عذاب في الدنيا سيهون عليه ، وربما يضمحل أمام عذاب الآخرة ، ولا يكاد يذكر ، ولتقريب الصورة نقول : إن الذي تَلْدغُهُ الأفعىٰ تهون عنده لسعةُ البعوض .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣٣ ـ ٣٥ .

القيامة وٱسترداد الحقوق :

وأما فيما يتعلق بدواهي القيامة ومراراتها فاننا قرأنا في القرآن مرات عديدة بأن يوم القيامة يوم عصيب يرفع فيه كل فردٍ علىٰ مكان مشهودٍ ، يراه كل الناس وعندئذٍ ينادي المنادي أن كلّ من له حقٌّ علىٰ هذا الفرد فليأتِ ويطالبْهُ بحقه ، فيرىٰ الحشود تأتي حوله وتطالبه في مشهد ربما لا يمكن أن يتحمّله بتاتاً ، فربما صدر منه ما أدىٰ إلى هدر ماء وجه أحد من الناس أو ربما قاضاهُ آخر بأن ٱستغابه وآخر بأن أكل ماله حراماً ، وآخر قد أقرضه مبلغاً فنسيَ تسديده إليه أو أكله عليه ، وغير ذلك من المنكرات والمحرمات ، وعندئذٍ ماذا سيكون موقفه ؟

إنه لا حيلة له ، ولا مال يفي به ، وربما لا يتنازل أحد من حقه له في تلك الساعة الرهيبة ، لا حيلة له ولا مفرّ إلاّ أن يهب من حسناته وثوابه لهؤلاء كي يرضوْا عنه ، وللمثال نذكر كما جاء ذلك في نصوص الروايات أن كل درهم من المال يقابله سبعمئة ركعة من الصلاة المقبولة ، ولو قارنّا ما ٱقترفت أيدينا وما أكلناه من الحرام وسلبناه من حقوق الناس مقابل ما لدينا من ركعات مقبولة ، حينئذٍ سنقرأ على أنفسنا السلام كما يقولون ترى من أين لنا تلك الركعات المقبولة ، حتّى نفي بها ، أليست هي داهية حقّاً . ولو نفدَ ما لدينا من الحسنات ، فان التبادل يكون عكسياً حيث أن هذا الذي يطالبنا بحق له علينا لم نفِ به في الدنيا ، سيلقي من ذنوبه علينا بقدر ذلك الحق المطلوب ، فنُثقَلُ نحن ويخفُّ هو من الذنوب والآثام .

﴿ أمَرّ ﴾ :

وهي من المُرّ ، والمرارة ، فمهما بلغت مرارة الحوادث والبلايا التي تحصل وتنزل بالإنسان في الدنيا فان ما في الآخرة أمَرُّ منها أي إنها أكثر مرارة ويكفي أن ينقل القرآن المجيد صورة يبين لنا فيها شدة مرارة ذلك اليوم الرهيب العصيب ، فيقول تعالى : ﴿يوم يفرُّ المرءُ من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته

وبنيه ﴾[1] فالناس تخشىٰ في ذلك اليوم حتّى المطالبة بحقّها من شدة الخوف .

شهادة الجسد والأعضاء :

من مواقف القيامة العجيبة والمذهلة هي إنطاق الجوارح والأعضاء ، فكل عضو ، وكل جارحة ستُفصح وتفضح صاحبها بكل ما قامت به واقترفته وذلك بصريح القرآن المجيد ، حيث يقول : ﴿يوم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يعملون﴾[2] وربما في هذه الأثناء يعترض الإنسان ويحتج على بدنه وأعضائه فيقول لها : لما شهدت عليَّ فتجيبه : إن الأمر ما عاد باختيارها فهي مكرهةٌ على الإعتراف ، وقد أنطقها الله سبحانه ، وفي ذلك أيضاً يقول القرآن المجيد : ﴿حتّى إذا ما جاؤوها شهدَ عليهم سمعُهُم وأبصارهُم وجلودُهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتُم علينا قالوا أنطقنا اللّهُ الذي أنطق كُلَّ شيءٍ وهو خلقكم أوّلَ مرّةٍ وإليه ترجعون *﴾[3] .

---

(١) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ .
(٢) سورة النور ، الآية : ٢٤ .
(٣) سورة فصّلت ، الآية : ٢٠ - ٢١ .

« النار وضلال المجرمين »

﴿ إنَّ المجرمينَ فِيْ ضَلالٍ وَسُعُر ﴾

المجرم بحسب المعنى اللغوي العام هو مرتكب الجناية ، أما في هذه الآية ، فانها تعني وبقرينة الآيات السابقة جناية الشرك ، أي أنّ المجرمين هم المشركون ، فالمشركون في تيهٍ وضلالٍ عن الحق فكل أفعالهم وحركاتهم في الدنيا هي دوارٌ حول أنفسهم ، فهم يجرون ويدورون في حَيّزٍ مغلقٍ ، لا يبدُر منهم أيّ فعلٍ أو عملٍ إيجابي ما يجعلهم يتقدمون ويُطوّرون أنفسهم فكل ما يفكرون ويهتمون به هو جمع الأموال وطلب الجاه والشهرة والسلطة والرئاسة مما يجعلهم يتيهون ويضلون عن سبيل الله في نهاية مطافهم .

﴿ سعر ﴾ :

بمعنى النّار المتأجّجة ، فهم فضلاً عما يُبتلون به من نيران الحرص والبخل والأمراضِ القلبية والنفسية كافة ويحترقون بها في الدنيا ، فانهم سيحترقون بأشد الإحراق في لظىٰ جهنم ونيرانها المستعرة في الآخرة .

المعنىٰ الآخر لقوله تعالى : ﴿وسُعُر﴾ كما يراه البعض الآخر هو الجنون ويمكن أن يكون المقصود من ﴿ضلال وسُعُر﴾ إنهما يقعان في هذه الدنيا أي التِّيهِ والجنون وكما ورد في رواية ذكرت في بحار الأنوار عن رسول الله (ص)

ومُحصّلتُها ان الرسول الأكرم (ص) قد آصطدم بأناس مجانين ، فكانوا يُسألون عن أحواله فيقولون إنه مجنونٌ « والعياذ بالله » فيقول : بل هو مصاب : أي إنه ربما أُبتلي بمصيبة ، انما المجنون من آثر الدنيا علىٰ الآخرة .

أُضاعوا سبيل النجاة :

المعنىٰ الآخر لقوله تعالىٰ : ﴿في ضلال وسُعُر﴾ إن الاثنين يُعنيان بالآخرة ، ففي يوم القيامة يتيه المشركون عن سبيل الجنة والخلاص ، وشهادة ذلك في قوله تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهم بسور له بابٌ بَاطنُهُ فيه الرّحمة وظاهرُهُ من قَبلِهِ العذاب﴾[1] .

﴿يوم يُسحبونَ في النّار على وجوههم﴾ :

أي إن المجرمين سيُجرُّونَ على وجوههم جرّاً إلىٰ النار ، ويلقون فيها علىٰ وجوههم ، ذلك لأنهم أصرُّوا على معاندة الحق ، وأداروا وجوههم عنه ، رافضين إياه ، فغداً في القيامة سيساقون مسحوبين على وجوههم ، ويرمون في النار المستعرة ويُقال لهم :

﴿ذوقوا مسَّ سقر﴾ :

وسقر هو آسم جهنم ، ويروى عن الإمام الصادق (ع) أن في جهنم وادياً يُقال له : سقر . وفي رواية أخرى يقول فيها ما مفاده : إن سقر طبقة في جهنم ، يطلب من الله سبحانه أن يشهق ويزفر ، فحينما يُجيزه الله بذلك ، فانه يشهق شهقةً ، ثم يزفر ، فتتأجج النيران فيه .

إن هذا ليس بالقصة ولا الأسطورة ، إنها حقائق قائمة بذاتها يقتضي بنا أن

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٣ .

نهتزّ ونرتعش لذكرها ، بلي يجب أن نعي ونُمعِن التفكير في مواقف عظيمة وخطيرة كهذه التي تنتظرنا ، فنُعدَّ لأنفسنا ونتزودَ بما يقينا من خطرها ، ويجعلنا في أمان وطمأنينة منها ، حتى لا نرى ملائكة الرحمة ساعة الموت ، ولا نسمع نداء الحق تعالى إلاّ وهو يدعونا إلى دخول الجنة ، مع الأبرار والصالحين .

لكي نكون مشمولين بإذن الله ، ومعنيين بندائه تعالى ﴿**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي**﴾[1] ليس لنا أن نهدأ ونطمئن بما عندنا في هذه الدنيا ونأمن أهوال يوم الحساب ، بل يجب أن نظل نتزود ونتزود ، وأن نستشعر الخشية والخوف من السطوة الإلهية ، يجب أن نعزّز إيماننا كي نطمئن له ، ولا نرحل غير مؤمنين ونحن نحسَبُ أنفسنا مؤمنين ، نعززه بالإستغفار وطلب العفو والتوبة النصوح عما سلف وبدر منّا ، من سيئات ومعاصي ، ترى هل يقطع أحدٌ منا بأنه يرحل عن هذه الدنيا بأفضل الأحوال وأكمل الإيمان ؟

أولئك الذين يُلقون في النّار :

وهنا نعرض إلى حديث شريف لِيَعيهِ ويفهمه القارىء والسامع ومفاده إن بضع مجاميع تساق إلى جهنم ، أوّلُ هذه المجاميع التي توقف للحساب وتُؤاخذ على أعمالها وسلوكها في الدنيا ، هم أولئك الذين قضوْا عمراً مديداً في استحصال العلم والمعرفة ، فحينما يسألون ماذا صنعتم بهذا العقل والعلم الذي بلغتموه والذي وهبه الله إياكم ؟

فيُجيبون قائلين : إلهنا إنك تعلم أننا سهرنا الليالي وجفا عيوننا النوم من أجل أن ننشر علمنا ونَدرُسَ ونُدرِّس ونؤلف الكتب والمؤلفات العلمية .

فيأتيهم الردُّ : إن ما قمتم به وأدّيتموه ذلك من أجل أن يقال عنكم أنكم

---

(١) سورة الفجر ، الآيات : ٢٨ ـ ٣٠ .

عُلماء وفضلاء أو كما يقال اليوم آية الله ، وحجة الإسلام والعلاّمة ، وهكذا وقد بلغتم ذلك .

فالهدف أنهم صرفوا عُمُراً يحلمون أن يُصبحوا علماء دينٍ مدادهم أفضل من دماء الشهداء ، لكنهم غفلوا عن أن توجههم هذا هو نوع من عبادة (الأنا) والنفس ، فيأتي الأمر حينئذٍ ان خذوهم وألقوهم في جهنم لأن عملهم كان رياءً .

من قُرّاء القرآن في جهنم :

أما المجموعة الثانية التي يؤتىٰ بها للحساب فهم قُرّاء القرآن ، فهؤلاء أيضاً يقال لهم : إن هدفكم من قراءة القرآن لم يكن محض طلب ثواب الله ، بل ليُقال عنكم أنكم قرّاءٌ ممتازون تجيدون التلاوة والتجويد ، وقد بلغتم ذلك في دنياكم وليس لكم عند الله ما تستحقون ، ثم يُؤمرُ أن خذوهم إلى جهنم .

« خسر الدنيا والآخرة » :

والطائفة الثالثة أولئك الذين يقتلون في ساحات الحرب والجهاد في سبيل الله ، فيعتقدون أنهم بلغوا منزلة الشهداء وصاروا منهم ، فيأتيهم الجواب : إن الله سبحانه قد عرف نواياكم ، إنكم قصدتم الذهاب إلى ميادين المعارك لاظهار البطولات والشجاعة ، وليقال عنكم : شجعانٌ وأبطال ومتفانين وأقوياء ، وقد قال الناس عنكم ذلك فبلغتم ما أردتم ، هيًا خذوهم إلىٰ النار .

الأثرياء المراؤون :

وهم الطائفة الرابعة ، فهؤلاء هم الذين أنفقوا أموالهم في مسالك الخير وأماكنه ، يأتون إلى ربّهم ويقولون : ربّنا إنك تعلم أننا قد أطعمنا الفقراء والمساكين وأعطينا المحتاجين وكسوناهم وبنينا المساجد وأقمنا خزّانات المياه ،

وشيّدنا المدارس ، وأوقفنا الكثير من الأموال والممتلكات وأسسنا وأنشأنا من المؤسسات والمنشآت ما يكون لنا خيراً وثواباً جارياً مستمرّاً .

فيأتي النداء من علاّم الغيوب وما في مكامن القلوب : إن هؤلاء صحيحُ ما قالوا ، لكن عملهم كان رياءً في رياءٍ ليُقال عنهم : إن فلاناً كريمٌ ومن فاعلي الخير ، أو كما هو في زماننا الحاضر حيث تنشر الجرائد وتكتب الصحف إن فلاناً تبرّع بكذا مبلغ للمتضررين بالزلزال ، وإن فلاناً ساعد المنكوبين بأن بعث لهم بكذا وكذا من المستلزمات ، فيأتي الأمر الإلهي بشأن هؤلاء أيضاً ، أن خذوهم إلىٰ جهنم ، فالويل للمرائين الذين غفلوا أن الرياء ضربٌ من الشرك بالله(١) .

وفي يوم القيامة يدعىٰ أربعة إلى النار وأليم العذاب ، وهم الكافر والمشرك والغادر والمرائي .

نبقىٰ محتاجين للرحمة والرأفة :

ترىٰ هل لدينا عمل قمنا به خالصاً لوجه الله وليس فيه أي شائبة من الرياء ؟

وما الدليل على أن أعمالنا لا تخلو من الرياء ، وكيف نطمئن لذلك ؟ ، وإذا لم نكن بعيدين عن الرياء ، إذن لماذا نحسب أنفسنا اننا سنكون في مأمن وبعيدين عن عذاب الله ؟

نعم حينها سنجد خازن جهنم ومالكها يخاطبنا بالقول : الويل لكم ، أي أُناسٍ أنتم ، حتّى يُؤاخذَكُم الله بهذا القدر من الذنوب والمعاصي ؟

فيكون الجواب له : إننا من أُمّة محمد (ص) في آخر الزمان ، لكن سُوءَ

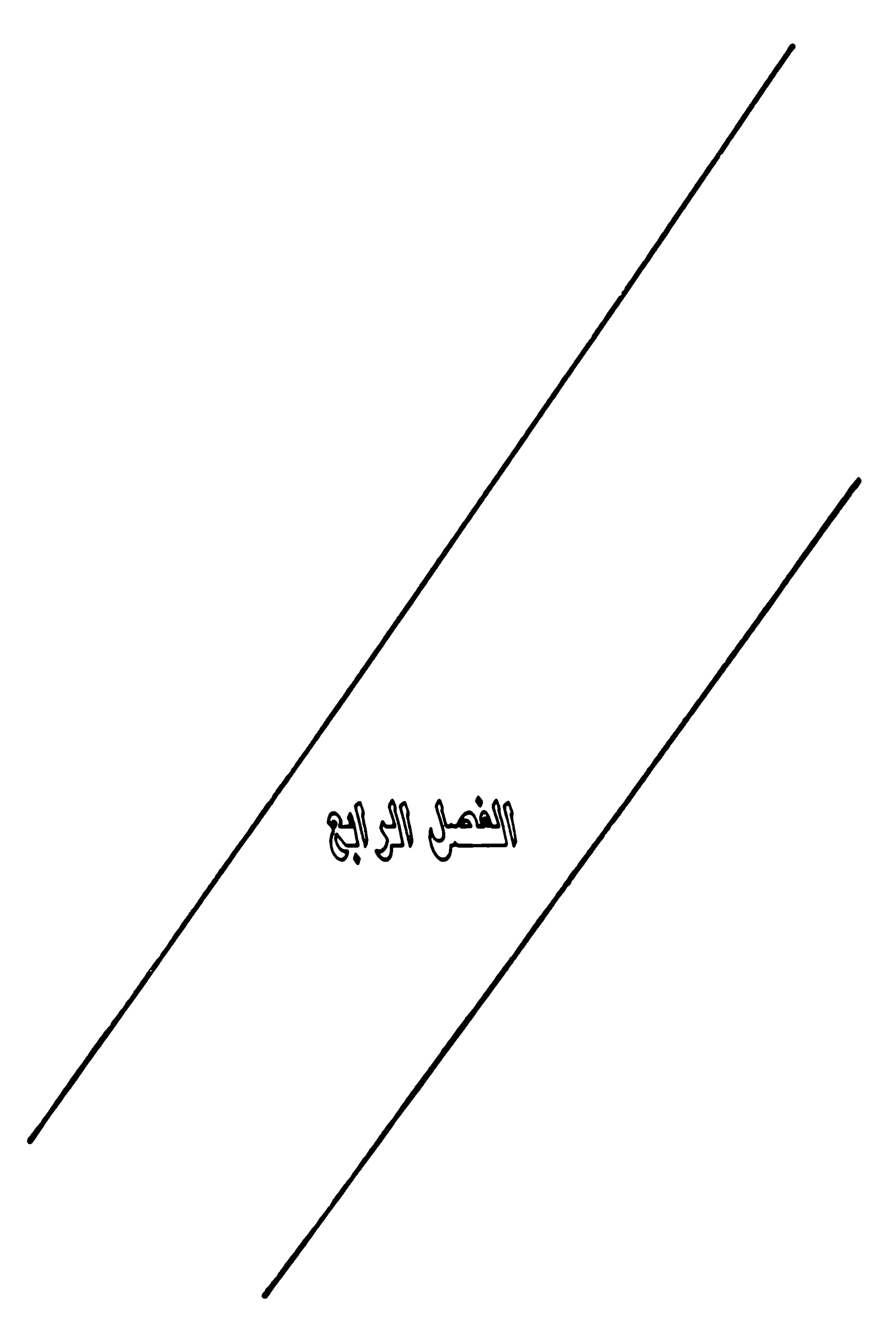
---

(١) في كتاب « الكبائر » للسيد الشهيد آية الله دستغيب جرى تفصيل هذا الموضوع وفي بحث الشرك في العبادة وقد شرح فيه أنواع وأقسام الرياء .

حظُنا في ريائنا ، فما عملناه وقلناه كان رياءً في رياءٍ . .

عندها يأتي الخطاب من الحق تعالىٰ وهو الرؤوف الرحيم ما مفاده : لان هؤلاء ذكروه ولهجت به ألسنتهم وعفّروا وجوههم وجباههم في التراب ساجدين له ، فان لطفه قد شملهم ، رغم ما كان صدر منهم من رياءٍ في أعمالهم .

وهكـذا يتـرتب على هؤلاء من مـوقف صعب ، وبهـذه الصـورة يكـون جزاؤهم .



الفصل الرابع

« الحكمة الإلهية في كل شيء »

ثم ينتقل السياق الكريم في سورة القمر لعرض الحكمة الإلٰهية التي شملت الوجود كله فيقول تعالىٰ : ﴿إنّا كلَّ شيءٍ خلقناهُ بِقَدَرٍ﴾ .

بعد أن بيّن الله سبحانه في السياق السابق العذاب الذي ينتظر المشركين يوم القيامة وشدته ، وعذابهم في الدنيا الذي هو في الحقيقة لا يقاس بشدة عذاب الآخرة وحجمه ، حيث يُلقىٰ الكافرون والمشركون علىٰ وجوههم في النار بعد أن يتم سحبهم إليها على وجوههم ثم يقذفون فيها بنفس الطريقة ويقال لهم : ﴿ذوقوا مسّ سقر﴾ .

والغرض الذي تتوخاه الآية الشريفة أعلاه ، هو أن ينتبه المؤمنون ويدركوا أن العذاب الإلٰهي إنما قُدّر لتحقيق العدل ، فلا يقولُنَّ أحدٌ لِمَ يمكثُ الكافرون في جهنم إلىٰ الأبد ، ويخلدون في النار من أجل أيام معدودات عاشوها في الدنيا ، لم يكونوا قد آمنوا فيها ؟ أليس سذا من الظلم ؟

فهذه الآية الشريفة تردُّ على هذه الشبهة وتقول لهؤلاء الذين يُوجّهُونها : إن الأمر ليس كما تتصورون ، بل إنّه عينُ العدل ومقتضىٰ الحكمة الإلٰهية ذلك ﴿إنا كَلَّ شيءٍ خلقناه بقدر﴾ .

ولكلمة (قدر) معنيان أولهما بمعنىٰ مقدار وحدّ وحجم معين ، وهو ما تقتضيه الحكمة الرّبانية البالغة ، فكل شيء وكل وجود إنما وجد وخلق وفق

الحكمة الإلٰهية أي إن الأشياء خلقت بحكمة ابتداءً من العرش وانتهاءً بالأرض المنبسطة وبالحد والمقدار الذي اقتضته هذه الحكمة . فميزان العدل شمل كل شيء من الملك وحتى الملكوت ﴿ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت﴾[1] وكل موجود قد أُعطي كلَّ ما يحتاجُه بلا زيادة ولا نقصان .

وطبقاً للتفسير المروي عن ابن عباس : لقد أُعطي الجميع كل ما يحتاجون برحمة رحمانية .

كل شيء بموضعه :

نعم ففي جسم الإنسان خلقت العين للرؤية والنظر ، والأذن للسمع واللسان للكلام والحديث ، وهكذا بالنسبة لجميع الأعضاء والأجهزة في جسم الإنسان ، فلو حصلت زيادة أو نقص في أعضاء الجسم فان الفائدة والإنتفاع سينعدم أو إذا كان كل عضو من هذه الأعضاء قد خلق في غير محلّه فان الخلل سيحصل أيضاً وتنعدم الفائدة ، ولن تترتب على ذلك ، أي إن العين مثلاً لو كانت وجدت فوق الرأس أو في الصدر . أو لو كان المنقار ساقاً وقدماً فماذا سيحصل ؟ أو لو أن الرأس لم يكن يتحرك ، أليس ذلك بالنقص والخلل ؟ أُنظر إلى بدنك وتفحص خِلقَته بكلّ دقة ، كي تدرك معنىٰ العدالة الإلٰهية .

أنظر إلى خلق الكون والاجرام :

أُنظر إلى ما فوق رأسك ، إلى ما في السمٰوات العُلىٰ وجمادات ، كيف خلقت ووجدت وأُبدِعت بهذه الصور والأشكال والألوان ، حقّاً إنها لتبعث على غاية الدهشة والحيرة ، فكل واحدة منها دلالة وعلامة على ربّها وخالقها ومُبدعها ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبّينَ لهم انه الحقُّ﴾[2] والله سبحانه

---

(١) سورة الملك ، الآية : ٣ .

(٢) سورة فصّلت ، الآية : ٥٣ .

أعطىٰ كل شيء بمقدار ما يحتاجه ويلزمه ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾[1] .

إن التدبر والتفكر ، قد يطول لسنين طوال في كيفية حركة ودوران الأجرام[2] والكواكب والنجوم ، وكيف يحصل النقصان والزيادة في طول الليل والنهار[3] وكيفية حركة المنظومة الشمسية[4] (الشمس وتوابعها السيارة) وحركة أقمار الكواكب السيارة وخصائص كل قمر من هذه الأقمر[5] .

﴿إنّا كل شيءٍ خلقناه بقدر﴾ : فهوقدر معين ، محدد ، لا يزيد ولا ينقص وبالحجم والكمية المطلوبة والتي يحتاجها ذلك الشيء ، خلقنا عالم الوجود بتقدير وحساب في منتهى الدقة متعلق بهذه الدنيا والطبيعة فيها ، فكل هذا الذي تراه هو نماذج من العدل الإلٰهي ﴿ولقد علمتم النشأة الأولىٰ﴾ نعم هكذا آمتد بساط العدل الإلٰهي ، لينعُمَ به كلُّ شيء في الوجود والخلق ، وإذا كان الأمر كذلك فلْتكن علىٰ يقين من أن العدل هو الواقع أيضاً في الآخرة ، فإذا سيق أحدٌ إلى جهنم ، فان ذلك من العدل ولو خُلّدَ في النّار ، ومكث فيها أبداً فذلك هو العدل أيضاً[6] .

يقول المحقق الطبرسي (عليه الرحمة) في تفسيره مجمع البيان : إن مآلَ شخص ما إلىٰ جهنم وخلوده فيها ليس عبثاً ولا جزافاً في الحكم الإلٰهي الذي صدر عليه ، إنما ذلك أيضاً جرى وفق مدة يستحقها قد تكون سنة واحدة أو عشر سنوات أو أكثر ، حتى يقبل إلى ثلاثمئة ألف سنة وقد يمكث البعض فيها إلى ما لا نهاية من السنين ، فكل بقدر ما يستحقه من العقاب والعذاب

---

(١) سورة الرعد ، الآية : ٨ .

(٢) ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ سورة يٰس ، الآية : ٣٩ .

(٣) ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ سورة الحج ، الآية : ٦١ .

(٤) ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾ سورة يٰس ، الآية : ٣٨ .

(٥) ﴿والقمر قدّرناه منازل حتىٰ عاد كالعرجون القديم﴾ سورة يٰس ، الآية : ٣٩ .

(٦) للمزيد من الإطلاع يمكن مراجعة كتاب ٨٢ سؤال لآية الله دستغيب (قدس سره) والذي نشرت طبعته الثالثة وفي البحث الثاني بخصوص (العدل) .

إذا كان الله رحيماً ، فلماذا خلق النار ؟ :

قد يخطر على الأذهان سؤال وهو إن الله سبحانه إذا كان قادراً ورحيماً فما المانع من ان يطفىء نارجهنم أو لم يخلقها أساساً ويدخل الجميع إلى الجنة ؟ هذه المغالطة ناشئة من الجهل بنظام الحكمة والتدبير الإلٰهي والخلْق ، فلو أن ملكاً فتح بلاطه ومدّ فيه مائدة وأعلنها وليمة عامة للجميع وفي المائدة كل أنواع الأطعمة والأشربة التي لا تجدها إلاّ في القصور الملكية ، وكانت المائدة كبيرة وعريضةً تسع الناس كلهم ، يأتون ويأكلون منها ، فبعض من هؤلاء قد يقدم صاحباً معه الكلاب (أجلكم الله) وبعض معه خنازيره ، وبعض ثالث معه الحمير وآخر معه الأغنام وهكذا ، فلو اجتمع هؤلاء مع حيواناتهم على هذه المائدة ، أليس ذلك ظُلماً بحق الآخرين وآنتهاكاً لحرمة المائدة والمجلس ، فالكلب طعامه العظام والحمار طعامه الشعير ، والغنم طعامها الأعلاف والحشيش ، فهل يجدر بها أن تجلس إلى هذه المائدة ؟

أدنىٰ من الحيوانات :

نعم فالذي يجب أن نعرفه أن الكُفّار أدنىٰ وأحقرُ من الحيوانات ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل**﴾[1] فهو الذي ضلّ قلبه مظلماً يطردُ نور الإيمان ويمنعُه عنه ويخرمُه ، ولو من بصيص هذا النور ، هذا الذي هو أدنىٰ وأحقر وأنجس من الكلب كيف تستسيغ أن يكون في ضيافة الله وتكريمه ، يجلس وينعم بمائدته تعالىٰ ، أمن العدل والإستحقاق ان يجلس إلى جانب المؤمنين الذين هم ملوك الآخرة الحقيقين ، أولئك الذين عمُّوا وصَمّوا عن آيات الله البيّنات الواضحات ؟ والله سبحانه يقول في محكم كتابه : ﴿**إن شر الدواب عند الله الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون**﴾ ، أليس يُظلم المؤمن حين يُمنح القذرون

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

ليسوا أهلاً للنعيم :

أمـا الموضـوع الآخر ، فهـو أن الحيوان لا يستلذ بـأنواع الأطعمـة التي يتناولها الإنسان ، والكافر هو أدنىٰ وأرذل من الحيوان ، لذلك فهو ليس أهلاً لما ينعم به المؤمن من أنواع النعيم من طعام وشراب وفاكهة ، فهو لا يتمتع بحاسة الـذوق التي سيكون عليهـا المؤمن في الجنة ، أي إنـه لا يمتلك القـدرة على تذوق أنواع الأطعمة وألوانهـا ، والإحساس بنكهـاتها في آنٍ واحـد ، كما هـو الحال لدىٰ المؤمن آنئذٍ فكما كان المؤمن يشعر بحلاوة ولذة الإيمان في الدنيا ، كذلك هو في الآخرة ، والكافر طـالما كـان ينفر من الإيمـان ولا يعرف قيمتـه وحلاوته ، كذلك فانه ليس أهلاً لنعيم الآخرة بل إن الطعام اللائق به هو الزقوم والضريع وحسب .

لا ينتفع الكافر من الإجتماع مع المؤمن :

يـروىٰ عن الإمام الحسن العسكـري (ع) حديثٌ مفـاده : « لـو آتفق أن يجلس النـاصبي أمـام المؤمن الشيعي ، فـان النـور المشـعّ من عيني المؤمن سيعمي عينيه » .

إن الكافر السيء الحظ ، لم يك قد آمن وحمل في قلبه من نور الإيمان ما يجعله مؤهلاً للتنعّم بالجنة وسعادتها الأبدية ، فلقد كان المشركون والكافرون بالله يولّون ظهورهم عن المؤمنين ، ويفـرون منهم في الدنيـا ، فكيف لهم أن يجتمعوا معهم في الجنة ويشاركونهم في النعيم .

أصناف النيران :

لكل كافر ومشرك وملحد أو بالأحرى لكل واحد يدخل النار ، فان له في جهنم صنفاً خاصاً به من النار ، يتبع مدىٰ كفره وشركه وضلاله وإصراره وإلحاده ، وجحوده وعناده لا يشاركه الآخرون فيه إلاّ مَنْ هو في درجته ومثلِهِ ، فلكلٍ نارٌ تحترق فيها خاصة به وليست جهنم حفرةً كبيرةً عميقةً واحدةً مليئةً بالنيران ، وكلّهم مجتمعون بها ، وفي عذاب واحد ، كلا ، فلكل بحسب ذنوبه ومعاصيه .

ويستشف من مضامين بعض روايات أهل البيت عليهم السلام أن محبيهم من العصاة والمذنبين يتطهرون من ذنوبهم في الآلام والفتن والبلايا التي يُعرضون لها في الدنيا وقبل موتهم ، كيما لا يرون العذاب في يوم القيامة .

كفّارةُ المذنبين - شكرٌ علىٰ النعمة :

كذلك جاء في الروايات الشريفة أن المؤمن إذا حمَّ ليلة واحدة ، فانها (أي الحُمَّى) تعتبر كفارة له عن ذنوب ومعاصي اقترفها خلال سنة واحدة من عمره ، وهذا أيضاً من بركات أهل البيت (ع) ، ولهذا كان على المؤمن أن يشكر الله ويحمده في كل الأحوال ويصبر على ما يعتريه ويصيبه من المحن والبلايا والمشاق والمتاعب فكل ما يُنزِلُ الله به ويبتليه به إنما هو لخيره وصلاحه ، وفي مصلحته هو . . .

وخلاصة القول في المعنىٰ الأول لقوله تعالىٰ : ﴿بقدر﴾ هو أن كل موجود خلق ووجد سواءاً في الدنيا أو في الآخرة إنما هو بالحجم والكمية المناسبة والمستحقة ، وذلك وفق ما تقتضيه الحكمة الإلٰهية والمصلحة المتعلقة بهذا الموجود .

ويروى عن ابن عباس في تفسيره أنه قال : جعلنا لكلّ شيءٍ شكلاً يوافقه ويصلح له .

لكل شيء وموجود حدّ ونهاية ينتهي بها :

أما المعنىٰ الآخر الذي ورد عن بعض المفسرين هو قولهم : « إن كلمة ﴿بقدر﴾ تعني « بأجلٍ معينٍ » أي إن له نهايةً ينتهي بها » فكل الأشياء المركبة المتراكمة ستتجزأ وتنحل في نهاية المطاف ، فهذه السماء وما فيها والأرض وما عليها كلّ ماضٍ نحو الزوال والفناء ﴿كل من عليها فان﴾ وهو ذلك الوقت الذي يبلغ الوجود فيه نهايته أو بتعبير آخر يحين فيه أوانُ القيامة .

المقدّرات المحدودة :

من الوجوه الأخرى لمعنىٰ « قدَر » هو المعنىٰ المرادف لكلمة « قضاء » فيكون المراد هو المقدرات التي وضعت وكتبت للأشياء والموجودات منذ الأزل .

وفي حديث عن رسول الله (ص) أنه قال : « إن الله قدّر العالم قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف عام .

فالعافية والمرض ، والغنىٰ والفقر ، والعزة والذلة ، كل كتبت وقدرت في الأزل ، فكل ما يجري علينا قد قُدّر وكتب لنا بحسب درجة إيماننا ﴿قل لن يُصيبَنا إلاّ ما كتب الله لنا﴾[1] » .

المقدرات الحتمية والمعلّقة :

بالطبع فان المقدرات هي بصنفين ، صنف منها لا بُدّ من وقوعه ، أي إنه محتّمُ الوقوع ، وعلى سبيل المثال ، كأن يقال : إن فلاناً سيموت في اليوم الفلاني والساعة الفلانية وبالسبب الفلاني ، وهذا المكتوب لا يمكن لأحد أن

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٥١ .

يحول دون وقوعه ، ويخلِفَ مَوْعده ، ويزيل ذلك السبب فيمنعَ وقوع المحتّم ، وهذا ما يصرح عنه القرآن بالقول : **﴿فإذا جاءَ أجلُهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾**[1] .

فقد يصاب ذلك الشخص بمرضٍ يؤدي إلى وفاته أو يعرض له عارض يقضي فيه أجلَه وهكذا .

أما الصنف الآخر من المقدرات ، فهو المقدرات المعلقة ، وهي التقديرات الإلهية القابلة للتغيير والتأجيل ، وربما الزوال ، فمثلاً إن فلاناً من الناس قُدّر له أن يموت في اليوم الفلاني ، وفي الحادث الفلاني ، لكنه وبسبب صدقة دفعها أو وصل أحد أرحامه بما يُوصل به ، فأزال الله ذلك العارض ، وحال دون وقوع الحادث ، فمدّ في عمره بينما لو لم يكن قد فعل ذلك لكان ذلك التقدير قد حُتّم عليه أو ربما أن شخصاً قُدّر له أن يعيش سنتين أُخريين ، لكنه وبسبب قطعه صلة الأرحام ، فان أجله قد أُدنيَ فيَموتَ بعد شهر أو شهرين بدل السنتين وهكذا .

إيّاكم والقصُور في العمل :

ما دمنا لا ندري وجاهلين ، ولا يمكننا الإطلاع على ما قُدِّر لنا . إذن ما علينا إلاّ المواظبة في الدعاء ، وفعل الخيرات والصالحات وأن لا نقصّر في ذلك أبداً ، وخاصة فيما يتعلق بالصدقات علاوة على الحقوق الشرعية من زكاة وخمس . فالصدقة تفعل فعل الكيمياء ، أي إن أثرها سريع وملموس ، لذلك ورد عن الإمام الصادق (ع) قوله : « لا تقولُنَّ المقدّرُ كائن ، ذلك لأن بعض التقديرات يجري عليها البداء الإلهي[2] بفضل الدعاء والتضرع لله سبحانه » أي

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٣٤ .

(٢) حبّذا لو عاد القارىء العزيز إلى تفسير سورة الطور في كتاب (القرآن والقيامة) ففيه بحث لطيف حول البداء ويمكن أيضاً الرجوع إلى كتاب « إثنان وثمانون استفهاماً » للسيد الشهيد آية الله دستغيب « طيب الله ثراه » .

يجري التغيير على المقدر كما جرى البداء الإلهي أزاء قوم يونس ، فقد استجيب لنبيّهم يونس (ع) وعنادهم ، يشمئز وييأس منهم . وقد قيل في الذي قُدّر لهم من بلاءٍ محتمٍ ، بانه « قد أُبرم إبراماً » لكن حينما لاحت لهم علامات البلاء النازل الذي قُدر فيه هلاكهم تابوا في تلك الساعة إلى الله ، وراحوا يدعونه ويتضرعون إليه باكين نادمين ، يطلبون منه المغفرة والعفو . وقد شاء العليُّ القدير أن يوقف عنهم ذلك البلاء ويُنجيهم مَنْ شرّه وإلّا لكانت عاقبتهم غير محمودة .

ليس هناك ما يُعيق أمام الإرادة الإلهية :

هذا حين يقول تعالىٰ : ﴿**إنّا كل شيءٍ خلقناه بقدر**﴾ أي إن الأشياء والموجودات جعلنا لها قدراً وحدوداً وحجماً وكميةً قبل خلقها ، فيمكنُ أن يتبادر إلى الذهن وهمٌ وتساؤلٌ ، وهو ، كيف لكل هذه المخلوقات أن تدوّن مقدراتها الكلية والجزئية ؟ وكم تحتاج من مدة ، لكي توضع لها أقدارها ؟

فيأتي الجواب من لدنه سبحانه إذ يقول : ﴿**وما أمرنا إلاّ واحدةٌ كلمحٍ بالبصر**﴾ أي إن كون الشيء وصيرورته إنما هو وقف الإرادة والمشيئة الإلهية ، أي إنه سبحانه بمجرد أن يُريد ويشاء ، ومن ذلك التقديرات الخلقية ، فانها تدوّن بريشةِ عين أو (بطرفة عين) وحتى هذا الزمن القليل الذي لا يكاد أن يقاس إنما ذكر من أجل التقريب إلى الأذهان وإلاّ فان الإرادة والمشيئة الإلهية لا تحتاج أصلاً إلىٰ زمن بل إن الشيء يكون بمجرد وقوع الإرادة .

عالم الخلق والأمر :

إن من بعض مقاصد الآية الشريفة ﴿**إنا كلّ شيء خلقناه بقدر**﴾ ذلك الذي يتعلق بعالم الملك والخلق ، أما في قوله تعالىٰ : ﴿**وما أمرُنا إلاّ واحدة**﴾ فالمقصود من ذلك هو عالم الأمر . ﴿**ألا له الخلق والأمر تبارك اللّهُ ربّ**

العالمين﴾[1] .

ولبيان ذلك نُجمل القول بأن الموجودات هي في صنفين ، صنف هو الأشياء المادية أو الجسمانية ، التي تضم بمجموعها السمٰوات وأفلاكها وأجرامها والأرض وما عليها من الدواب والإنسان والموجودات المادية ، ويسمىٰ عالم المادة هذا بعالم الخلق أو الإيجاد ، لأنه وجد شيئاً فشيئاً في سعة زمنية .

أما العالم الآخر فهو عالم الغيب أو الميتافيزيقيا أي ما وراء الحس المادي والطبيعة ، وقد جرىٰ التعبير عنه بلسان الشرع المقدس بعالم الأرواح والأمر ، وهو علىٰ خلاف عالم الطبع والمادة ، لا يحتاج إلىٰ زمنٍ في صيرورته إنما هو يتعلق بمحض الإرادة الإلٰهية أي يتعلق في (كن ، فيكون) أي إنّ إيجاد فوري لا يحتاج إلىٰ زمنٍ لكي يكون ويظهر بل هو متعلق بمجرد حصول الإرادة الإلٰهية .

فمثلاً إذا شاء الله أن يخلق ملكاً أو روحاً من الأرواح ، فان هذا الخلق يختلف عن الخلق في عالم المادّة الذي اقتضت الإرادة الإلٰهية أن يكون بشكلٍ تدريجيٍّ وخلال مدة زمنية كي يتحقق هذا الوجود المادي .

فمثلاً إن النطفة (البويضة المخصبة) تحتاج إلىٰ أربعين يوماً كيما تتطور إلىٰ علقةٍ ، وبعدها بفترةٍ زمنيةٍ تصبح مضغةً ، ثم تنشأ العظام ويكسوها اللحم شيئاً فشيئاً ، ثم تدخل الروح دفعةً واحدةً ، فتُنفخَ فيه ، ثم يخرج إنساناً متكامل البدن حيّاً بعد تسعة أشهر ، إذن فطبقاً للآية السابقة **﴿إنا كلَّ شيء خلقناه بقدر﴾** أي إن الأشياء والموجودات وُجِدت (خُلِقت) في مدة زمنية وبحجم وكمية معينة محدّدة . أما في قوله تعالى : **﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾** أي إن الإيجاد يتعلق بالإرادة الإلٰهية وهو ايجاد آنيٌّ لا يحتاج إلىٰ زمن ومدة .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ٥٤ .

قيام الساعة آنيٌّ :

يقول بعض المفسرين بخصوص قوله تعالى : ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة﴾ إن المراد به قيام الساعة أي القيامة ، فالقيامة حين تقوم لا يحتاج قيامها إلى أدنى تأخير . فحينما تقع المشيئة الإلٰهية بقيامها تضطرب السمٰوات والأرضين بأمر واحد لا أكثر ، ويكون ذلك بطرفة عين ﴿كلمح بالبصر﴾ وتقوم عندها القيامة .

قد ينطلي الوهم على البعض ونظراً لما ورد في الآيات السابقة ، قوله تعالىٰ : ﴿بل الساعة موعدهم﴾ ، أي إن القيامة هي موعد ووعيد الكفار ، فيختلط الأمر عليهم ، وهو كيف ، وكم سيطول حساب الأولين والآخرين ومقاضاتهم ؟ أليس ذلك يحتاج إلى زمن هو بقدر ممر عمر الحياة الدنيا ، وربما أطول منه حتّى ، والكلام ما هو بالمزاح ، فالبحث في صحيفة أعمال كل فردٍ ، منذ بداية تكليفه وحتى موته لا يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ ، كما قد يقع الوهم لذلك ، ولابعاد هذا التوهم والتصور الخاطىء ، فيقول تعالى : ﴿وما أمرنا إلاّ واحدة كلمحٍ بالبصر﴾ فبمجرد أن تتحقق المشيئة الإلٰهية بقيام الساعة يجد كل شخص صحيفة أعماله بين يديه وقد دوّن كل شيء فيها واضحاً جلياً ، حتّى بامكانه أن يرى أقل وأصغر من الأعمال أو الأقوال التي صدرت منه كما بينا ذلك في بداية تفسير هذه السورة الشريفة .

أما من حيث أن البعض سيطول وقوفه أمام الله سبحانه ويمتدُّ أمدُ حسابه كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، فان ذلك ليس يعني عدم القدرة في سرعة الحساب والتقاضي معه ، بل إن الله سبحانه شاء لمثل هؤلاء أن يجعل في تأخير حسابهم وطول وقوفهم أن يكون لهم نوع من العذاب والعقوبة الممهّدة للعذاب الأبدي الذي ينتظرهم ، هذا فيما يخص الكافرين والمشركين ، أو ربما يكون تطهيراً للذنوب والمعاصي التي يرتكبها المؤمنون في الحياة الدنيا ، وإلاّ فهو سبحانه سريع الحساب وسرعته هي كلمح بالبصر .

فكما أنه تعالىٰ قسّم الأرزاق وجعل لكلّ واحد من مليارات البشر

والبهائم ، وكل حيّ يدب على الأرض رزقه اليومي يصله دون أن يؤثر أو يُنقص من رزق الآخرين ، حيث لكلّ نصيب من الرزق ، كذلك يوم القيامة ، فانه يحاسب شخصاً ما ، فان حسابه هذا لا يشغله عن حساب إنسان آخر ، كما هو الحال في الأرزاق ، أي إن حساب جميع الناس يتمّ في آن واحد .

الخلق والفناء :

المعني الآخر من هاتين الآيتين الشريفتين ، كما ذكر هو أن الخلق يقابل الأمر ، أي أن الخلق هو الإيجاد ، وفي ضده الأمر الذي يعني الهلاك والفناء .

ولذا فان معنىٰ الآيتين يصبح وفق هذا التفسير ، إننا كل شيء معين خلقناه بمقدار محدد ، وما فناؤه إلّا كطرفة عين لدينا .

فكما مرّ بنا في القصص الخمس التي عرضنا لها آنفاً ، فان هذا المعنىٰ ينطبق علىٰ أولئك الأقوام الذين هلكوا جميعاً دفعة واحدة حين جاء أمرنا ونزل البلاء والعذاب ، لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر﴾ .

إن أولئك الذين أهلكناهم هم من أمثالكم ، ولستم تتفوّقون عليهم ، أو تتميّزون عنهم بميزة ما فهل من متذكر وهل من مُعتبرٍ ومتعظٍ بكلّ هذه الأسباب والنوازل التي نزلت بهم .

ولقد ورد في الحديث الشريف عن المعصوم (ع) : « السعيد من وعظ بغيره » السعيد من اعتبر واتعظ من مصائر الماضين الأولين ومَنْ هم مِنْ أمثالهم فيعي نفسه ويتداركها ، والشقي ذلك الذي يصبح هو عبرة يتعظ منه الآخرون . وفي ذلك يقول أمير المؤمنين علي (ع) : « وإن لكم في القرون السالفة لعبرةً ، أين العمالقة وأبناء العمالقة ، أين الفراعنة وأبناء الفراعنة أين أصحاب الرس ،

أين الذين قتلوا النبيين وأَحَيوْا سنن الجبّارين » .

وهنا أيضاً نقول مع أمير المؤمنين (ع) : « أين بنوا أمية وإلىٰ أين صار بنوا العبّاس ، وأين أصبح ظالموا آل محمد عليهم أفضل الصلاة والسلام » .

« اللوح المحفوظ »

﴿وكلُّ شيءٍ فعلوهُ في الزُّبر﴾ أي إنّ كل ما قاموا به وعملوه قد دُوّن في صحائف أعمالهم أو أن الآية تعني إن جميع ما فعلوه مكتوب لهم في لوح محفوظ ثم يؤكد السياق القرآني بشأن ذلك ويقول :

﴿وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستطر﴾ أي إن كل صغير ضئيل ، وكل كبير وعظيم في سلوكهم وأعمالهم قد كتب ودُوّن لهم سيكافؤون ويجازَوْن عليه أو أن المعنى وفق التفسير الثاني هو ان كل صغير أو كبير من الأعمال والضرورات كُلّها كالرزق ومدة العمر والعافية والفقر والغنىٰ والسعادة والشقاء كلها جميعاً قد سجلت لهم في اللوح المحفوظ .

وعلى هذا الأساس ، فانّ المعنى في الآية الشريفة إحتمالين في التفسير :

الأول : ذلك الذي يشير إلىٰ تقديرات الأشياء والأمور .

والثاني : ذلك الذي يشير إلى صحائف الأعمال .

وأما بالنسبة للمعنىٰ ، أو المراد الأول ، فقد أشرنا له آنفاً في قوله تعالىٰ : **﴿إنّا كل شيءٍ خلقناه بقدر﴾** حيث قلنا في أحد وجوه مقاصدها : هو أن جميع الأمور وسائر الأشياء والموجودات قد قُدّر لوجودها قبل إيجادها وتكوينها ،

وقـد بيّنا حينهـا أن للمقدّرات شكلين من التقـدير ، وهمـا التقديـر الحتمي ، والتقـدير المعلّق ، وذات هـذا المعنىٰ والموضـوع يتأكـد ثانيـة في هذه الآيـة الشريفة ﴿وكلُّ شيءٍ فعلوه في الزبر﴾ أي أن كل ما قام به الكفار والمشـركون من أنواع الأذى والإضطهاد ، وما نسبوه للأنبياء من زور وبهتان وافتـراء ، التي وردت في الكتب السماوية ﴿الزُّبر﴾ كلّ ذلك قد سجّل في الألواح الإلٰهية العُليا أو « باللوح المحفوظ » بالتعبير القرآني .

السعيد والشقي في بطن أمه :

عن الإمام موسىٰ بن جعفر عليه أفضل الصلاة والسـلام أنّه سُئـل ، لما قـال (ع) : « السعيد سعيـد في بطن أمـه . والشقي شقي في بطن أمـه » ، ما المقصود من ذلك ؟ فقال (ع) في جوابهم ما مفاده : إن الطفل قد قُدّر وكتب له في علم الله ، وهو في بطن أمه أن هذا الطفل من السعداء أو من الأشقياء ، ففي العلم الإلٰهي إن هذا الطفل حين يلد ويكبر سيؤول أو يسلك طريق الهدايـة أو طريق الضلال .

الصبر عند الملمّات والشدائد :

بصورةٍ عامةٍ ، فان كل صغير وكبير قد دُوّن في اللوح المحفوظ وهو قائم في مكنون العلم الإلٰهي[1] وفيما يخص هذا الموضوع فان من الضروري معرفته هو أن المؤمن يستوجب عليه حين نزول المصائب والشدائد عليه أن يُسلّم فيها أمره لله تعالى ، ويرضىٰ بطوع نفسه بما كتب الله له ، وما قُدّر « رضاً برضاك لا

(١) لكي لا يحصـل الإختـلاط في الفهم والتفـريق بين معـاني اللوح المحفـوظ والمحـو والإثبات ، والتقديـر يُفضّلُ مـراجعة كتـاب إثنان وثمـانون سؤالاً (٨٢ پـرسش) للسيد الشهيد (قدس سره) .

معبود سواك ، يا غياث المستغيثين » وإن عمق إيمانه يتجسد في هذا الرضا ، بل وطيب النفس بالمقسوم والمقدر من الملمّات والشدائد ، فيحمد الله في ذلك ، لأن الحمد لله يكونُ على كل حالٍ ، فالعبد يجب أن يعلم أن الله رؤوف رحيم ، وإنما يُقدّر لعبده ما يَصلُح له ، وما هو في نفعه ، فتقديره تعالى إنّما هو بمقتضىٰ حكمته ورأفته ، فما يُقدره سبحانه من طول العُمر وقِصره ، أو الغنىٰ والفقر أو العزة والذلة فكلما ما شاءه سبحانه وقدّره لا بُدّ أن يكون في صالح العبد ونفعه ، وذلك من اليقين ، فهو سبحانه يعلم بأنفسنا أفضل منّا ، ولو كان الأمر يعود لدينا ، فاننا أنانيّون راضون عن أنفسنا ، وهذا مما لا يصلح لنا في نهاية المطاف في حياتنا الإجتماعية ، والله سبحانه قد راعىٰ وحسب في تقديره حتى حبّ النفس هذا الذي فينا ، لذا يجبُ أن تطيب أنفسنا لما شاءه وقدّره لنا سبحانه .

هل تعلمون أن عدم الرضا ، والإعتراض على القضاء والقدر الإلٰهي هو مما يُسخِطُ اللّهَ سبحانه ويُعَدُّ من الكبائر[١] ؟ .

إنه لشقي ذلك الذي يموت ويرحل عن هذه الدنيا ، والله ساخط عليه ومُبغضهُ ، وكم هو حريٌّ بالمؤمنين ، أن يُردّدوا ، ويحفظوا هذا الدعاء الشريف الذي ورد عن رسول الله (ص) .

« أللهمَّ إنّي أسألك إيماناً تُباشر به قلبي ويقيناً صادقاً حتّى أعلمَ أنّهُ لن يُصيبني إلّا ما كتبت لي ورضّني من العيش بما قسمت لي يا أرحم الراحمين » .

---

(١) جرت الإشارة بشكلٍ مسهب لهذا الموضوع في كتاب « الكبائر » للسيد الشهيد (رض) في باب بحث الشركِ في الأفعال (حيث ان الكتاب تحت الطبع وسينشر قريباً) .

صحيفة الأعمال :

أمّا المراد الآخر لقوله تعالىٰ :

﴿وكلُّ شيءٍ فعلوه في الزُّبر * وكلُّ صغير وكبير مستطر﴾ هو صحيفة الأعمال أي إن كل ما فعله وقام به الكفار والمشركون وما اقترفت أيديهم وألسنتهم من أذى واضطهاد وزور وبهتان نسبوه للأنبياء ، كلّ ذلك قد دوّن لهم في صحائف أعمالهم السوداء ، وسيحاسبون على كل صغيرة وكبيرة فيها حين تقوم ساعتهم ، فلا يخفى علىٰ الله سبحانه أدنىٰ ذرة من ذنوبهم ومعاصيهم .

والنفخة في النار أيضاً مُدوّنة :

جاء في كتاب الإعتقادات للشيخ الصدوق (عليه الرحمة) فيما روي عن أهل البيت (ع) أن حتّى النّفخة في النّار ، مأخوذٌ بها وتُدوّن ، هذه التي تكاد أن تكون لا شيء في حجمها وضآلتها كفعل يُقام به ، لكنها توضع في الحسبان وتسجل في الصحيفة لصاحبها من حيث وجهة نظر الشرع المقدس ، فهذا العمل البسيط الصغير ، المساهمة في اشعال النار ، قد يكون مرة في سبيل الله ، ويثاب عليه صاحبه ، كما هو الحال في إعداد الطعام والغذاء لأولئك الذين توجَبُ عليهم النفقة من أيتام وفقراء ومساكين جياع فالنفخ في النار واشعالها لاعداد هذا الطعام يعتبر من عمل الخير الذي يثاب عليه صاحبه في كل نفخة ويكتب له فيه حسنة .

أما لو كانت نفس هذه النفخة لإشعال نار يغلىٰ فيها عصير العنب لعمل الخمرة ، فانها رغم ضآلة حجمها كعمل يؤدّي ، لكنها عند الله تسجل من السيئات والآثام لأنها مشاركة ومساهمة ، ولو كانت بسيطة في ارتكاب المحرم .

على العموم ، فان العمل والقول مهما كان حجمه وأثره . وبتعبير القرآن حتى لو كان وزنه ذرة ، سواءً كان حسناً جميلاً ، أو سيئاً قبيحاً ، فانه لا يخفىٰ

على الله سبحانه وفي ذلك يقول تعالىٰ : **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾**[١] ، أُفٍ تقوله لوالديك أو نظرة غضب أو تحملق في وجههما ، فربّما تحسبه عملاً بسيطاً ، وصغيراً ، لكنه قد يُكتب عليك في صحيفة أعمالك من الكبائر . (والعياذ بالله)[٢] وقد يذهب سوء التصرف هذا مع الوالدين بالكثير من الحسنات والثواب الذي نلته من قبل على أعمال صالحة قمت بها .

وكذلك الحال بالنسبة للأعمال الصالحة وأفعال الخير والأقوال الحسنة .

فهذه أيضاً تدوّن بصغيرها وكبيرها ، وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصٰها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربُّك أحداً﴾[٣] .

إن من العقائد المسلّم بها في دين الإسلام هو الإيمان بحقائق من مثل صحيفة الأعمال والكرام الكاتبين ، أي الملائكة الموكلون بتدوين أعمال الشخص وأقواله ، حسناته وسيئاته ، وقد أكدت عليها الأحاديث والروايات المتصلة المتواترة والآيات العديدة التي وردت في القرآن المجيد والتي فاقت العشرة مواضع فيه ، ومنها قوله تعالىٰ في سورة الجاثية : **﴿هذا كتابُنا ينطق عليكم بالحق إنّا كُنّا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾** . وفي قوله تعالى في سورة الزخرف : **﴿أم يحسبون أنّا لا نسمع سرَّهم ونجواهم بلىٰ ورسُلنا لديهم يكتبون﴾** وآيات أخر كقوله تعالى في سورة الإنفطار : **﴿وإن عليكم لحافظين ۞**

---

(١) سورة الزلزلة ، الآية : ٧ ـ ٨ .
(٢) سلّط الضوء على هذا الموضوع في كتاب « الكبائر » للسيد الشهيد آية الله دستغيب عليه الرحمة وفي باب « عقوق الوالدين» .
(٣) سورة الكهف ، الآية : ٤٩ .

كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ وفي سورة الإسراء يشير تعالى إلى هذا المعنىٰ بقوله : ﴿إقرأ كتابكَ كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ وفي سورة الإنشقاق نشهد المعنىٰ ذاته يقوله تعالىٰ : ﴿فأما من أُوتي كتابَه بيمينهِ * فسوف يُحاسب حساباً يسيراً * وينقلِبُ إلىٰ أهلهِ مسروراً * واما من أُوتي كتابَه وراءَ ظهرهِ * فسوف يدعوا ثبوراً * ويصلىٰ سعيراً﴾ صدق الله العلي العظيم .

أين العطرُ من النتن ؟ :

روي في كتاب الكافي للكليني عليه الرحمة رواية مفادها أن الإمام موسىٰ بن جعفر (ع) سُئِلَ : هل إن الكرام الكاتبين مطلعون ، وعالمون بمكنونات القلب ، وما يخطر عليه أم أنهم فقط مسؤولون عن تدوين ما تقوم به الجوارح والأعضاء من أعمال وأقوال ؟

فكان مفاد جواب الإمام (ع) بقوله مستفهماً : وهل رائحة البالوعة وقنينة العطر شيء واحد ؟ إنّك حين ترفع غطاء البالوعة فان رائحة كريهة نتنة ستصل إلى مشامّك ، أما حين تفتح غطاء قنينة العطر ، فسوف تَطبُ نفسُك برائحتها .

فكل من ينوب عملاً حسناً صالحاً ، فانّ رائحته الطيبة الفائحة عن نيته وعزمه ستَسرُّ الملائكة حين تنتبه لها ، فتُدوّن له حسنة ، وإن لم تتجسد نيتُه إلى عمل (بالطبع النيّة الصادقة) وأما بالنسبة للنية السيئة ، كأنْ ينوي أحد القيام بعمل منكر ومحرم ، فان الكرام الكاتبين يقفون على أهبة الإستعداد لتسجيل سيئة عليه فان فعلها سجّلوه عليها عاراً يخزيه يوم القيامة ، وإن تاب أو عَدل عن ارتكابها فلا يكتبون عليه شيئاً وأما عمل الخير فان فعله فسيكتبون له أجر عمله من الحسنات بقدر حجم عمل الخير الذي قام به ، فبعض الأعمال قد تضاعف حسناتها .

إذن فالنية والعمل الصالح ، لكل أجره وحسناته ، وأما السيئات ، فلا يؤخذ بالنية ، بل على الفعل وحسب .

يجب إزالة الحجب المانعة لقبول الأعمال :

في رواية ذكرت في عدة كتب من كتب الحديث والروايات عن أهل البيت (ع) منها ما ذكره ابن فهد الحُلي (رض) في كتاب « عدة الداعي » وكذلك السيد الجزائري في كتابه « الأنوار النعمانية » والسيد هاشم البحريني في تفسير « البرهان » وآخرون في مؤلفاتهم القيّمة ، وهو حديث شريف عن رسول الله (ص) عرف بحديث معاذ (رض) وفيما يلي جانب منه .

« مفاد الحديث » :

يقول معاذ كنت عند رسول الله (ص) ، فقال : أُحَدّثك بحديث ، فان عملت به انتفعت ، وكان خيراً لك ، وإن أهملته فقد تمت حجتي عليك .

إعلم يا معاذ :

إن صحيفة أعمال العبد حينما ترفع إلىٰ السماء وتصل إلىٰ السماء الأولىٰ وفيها ملكٌ ينظر إليها فيُرجعها إلىٰ صاحبها ويقول : إنني أُمرت أن أنظر إلىٰ عمل صاحبها ، فان كان كتب فيه الغيبة ، فأردها إلى صاحبها ولن أقبلها . ثم ترفع صحيفة شخص آخر لم يكن فيها الغيبة ترفع الصحيفة عابرة السماء الأولىٰ إلىٰ السماء الثانية فيتلقّاها ملك في السماء الثانية وينظر إليها ، ويقول : أُمرت أن أرى فيها هل إن صاحبها كان متقياً ، وربما يعمل بالحلال وينتهي عن المحرم ، فان لم يكن ذلك ، فلن أقبل منه عملاً وأردها .

ثم يُرفع عمل شخص ثالث ليس في صحيفته غيبة وكان فيها التقوى والورع فتجتاز السماءين الأولى والثانية إلى السماء الثالثة فيتلقاها ملك فيها ، فيطلع عليها ، فإذا به يرفضها ويقول . إنني لا أقبل عمل صاحبها لانني أُمرت أن لا أقبل عمل كل متكبّر .

ثم يُرفع عمل شخص آخر يخلو من الموانع الثلاث السابقة ويجتاز السماء

الثالثة إلىٰ الرابعة ، فيطلبها ملك يقف على باب السماء الرابعة ويطلع عليها ويمنعها من الصعود . ويقول : إنني لا أقبل صحيفة أعمال كتب فيها إن صاحبها حسود .

ثم يرفع عمل شخص خامس ، لم يكن في صحيفته مما سبق من الموانع فترتقي صحيفته إلىٰ السماء الخامسة ، فيعترضها ملك ، ويقول : إنني أُمرت أن أردَّ عمل شخص خالطه العُجب ، العُجب في عبادتهِ يتفاخر ويتباهى بها ويُعظمها في نفسه متصوراً أنه بالغ في العمل والعبادة حتًى صلد عملُه في عينيه وكأنّه الجبل .

وعمل آخر يخلو من ذلك ويصعد إلىٰ السماء السادسة ، فيعترضه ملكاً بعد أن يطلع عليه ويقول : إني أمرت ان أردَّ وأرفض كل عملٍ يخلو من الرحمة والرأفة وأرميه على رأس صاحبه ، إنني لا أقبل عمل شخص قاسي القلب ليس فيه أدنىٰ ذرة من الرحمة والعطف .

ثم يرفع عمل آخر ، يخلو مما سبق فيصل السماء السابعة ، فينظر فيه الملك الواقف عن بابها فيرفضه ، وينادي : إنني ملك الإخلاص وصاحب هذا العمل ، كان مرائياً في عمله فلن أقبله .

ويرفع عمل آخر يمر عبر الحجب السبعة فيأتي النداء من مصدر الجلال القدسي إلى الملائكة : إن عمل هذا الشخص لم يكن خالصاً لوجهنا ، فلن نقبلَه .

وحقاً لنا أن نمعًن في هذا الحديث وخاصة في فقراته الأخيرة التي تؤكد على خطر الرياء وعمقه الذي قد يخفىٰ على ملك السماء السابعة ومع ذلك فان الله سبحانه يفضح صاحبه ولا يخفىٰ عليه خافية .

حياة رسول الله (ص) ووفاته رحمة :

في رواية عن رسول الله (ص) يقول فيها ما مفاده : إن حياتي لكم خير ، ومماتي لكم خير ، فقالوا : يا رسول الله نعلم ذلك في حياتك ، كما يقول تعالىٰ : ﴿وما كان الله ليُعذِّبهم وأنت فيهم﴾ أما كيف الخير في مماتك ؟ فقال (ص) : بعد مماتي فإنَّ أعمالكم تُعرض عليٌّ فان كانت حسناتٍ ، أدعو الله لكم كي يقبلها ، وإن كانت سيئات فأطلب العفو لكم والصفح .

مم الأسىٰ والخوف على سور أمة أضحىٰ عظيم شخصك له السندا
وهل يؤسىٰ على سفينةٍ في هائجٍ نوحُ كان ربانها المؤيدا

(شعر فارسي)

ولكن ليكن الصادر منا من السيئات بالشكل الذي يقبل الإصلاح والصفح والعفو حين الإستغفار والتوبة ، وليس بالصورة التي تكون فيها صحيفة أعمالنا سوداء ومظلمة بالذنوب والسيئات وارتكاب المحرمات من أولها إلى آخرها (والعياذ بالله) .

فاليصدر منا من السلوك والعمل ما لا يجعلنا غداً في الموقف ، نقف ناكسي الرؤوس خجلين والحياءُ يملأ كل جوانحنا أمام حضرة الجلال القدسي وأمام نبيّنا (ص) وأئمتنا (ع) والملائكة وعباد الله الصالحين المؤمنين فكلهم صلوات الله عليهم سينظرون إلى صحائفنا وأعمالنا وكما يقول القرآن المجيد ﴿ وقل آعملوا فسيرى الله عملكم ورسولهُ والمؤمنون ﴾ .

« لا علاقة بين التقدير والجبر »

إن المواضيع التي عرضنا لها في المعنىٰ الأول للآيتين الشريفتين السابقتين قد يتبادر إلى الأذهان أنها تدعم مذهب الجبر، وتؤيد القائلين به، في الوقت الذي هي بعيدة كلّ البعد عن ذلك، فالخبر يخالف الوجدان والحس العقلي والشعوري للإنسان .

« يـا قـائـلاً أيفعـلُ هـذا وذاك

آختـرتَـه يـا صنـماً من رضـاك »

(شعر فارسي)

فكل يعلم في وجدانه أنه قد اختار من نفسه طريق الطاعة فأدىٰ صلاته وعباداته، وهو يعلم أيضاً أنه كان بامكانه أن ينتخب طريق العصيان والفجور، فلا أحد يُجبره على هذا أو ذاك من الأعمال، فقد يختار منطلقاً من قناعة ذاتية في نفسه طريق المسجد أو قد يختار طريق السينما والملهىٰ، فالمسجد بابه مفتوح لمريديه، وذلكما مفتوحان لمن اختار الفجور والمعصية .

ـ ملاحظة: هنا تذكر السينما والمقصود بها تلك التي كانت في العهد الملكي

المقبور) -.

فالكل بإمكانه أن يختار أحد هذين المسلكين، فهل هناك من يَضطرك بالقوة والضغط على الذهاب إلى المسجد أو إلى الملهىٰ ؟ كلّا فالذي يدعوك إلى المسجد هو الشوق إلىٰ ذكر الله وتطهر القلب وإنعاشه بالمواعظ والذكر العلّي. وإسكانه بالاطلاع والبحث في حقائق القرآن المجيد والعلوم الإلهية، هذا الذي دعاك إلى اتخاذ طريق المسجد، وفي نفس الوقت فإن الذي دعا الفجار والفساق والعصاة إلى سلوك طريق الفجور والفسق والعصيان ومشاهدة الأمور التي تنافي العفة والعصمة والطهارة والاخلاق، كدور السينما الفاجرة والملاهي الداعرة، الذي دعا هؤلاء وساقهم إلى تلك الأماكن الرذيلة إنما هو الهوى والشهوة المستعرة في نفوسهم الواطية.

الإتيان بالادلة على البديهيات !!

يقول المحقق القُميّ « عليه الرحمة الواسعة » إن لو جئت بألف دليل لإثبات أمرٍ وحقيقةٍ بديهيّةٍ ! تراهم يرفضون ذلك ولا يقبلون بها ، فمسألة الإختيار متأصلة في وجدان الإنسان وضميره ، وعلى فرض ذلك ، فإن الجبريين يأتونك بألف دليلٍ لإثبات عقيدتهم[1] .

أما بالنسبة لحديث « السعيد سعيد في بطن أُمّه ، والشقي شقي في بطن أُمّه » فهو أيضاً لا علاقة له بالجبر ، فالسعيد سعيد في بطن أُمه ليس معناه : أنه حين يُولد إلى هذه الدنيا ، فانه يخرج إليها فاقداً الإختيار في مسلكه الحياتي ، كلا ، بل إنه يولد وحين يبلغ الرشد لديه عقله السليم ، وكاملُ اختياره فيختار

---

(١) وللمزيد من الإطلاع يمكن مراجعة كتاب (٨٢ سؤالاً) في السؤال الخامس .

من نفسه طريق الهدىٰ والرشاد فيكون سعيد ، وهذا الإختيار إنما كان يعلمهُ الله سبحانه في علمه الغيبي ، فهذا هو المقصود ، من السعيد سعيد في بطن أُمه أي ليس معناه ان السعداء في الدنيا ، إنما كانوا سعداء بالقوة والجبر وكذا بالنسبة للتعساء أو الأشقياء كما عبّر عنهم في الحديث الشريف .

وعلىٰ ما سبق ، فان معنىٰ الحديث الذي ورد عن الإمام موسىٰ بن جعفر (عليه وعلىٰ آبائه صلوات الله وسلامه الأبدي) يكون إن الله يعلم بعلمه المسبق أن هذا الطفل الذي ما يزال في بطن أُمّه حين يولد ويبلغ الرشد فانه سيسلك طريق الخير من محض اختياره هو ، فيكون سعيداً أو يسلك الشر بمحض اختياره أيضاً فيشقى في دنياه .

وبهذا يتضح أن الحديث لا صلة له بالجبر ومذهبه الباطل بتاتاً .

وجاء في بعض الروايات أنّ بعض الملائكة ، وليس كلّهم يعلمون أن هذا الطفل سيكون سعيداً أو شقياً .

علم العلة مجهول :

جاء في بعض ما قاله وتفضل به حكماء المتكلمين والفلاسفة الإسلاميين ومن ضمن هؤلاء الملاّ (الخواجة) نصر الدين الطوسي في هذا الصدد هو إن علم العلة مجهول إنما يتبعها ، فمثلاً إنك تعلم أن الشمس ستطلع بعد بضع ساعات ، ترى من أين حصل لك العلم يقيناً بأن الشمس ستطلع بعد بضع ساعات ولا بدّ من طلوعها ؟ هل إن طلوع الشمس كان بعلمك أنت أي لولا ما علمت ذلك ؛ فان الشمس تأبىٰ الطلوع ؟ كلاّ إن الشمس تطلع أو لا تطلع ، فلا علاقة لطلوعها بعلمك ، أي إن علمك الحاصل لا يُجبرها على الطلوع ، وهذا المثال توضيح تقريبي للمعنىٰ السابق في العلم الإلٰهي ، بالسعادة والشقاء ، وما غير ذلك من المغيّبات الإلٰهية .

إذن فان الكلام الذي ورد في الشعر المنسوب للخيام فارغ ولا معنىٰ له

والذي يقول :

إنه قد علم منذ الأزل أني محتسيها   وإن لم أكُ أفعل لأضحىٰ علمه جهلاً

(يُفضّل مراجعة وعاميات عمر الخيام)

كان الأحرىٰ أن يُجيب أحدُهم هذا الشاعر ، يا هذا إنّ الله سبحانه يعلم أنك تُحضِّر هذا السّم وبيدك ويعلم أنك ستتناولهُ بمحض إرادتك ، والآن إما باستطاعتك أن تمتنع عن تناوله ؟ نعم فالله يعلم أنك وبسوء اختيارك ستتناوله وأنك قلت هذا الكلام الفارغ من جهلٍ قابعٍ فيك ، ولا تريد أن تعي ذلك ، والآن فهل هذا العمل الإلهي هو السبب في وقوع الأشياء وحصولها ، هل هو السبب في كون السعيد سعيداً والشقي شقياً في بطن أُمّه ؟ كلا وحاشىٰ لله[1] .

الخير بتوفيق الله :

هناك عبارة عن الإمام أمير المؤمنين (ع) نقولها ونحن في صدد بحث الجبر والتفويض ، يقول فيها (ع) : « الخير بتوفيق الله والشر بخذلان الله » ، الخير بتوفيق الله ، وليس المراد أن الله يُجبر أحداً بالقوة على فعل الخير ، وكذلك بالنسبة للمعنىٰ المضاد ، أي إن سالك الشرك يدعْه الله لنفسه .

إن الإنسان إذا ما أُوكِلَ لنفسه من أين له سلوك طريق الخير والصلاح لولا أن يكون هناك النظر واللطف والتسديد الإلهي ، أي إنه سيسلك طريق الخير والصلاح بمحض إرادته واختياره ، والله سبحانه يُمدّه ويُسدّده في ذلك وهذا اللطف والتسديد والعون هو ما نسميه بالتوفيق ، ونحن كثيراً ما ندعو الله سبحانه ونقول : « أللهمَّ ارزقني توفيق الطاعة وبُعدَ المعصية » .

---

(١) والمعروف ان المحقق الطوسي (رض) قال بيت شعر رداً على البيت الذي قاله الخيام وهو   لدىٰ الحكماء من الجهل التصور   أن علة العصيان علمٌ أزلي

بلعم بن باعورا وعاقبة الشّرّ :

ورد في حديث عن الإمام موسىٰ بن جعفر (ع) ما يفيد من قوله إن بلعم بن باعورا ، قد بلغ في دنيا العلم والعمل من المستوىٰ والتعمق والتقدم ما جعل دعاءه مستجاباً ، غير مردود ، حتى أنه كان يعلم آسم الله الأعظم ، ولكن مع كل هذا فقد رحل عن الدنيا ومات كافراً ، وقد مُثّل في القرآن المجيد بالكلب[1] ترى كيف آلَ الدّهرُ بهذا الشقي ؟

يقول الإمام (ع) أحدُها أن الله سبحانه وكلَهُ إلىٰ نفسه ، وسببُ إيكاله إلىٰ نفسه يقول (ع) : إنه لم يشكر نعمة الله عليه ، بل راح يكفر بها والكفران يُسببُ خذلان الله ، الذي شمله وسقط عن اللطف والتوفيق الإلٰهي ، ومعلوم أن الذي يُحرم اللطفَ الإلٰهي ويُقطَعُ عنه ، فان بابه مفتوح لدخول الشياطين ، ووسوستها في قلبه ، فتجعله ينسلخ عن الطريق القويم .

على أية حال ، فليس هناك أي شكل من أشكال الإجبار والإكراه في الأمر والله سبحانه يقول في صريح القرآن المجيد : ﴿**لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغي**﴾ فالأمر الذي يحمل الخير والصلاح ، فان وراءه التسديد والتوفيق الإلٰهي إلى الخيرات ، وأما الشر الذي يوجب الخذلان والإيكال الإلٰهي للشرير إلى نفسه .

---

(١) يقول تعالى في شأنه : ﴿ **وآتلُ عليهم نبأ الذي آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منها فاتبعَهُ الشيطانُ فكانَ من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولَكنَهُ أخلدَ إلىٰ الأرض واتبع هواه فَمثَلُهُ كَمثَلِ الكلبِ إن تحملْ عليه يلهثْ أو تتركه يلهثْ**﴾ سورة الأعراف ، الآيتان : ١٧٥ ـ ١٧٦ .

التفويض لا يعني الإستقلالية التامة :

لتبيان هذا الموضوع والتمييز بين الإختيار والإجبار في الحركة تضرب لذلك مثالاً إن اليد حينما تصاب برعشةٍ فاننا نجدها ترتجف من ذاتها ودون إرادة صاحبها في تحريكها ، واما في الحالات الطبيعية فان حركة اليد تتبع إرادة الشخص ، إن شاء حركها وإن لم يشأ تبقىٰ ساكنة وهذه هي الحركة الإختيارية ، اما في الحالة الأولىٰ التي لا يتمكن الشخص من السيطرة على حركة اليد حين الرعشة فهي الحركة الإجبارية أو الإضطرارية .

انك حين تتناول طعاماً فان رفع اللقمة وادخالها في الفم ثم مضغها وبلعها فكلّ ذلك يتم بحركة اختيارية أي انك باستطاعتك ان لا تمدَّ يدك إلىٰ الطعام ومن ثم تناوله وإن كنت في أشد الجوع ، بينما حين يدخل الطعام إلى المعدة ومنها إلى الإمعاء ويتم هضمه وكل نشاط يعقب البلع سيكون نشاطاً لا إرادياً أي اضطرارياً لا يمكن للإنسان ان يسيطر عليه أي ليس بامكانك توقيف حركة معدتك إن هي سالمةٌ تعمل ، وبالعكس لا يمكنك ان تجبرها على الهضم الطبيعي إن هي توقّفت عن العمل أو آختلَّ عملها لطارىء يطرأ عليها فيُعطّلها .

لا شك انّ جميع أعمالنا التي نقوم بها هي من النوع الثاني أي الإختياري والمتعلق بإرادة الإنسان وليس كرجفة اليد ، فالذي يختار السعادة على الشقاء يمضي في طريق السعادة حتى بلوغها بمحض إرادته والذي يندفع بدافع شهواته وأهوائه الضالة يمضي في طريقه نحو الشقاء كما أوضحنا ذلك سابقاً .

اما الموضوع المهم الآخر الذي ينبغي الإشارة إليه هنا هو أنّ الإختيار ليس يعني اختياراً تاماً مستقلاً أي ان المرء يكون له كل ما شاء وأراد وبمعنىٰ آخر ان منتهىٰ الوقوع يتوقف على الإرادة الإلٰهية أي ان الذي يُريده الله ويشاؤه يقع ويكون لا كما يريد العبد ، فان شاء سبحانه كان وإن لم يشأ لن يكن .

معنىٰ التفويض :

ان التفويض الذي هو مقابل الجبر وضده ، أي ان للعبد كلَّ ما شاء وأراد في جميع الأحوال والظروف والشؤون ان يفعل ما يشاء ويكون له ما يريد وهو مذهب المفوضة ليس هو التفويضُ الذي نعنيه فهذا خطأ عقائدي ذهب إليه المفوضة الذين هم نقيض الجبرية .

بل ان حقيقة التفويض هي تركُ الإستطاعة والقدرة للعبد بشكل مستقل أن يقوم بكل ما استطاع عليه مما شاءه وان يكون له ما أراد .

وهذا الموضوع ، موضوع وجداني صميمي لبطلان الجبر .

انك الآن ربما تريد فعلَ أعمال خير كثيرة لكنك لا تستطيع ذلك لانعدام الوسائل التي يُمكنك بها انجاز تلك الأعمال الخيريّة .

وذلك هو الذي يقول عنه أمير المؤمنين (ع) في خطبة له وردت في نهج البلاغة جواباً لسؤال سأله أحدهم حينما قاله له : كيف عرفت الله يا أمير المؤمنين ؟ فيجبه (ع) : « عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم ، عزمت ولكن خالفَ القضاء عزمي » .

من هنا يتبيّن لنا ان منتهىٰ الإرادة ليست في أيدينا ، بل إن هناك مدير ومدبّرٌ آخر ، والدليل اننا لو كان لنا مطلق الإختيار والإرادة والإستطاعة ترى لماذا أحياناً حينما نعزم علىٰ شيء ونريد انجازه لا يكون لنا ذلك بل ربما يكون عكس ما نهدف إليه . ﴿وما تشاؤون إلاّ أن يشاءَ اللّهُ ربُّ العالمين﴾[1] .

لكل شيءٍ قدرٌ :

ورد في كتاب (أصول الكافي) للكليني (عليه الرحمة) حديث عن الإمام موسىٰ بن جعفر (ع) يستفاد منه « لا يقع أمر في السمٰوات والأرضين إلاّ

---

(١) سورة التكوير ، الآية : ٢٩ .

بقضاء وقدر من الله تعالى وإذنه الحق جلّ وعلا وكان قد دون في اللوح المحفوظ » .

وفي القرآن المجيد مصداق لقول الإمام (صلوات الله وسلامه عليه) حيث يقول الباري : ﴿ما أصابَ من مُصيبةٍ في الأرض ولا في أنفُسِكُم إلاّ في كتابٍ من قبلِ أنْ نبرأَهَا إنَّ ذلكَ علىٰ اللّهِ يسير﴾ .

ثمرة البحث :

إذن فخلاصة الموضوع والحديث هو ان العباد عندما يكونون أحراراً مختارين في أعمالهم غير مضطرين ومجبورين عليها لكن مع ذلك فان اختيارهم ليس تاماً ومستقلاً بل هو منوط بالإرادة والإذن الإلٰهي ، نعم فالعبد يقدر علىٰ انجاز عمل واخراجه إلى الوجود عندما يَنسجم مع الإرادة والمشيئة الإلٰهية وتتفق معه وإلاّ فمن المستحيل ان يتم ذلك الإنجاز .

لُعِنَ المُفوِّضون :

من الأحاديث المشهورة والمتواترة عن طرق أهل السُّنَّة والشيعة هو هذا الحديث الذي ورد عن رسول الله (ص) « لكلّ أمّةٍ مجوسٌ ومجوسُ هذه الأمة القدرية » وكذلك عنه (ص) قوله : « لعن الله القدرية علىٰ لسان سبعين نبيّاً » وغير ذلك من الروايات الكثيرة في هذا الخصوص .

والآن ترى ما هو مغزى وأهداف القدرية ما جعلهم يُلعنون على لسان الأنبياء ويُوسمون بالكفر ؟

سيوفُ العالم لو سُلّت بأجمعها * لم تقطعْ لولا ارادته وريدا

(شعر فارسي)

القدرية هم المجبرة والمفوضة على سواء :

حين نعبر بتسمية القدرية فاننا تـارةً نعني بهم المُجبرة أو أتبـاع المذهب الجبري وتارةً أخرى نُريد بهم المفوضة أي القائلين بالتفويض الخـاطىء الذي سبق ان بيّناه قبل قليل . ولو ان الإثنين متضادان في الإتجاه والمـذهب لكنهم يشتركون في هدف التضليل والكفر .

ان الشيء الـذي يجب ان يلتفت إليه المؤمنـون بـالنسبـة إلى هـذين المسلكين آلضـالّيْن هو ان المـرء سيصبح تـارةً جبـريّ المسلك وتـارةً أُخـرى تفويضياً أي اختيارياً مطلقاً حسب الظروف والأحوال التي تطرأ على حياته فتراه تفويضياً بالنسبة للأمور والقضايا التي تتفق وتنسجم مع ميوله ورغباته ومن ناحية أخرى تراه يقول بالجبر والإكراه حينما تتعارض تلك القضايا والأمور مع مصالحه وأهوائه ورغباته .

ولتقريب ذلك للأذهان نضرب بعض الأمثلة .

فمثلاً تجده إذا ما منحه الله ومنّ عليه بان رزقه طفلاً يغمض عينه عن الله سبحانه ولا يخطر علىٰ باله منّه وعطاءه وفضله ، لذلك لا تجده يشكر نعمة الله سبحانه بل وعلاوة علىٰ ذلك تجده يرتكب المعصية والإثم بدلاً من الشكر كأن يأتي بالمطربين ووسائل اللهو واللعب والخمور وغير ذلك ، ترى لو كان يعلم ان هذه النعمة (هبة الولد) من الله سبحانه فلم يجعل الشكر بالمعصية وهل يُشكرُ اللَّهُ على نعمته بالمعصية ؟

ولو اتفق ان الطفل كبُر ثم مات فتراه يصبح جبرياً في رؤيته فيعـزو موت ولده بانه من الله مئةً بالمئة وعنـدها تجـده متمرداً على الله غيـر راضٍ بقضاءه وقدره .

أو ربما تجد البعض يرجع المرض والموت إلى الله ، لكنّ عقيدته حين التماثل إلى الشفاء وتحسّن الصحة في الطبيب والدواء الذي آجترعه وكأنَّ لا يَدَ

لله سبحانه في تماثلهِ إلى الشفاء والعافية .

أو ان البعض حين يحصل على أموال وثروات طائلة يدّعي ان ذلك بكدّ يمينه وقوة ساعده وبفضل قلمه ولسانه وعلمه أو بعزيمته وطاقاته الخارقة ولكن إذا اتفق أن خسرَ ذلك كله وفُقِدَ من يده فسيُعزي ذلك إلى الله ، فالسّراء من نفسه والضّراء مَن الله ! وأمثال هؤلاء ما أكثرهم بين ظهرانينا مثل قارون حينما أعطاه الله من المال والقوة قال كما عبّر عن لسانه القرآن المجيد : ﴿قال إنّما أوتيته على علمٍ منّي﴾[1] .

قُدرتي بالله :

في رواية مفادها ان عباية بن ربعي الأسدي كان عند أمير المؤمنين (ع) فسأله : يا أمير المؤمنين أقدرة الإنسان بالإستقلال ؟ وهل هو مختار في أفعاله وأقواله ؟ فسأله الإمام (ع) : وهل قدرتُك بالله أم بدونه تعالىٰ أم ان لك قدرتين منك ومن الله ؟ فلم يستطع عباية الجواب فسكت فبادره أمير المؤمنين (ع) قائلاً :

« إذا قُلت ان القدرة من عندي فقد كفرت وإن قلت من عند الله ومن عندي فقد أشركت (أي جعلت نفسك قرن الله وعَدَلتَ نفسك به والعياذ بالله) فقال عباية : إذن ما أقول يا أمير المؤمنين ؟ قال (ع) : « قل إنّما قدرتي بالله » .

أي « قدرتي من قدرة الله سبحانه » نعم ، لي قدرة ولكنها من الله سبحانه ومن دونه جل وعلا لا شيء عندي »[2] .

وفي بحار الأنوار للمجلسي (عليه الرحمة) وردت رواية أخرى مماثلة

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٧٧ .

(٢) ﴿لا يملكُ لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾ .

للحديث السابق في المجلد الثالث من الكتاب :

« قال له الإستطاعة تملكها مع الله أو من دون الله وإيّاك ان تقول واحدةً منهما فترتد ، فقال وما أقول يا أمير المؤمنين ؟ قال (ع) : « قل أملكها بالله الذي أنشأ ملكتها » .

« صحيفة الأعمال لأجل ماذا؟ »

﴿وكلُّ شيءٍ فعلُوهُ في الزُّبر * وكُلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مستطر﴾ .

ذكرنا من بين معاني هاتين الآيتين الشريفتين انّ المقصود من الـزبر هي صحيفة الأعمال وهي ان كل عمل وفعل وقول وكل أدنىٰ صغيره وكبيـره تصدر من أي إنسان مدوّنـة مثّبتة عليـه وليست هذه الصحيفـة من جنس عالم المـادة « المُلك » وهذا مما يثير العجب والدهشة لدىٰ الإنسان إزاء كيفية تدوين أعمال الأولين والآخرين في الحياة الدنيا فكم سيحتاجون من الكُتّاب وكم هي كميات الورق والأقلام والحبر اللازمة ، انه ربما يكون كتاباً ضخماً وسميكاً جداً بحيث اننا لا يمكننا ان نرى ونلاحظ . ورقه ولا نستطيع مشاهدة كاتِبه .

وهذا التصور نابعٌ من الجهل وقصور الفكر .

انـك لو فكـرت مليّاً وتـأملت في نفسك ان لـوحة في داخـل ذاتك ليس كاللوحات المادية بل هي ما نعبّر عنه بالحافظة أو الذّاكرة فكم في الذّاكـرة من الأعـمـال والأمـور التـي نطالعها ونتفاعل معها في الحياة تبقىٰ كامنة فيها وهي بالحجم الذي لو أراد أي إنسان ان يُسجل ما في ذاكرته علىٰ الورق لاحتاج إلى ذلك ما يملأ به كتباً ودفاتر وسجلّات . بينما نعلم ان الذاكـرة هي حيّز صغيـر ومحدود جداً في مـخ الإنسان ، وبعـد هذا يتبـدّد الكلام السـابق ويصبح بـلا معنىٰ .

اللّهُ هو العالِم :

من مجموع الشبهات التي يمكن ان تخطُر على البال ويطرحها البعض هو أليس الله سبحانه يعلم بكل الأشياء والأحوال صغيرها وكبيرها ، أليس علم الواحد الأحد محيطاً بكل الوجود بحركاته وسكناته وهو الذي يصرح عن جلال نفسه سبحانه في القرآن ﴿انه على كل شيء شهيد﴾ ، ﴿أحاط بكل شيء علماً﴾ ﴿ إنّه بكل شيء محيط﴾ فهو سبحانه إذن محيط ويسمع ويرىٰ كل شيء ولا تخفى عليه خافية ويعلم ما تكنه الصدور وما في النوايا ، بل يعلم بما كان ويكون ، ومع ذلك جعل من يسجل أعمال العباد التي يمكن ان ينسبونها ويغفلون عنها ترى ما السبب الذي دعاه سبحانه ان يوكّل هؤلاء الذين يُسميهم بالكرام الكاتبين لكتابة أعمال العباد وفتح صحائف لهم ؟

وهذه الشبهة يجيب عليها العلاّمة المجلسي « رضوان الله عليه » في المجلد الثالث من بحاره (بحار الأنوار) في كتاب الإحتجاج حيث يذكر فيها : ان أحد الزنادقة (الملحدين) جاء عند الإمام الصادق (ع) وقال له : انكم تقولون ان لكلّ فرد ملكين ، أُمِرا بتدوين أعماله في حين انكم تعلمون أنَّ الله يحيط علماً بكل شيءٍ ؟ (أي انه ألقىٰ ذات الشبهة السابقة) .

فأجابه الإمام ببضعة أجوبة أولها هو أن الله سبحانه جعل للملائكة عبادة وهو رزقها ، بلىٰ فرزقُ المَلَكُ العبادةُ ، وكل صنفٍ من الملائكة له عبادة معنية خاصة به ، ومن هذه الأصناف هم الكرام الكاتبون الذين جعل الله عبادتهم التي هي رزقهم بتسجيل أعمال العباد .

امّا الجواب الثاني هو ان الله سبحانه جعل هذا الصنف من الملائكة شاهداً علىٰ عباده وعندما يصبح في علم العبد ويتركّز في ذهنه ان هناك مَنْ يصَحبهُ في كل لحظة وهو في قرارة ذاته ليشهد عليه أعماله ويحصيها ولا ينساها كما هو ينساها ، ويراقبه مراقبة بحيث لا يفوته أدنىٰ عمل أو قول يصدر منه ،

ترىٰ أليس يكون حذراً ومتقيّاً ما يُسبّب له المعاناة والأذىٰ في الآخرة وربما في الدنيا ، أليس يكون مواظباً على الواجبات الشرعية والفرائض التي كُلف بها وعلى فعل الخيرات والصالحات في حياته مجتنباً المعاصي والخطايا بلىٰ وانه سيعلم غداً ان أعماله حاضرةٌ أمامه شاهدةٌ عليه وانه سيكون ويقف موقف المجرم الذليل الذي يأخذ الحياء منه مأخذاً عظيماً خصوصاً وهو واقف أمام الواحد الأحد إن هُو لم يكن آبهاً بما حُذّر منه ومرتكباً في أعماله وأقواله ما نُهي عنه .

ومن بين هذه الأجوبة أيضاً هو ان الله سبحانه كبير وعظيم لا موجود أعظم منه وهو ربّ الوجود لذا كان من شأنه الجليل ان يقوم بعمل يناسب عظمته وسلطانه ومهما كان الإنسان صغيراً وعمله صغيراً بالتّبع لكنه يكتسبُ الأهمية لانه يُرجع ويُرفع إلى عظيم وللدلالة على هذه الأهمية ينتقل ويدور هذا العمل من يد إلى يد ويجري تثبيته وتدوينه ثم يُمرر ليطلع عليه الرسول (ص) والأئمة والملائكة ، وشهادة ذلك في صريح القرآن المجيد حيث يقول تعالى : **﴿وقل آعملوا فسيرى اللّهُ عملكم ورسوله والمؤمنون﴾** .

صيانة الإنسان وحفظُه من الشياطين :

ان إحدىٰ الحِكم من وراء خلق الكرام الكاتبين هي حفظ المؤمن من الشياطين فحينما تقترب الشياطين من المؤمن فان هذه الملائكة تقوم بطردها ولكن إذا ما سعىٰ الإنسان بنفسه وراء الشياطين يَطلبُها فذلك أمر آخر وله كلام آخر .

فحين الموت تسعىٰ الشياطين للدنوّ من المؤمن لكي تسلُبَه نور الإيمان فعندئذٍ يتصدىٰ لها الكرام الكاتبون ويُعينون المؤمن عليها .

دفع الآفات والمخاطر عن المؤمنين :

اما الغاية الأخرىٰ من خلق هذه الملائكة هو حفظ البدن من البلايا والآفات والحوادث الطارئة ، كذلك الذي أشرنا له سابقاً وقلنا انه الحفظ الذي يَمُنّ به الله علىٰ الإنسان بصورة مدد غيبي منه تعالىٰ من عشرات المخاطر والآفات والعوارض التي يتعرض لها الإنسان خلال يومه وهذا المدد يكون بواسطة هذه الملائكة ولولاها كيف بوسع الإنسان ان يسلم ببدنه وعافيته من تلك المخاطر ؟ فمنذ ولادته وخلال مراحل طفولته علىٰ الأخص تعمل هذه الملائكة على حفظه من الشدائد والملمات والأخطار التي يعرض لها .

يعبدون للمؤمن :

بعد موت المؤمن يتوجه الكرام الكاتبون إلىٰ الله سبحانه ويقولون ربّنا : إنّ هذا الذي أمرتنا ان نسجل عليه أعماله قد رحل عن هذه الدنيا فماذا تأمرنا ؟ فيأتي النداء من الجلال القدسي : ان السمٰوات تعجُّ بالملائكة ، امكثوا على قبره وآفعلوا الخيرات والعبادات التي كان يؤديها واكتبوا ثوابها له ، فيفعلون ما يؤمرون .

تعزية المؤمن :

مما يقوم به الكرام الكاتبون هو تأبين المؤمن وإقامة العزاء عليه وربما يستفاد من بعض الروايات بان هذا الأمر ليس من اختصاص هذين الملكين ، بل إن أبواب السمٰوات التي تمرّ عبرها أعمال المؤمن وتُرفع إلىٰ الأعلىٰ ، حينما يموت هذا المؤمن يَبكي له من عند هذه الأبواب أو ربما أبواب السمٰوات ذاتها وكذلك تبكيه كل بقعة أرض صلّىٰ عليها اما بأية صورة تبكي عليه الأرض فهذا مما ليس بوسعنا إدراكه .

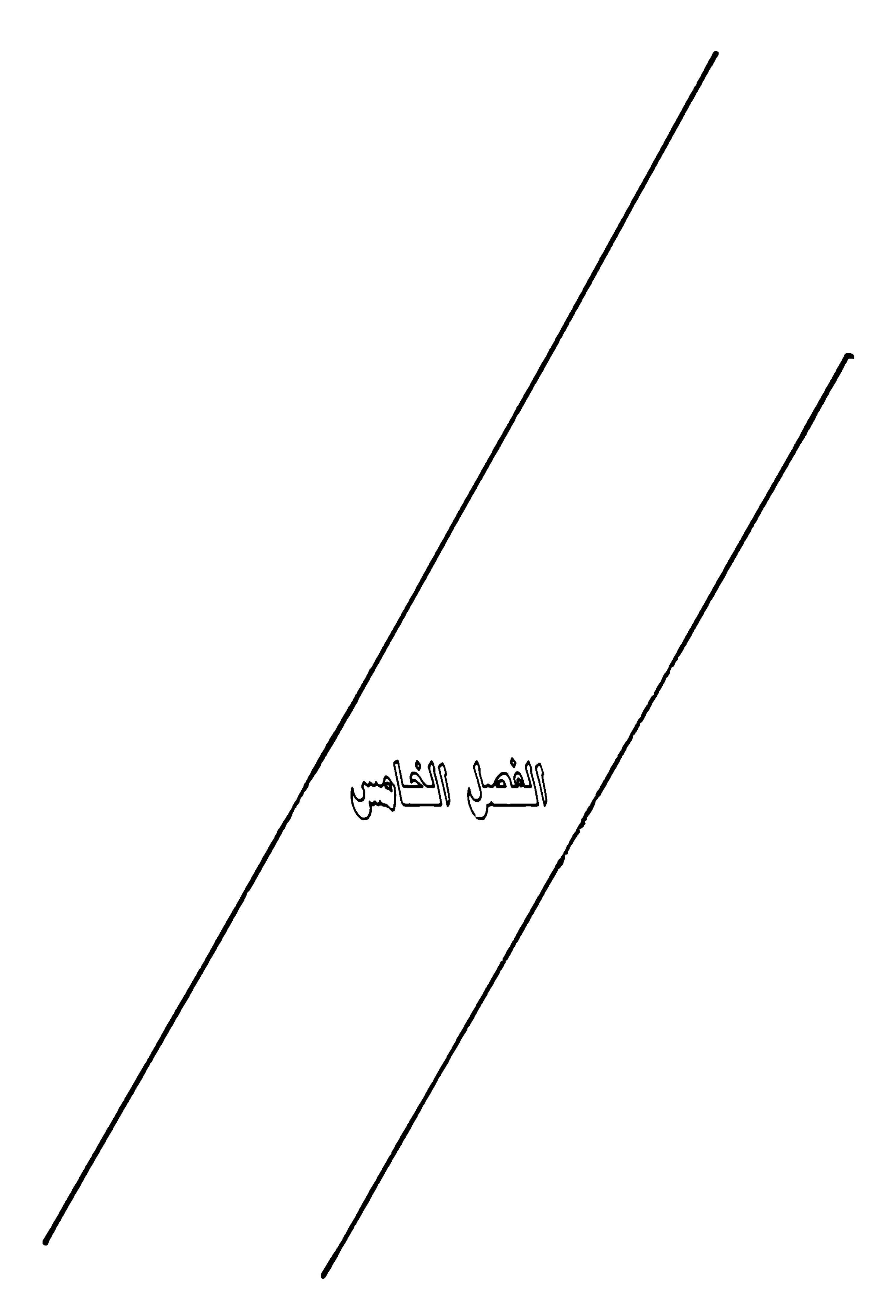
الموعظة الجامعة :

روي في كتاب بحار الأنوار رواية مفادها : أنّ أميرَ المؤمنين (ع) كان يمرُّ يوماً عابراً فرأىٰ شخصاً جالساً ويطلق كلاماً تافهاً عبثاً فقال له الإمام : « انك تُملي صحيفةَ أعمالك بواسطة الكرام الكاتبين لتُعرضَ على ربّ العالمين ، أما تستحي من الله ؟ » .

انك لو شئت ان تكتب رسالة إلى أحد السلاطين فكم تبذل من السعي والجهد ان تخرج هذه الرسالة بالشكل الذي تخلو من أي كلام وأقوال فارغة لا معنىٰ لها وكم تحاول ان يكون أسلوبها الإنشائي بأفضل ما يكون .

هذا فضلاً عما هو في عقيدة الموالين لأهل بيت العصمة والطهارة (ع) وطبقاً للروايات الكثيرة المتواترة عنهم في ان أعمالنا تُعرض كل خميس وليلة جمعة وكل سبت على صاحب العصر والزمان (أرواحنا لمقدمه الفداء) وحقّاً فان الأمر لمخجل ان تقع صحيفة أعمال أحدنا تحت نظره (عج) وهي ملأىٰ بالمعاصي والذنوب .

فيا أنتم الذين تدّعون التشيّع وموالاة أئمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام والسير على نهجهم وخطهم أليس من الخزي والعار ان يطلع أئمتكم (ع) على صحائف أعمالكم فلا يجدون فيها إلاّ ما تشمئزّ منه الأنفس وتُقبّحه ؟



الفصل الخامس

« المحترزون المتقون في رياض الجنات »

ثم ينتقل السياق الكريم لينقل لنا صوراً عن عالم التقوىٰ والمتقين وما ينتظرهم من النعيم الوفير في الأخرة فيقول تعالىٰ :

﴿إن المتّقينَ في جناتٍ ونهرٍ * في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾ .

بعد ان بيّن الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الشريفة لأحوال الكفار وخسرانهم المبين وشقائهم أنواع الإبتلاء والعذاب التي يلقونها في الدنيا قبل العذاب الأبدي في الآخرة حيث ان عذاب الأولى هو نموذج يسير لعذاب الآخرة يختم سبحانه قوله المبارك في سورة القمر الشريفة بهاتين الأيتين اللتين يفوح منهما مسك الجنة ، بذكر المتقين ودرجاتهم ومنازلهم الرفيعة مقابل الدرجات الوضيعة المنحطة للكفار في جهنم .

نعم فلأن هؤلاء من أهل التقوى والإيمان والطاعة والعمل الصالح فان أجرهم الجزيل وثوابهم الجميل عند الله موجود محفوظ لهم .

﴿ إن المتقين في جنّات ونهر ﴾ :

حقّاً فان المحترزين من الله الخائفين منه الورعين العاملين بحلاله المنتهين عن حرامه يستحقون التكريم الإلٰهي في روضات الجنات المحاطة المليئة بأشجار الفاكهة الكثيرة التي هي لا مقطوعة ولا ممنوعة وفي تلك الفرش

المرفوعة المحاذية للسواقي والأنهار الطويلة العريضة بما فيها من المياه العذبة والأشربة المنوعة من لبنٍ وعسلٍ وخمرٍ لذةٍ للشاربين كما جاء جانب من وصفها في سورة محمد (ص) إذ يقول تعالىٰ : ﴿مثلُ الجنّة التي وُعِدَ المتّقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّرْ طعمُهُ وأنهارٌ من خَمرٍ لذّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسلٍ مصفّىً ولهم فيها من كل الثّمرات ومغفرةٌ من ربّهم﴾ ، والشراب في الجنة أي خمرها ليس كهذا النجس الذي يتناوله العصاة والكافرون في الدنيا فيختلفُ تناولهُ آلاف المعاصي والقذارات والخبائث اضافة إلىٰ الشقاء والعواقب المشؤومة .

ان ذكر جنات بالصيغة التنوينيّة « جناتٍ » انما هو للتعظيم ، ونهر دائماً مفرده ، اما اسم الجنس فهي بمعنىٰ أنهار ، وذكرت بهذه الصورة حفاظاً على السجع وانسجاماً مع مقاطع الآيات السابقة .

﴿ في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر ﴾ :

المقعد هو المكان الذي يُجلسُ عليه وهنا يراد به المستقرّ الذي ينتهي إليه المتقون .

﴿مقعد صدق﴾ : المراد به أولاً هو المكان الطاهر الذي لا يصل إليه اللغو والعبث وفي غاية التكريم والإمتياز ، واما المراد الثاني فهو ان المتقين سيكونون عند ذي العرش والجلال ربّ العالمين .

﴿مليك﴾ : وهو الوصف المبالغ للمَلكِ ، أي سلطان السلاطين وملك الملوك ، ربّ العالمين ، فيكون مجمل المعنىٰ اللغوي لقوله تعالىٰ : ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ أي ان أهل التقوىٰ سيكونون جلساء وضيوف ربّ العالمين ، وسنوضح بإذن الله فيما يأتي ما المقصود بجليس الله سبحانه .

« من هم المتقون »

لكي نسلط الأضواء على هاتين الآيتين ينبغي ان نتعرض لثلاثة مواضيع :

الأول : أي الأشخاص الذين يمكن ان نُسمِّيهم بالمتقين ؟

والثاني : ما المقصود بمقعد الصدق وأين يكون؟ ؟

والثالث : ما المراد بـ ﴿**عند مليك مقتدر**﴾ أي ما معنىٰ القرب من الله سبحانه أو جليس الله ؟

والآن نبدأ في جواب الإستفهام الأول حيث نتحدث عن المتقين بشيء من الشرح والتفصيل :

لا ريب ان قبول الطاعة والأعمال الصالحة والخيرات منوط بالتّقوىٰ كما هو صريح القرآن المجيد ﴿**انما يتقبل الله من المتّقين**﴾[1] وكذلك الحال في تقرير دخول الجنة ، فقرار ذلك يتوقف أيضاً على التقوىٰ ومصداق ذلك في القرآن المجيد إذ يقول تعالىٰ : ﴿**مثل الجنة التي وعد المتقون**﴾[2] وليس هذا وحسب بل ان أموراً أخرى في دنيا الإيمان والطّاعة منوطة أيضاً بالتقوى كالعزة

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ٣٥ .

أن أمير المؤمنين (ع) سأل رسول الله (ص) : أي الأعمال أسمىٰ وأفضل في هذا الشهر ؟ فقال رسول الله (ص) : « الورع عن محارم الله أفضل الأعمال » .

التقوىٰ مَلَكة :

التقوىٰ ملكة في جوهر الإنسان وباطنه تنشأ في نفس الإنسان من خلال المواظبة والتمرين عليها وهي اجتناب المحرامات وأداء الواجبات فهي نظير ملكة الكتابة حيث ان الإنسان يجيدُها من خلال ممارستها بمرور الزمن ، ففي البداية وحين يشرع لأول مرة بالكتابة يكون خطه مبعثراً معوجاً بحروف وكلمات غير متناسقة لكنه بمرور الأيام يتحسن خطه من حيث جماله وسرعته فيصبح المرء مسلطاً ماسكاً بالقلم بكلّ سهولة ويكتب ما يشاء .

وتدريب النفس على التقوى وممارستها لها يكون نظير ان يمتنع المرء أولاً عن النظر إلى الأجنبيات إن كان شاباً وبتكرار هذه العملية بشكل متزايد فانه سيصبح ذلك عليه سهلاً يسيراً بحيث انه حتّى لو وقع نظره من بعيد على الأجنبية فانه سيغض النظر عنها بصورة ذاتية ولو اتفق ان أراد يوماً النظر إليها فان ذلك سيكون صعباً عليه .

ان الإنسان لا يبلغ الكمال ما دامت ملكة التقوى وقوتها لم تترسخ في ذاته لذا يجب عليه في جميع أموره من واجبات ومحرمات ان يسعىٰ إلى تربية هذه الملكة في نفسه وتقويتها كي يبلغ الكمال ويقال عنه متّقياً .

صفات المتّقين :

وردت في كتاب نهج البلاغة خطبةٌ وصف المتقين عرفت بالصاعقة (التي صعق لها همام عليه الرحمة) ، فقد طلب همام من أمير المؤمنين (ع) ان يصف له المتقين فقال لـه أمير المؤمنين : « اتّق الله وأحسن فان الله مع الذين اتّقوا والّذين هم محسنون » فلم يقنع همام ويكتفي بذلك بل أصرَّ علىٰ الإمام (ع)

وأقسم عليه إلّا أن يصف له المتقين ، فشرع الإمام له بالوصف كما عرض لنا في تفسير السور السابقة وبشكل مفصل ونحن هنا لسنا نذكر بعض مقاطعها بقصد التكرار انما فقط لأجل الآية الشريفة التي نحن بصددها والتي ذكر فيها المتقون حيث نشير إليها ببضعة تعقيبات .

فمما جاء فيها :

« فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل ، منطقهم الصواب وملبسهم الإقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضّوا أبصارَهم عمّا حرّم الله عليهم ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم ، نُزّلتْ أنفسُهم منهم في البلاءِ كالتي نُزّلت في الرّخاء » .

ومنطقهم الصواب : يعني أي انهم يصونون ألسنتهم من كل ما هو اعوجاج وآنحراف فهي محفوظة محترزة من التهمة والإفتراء على الآخرين والكذب والغيبة والنميمة ومما يحرج الناس ومن قول الفجور .

وفي ملبسهم الإقتصاد : أي انهم ليسوا بمسرفين ولا مبذرين .

ووقفوا أسماعهم على العلم النافع : أي انهم يأخذون بالسمع والإصغاء لما يزيدهم علماً ينفعهم في شؤون حياتهم ولا يُعيرون أذناً صاغيةً بل يجتنبون سماع اللغو والتافهة من الحديث مما قد يؤثمهم ويُخِلُّ في تقواهم .

ثم يقول (ع) في جانب آخر من الوصف الصاعق :

« ولولا الأجل الّذي كتب اللّهُ عليهم لم تستقر أرواحُهُم في أجسادهم طرفة عينٍ ، شوقاً إلىٰ الثواب وخوفاً من العقاب ، عَظُمَ الخالقُ في أنفسِهِم فَصَغُرَ مَا دونَه في أعينِهم ، فهُم والجنّة كمن قد رآهَا ، فهم فيها منعَّمون وهم والنّار كمن قد رَآها فهم فيها معذّبون ، قُلُوبهم محزونة وشرورهُمْ مأمونةٌ ، وأجسادُهم نحيفةٌ ، وحاجاتُهم خفيفةٌ ، وأنفسُهُم عفيفةٌ » .

أي ان نفوسهم عفيفةٌ فلا يهدرون ماء وجوههم للغير ولا يطمعون بما

والكرامة عند الله وشهادة ذلك قوله تعالىٰ : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1] والمحبة والرضوان الإلهي ﴿فان الله يحبّ المتقين﴾[2] وتكفي هذه الإحاطة والإشارة لإدراك أهمية التقوى .

التقوىٰ :

في اللغةِ هي من الوقاية اشتقاقُها ومراد المعنىٰ اللغوي الحفظ والإحتراز ووردت في مجمع البحرين بمعنىٰ الإهتمام الأكثر بالمحافظة على النفس والإحتراز مما يَضرّها أو يسبب لها الضرر والأذىٰ .

ولو نظرنا إلى مرادها من حيث يراها أهل البيت (ع) ومن خلال الروايات الواردة عنهم ، فهي كما تنقل الإشارة إليها من الإمام الصادق (ع) حين يقول : « التقوى ان لا يفقدك اللّهُ حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك » ، والشطر الأول من الحديث يراد منه « أي المواظبة على أداء واجباتك وفرائضك في أوقاتها ومحلها » واما الشطر الثاني فيُريد به (ع) « اجتناب المحرمات والمعاصي »[3] .

وهذه التي عرض لها الإمام الصادق (ع) هي المرتبة الأولى من التقوى ويمكن الصعود بها بأداء المستحبات واجتناب المكروهات حيث تزداد معها مراتب السعادة والأجر .

الغاية من كلامنا هو انّ الإمام الصادق (ع) بيّن أن أولى درجات التقوى هو الملازمة بين أداء الواجبات والفرائض من جهة وآجتناب المحرمات والمعاصي فلو أخذ بأحد هذين وترك الثاني فان التقوىٰ غيرُ حاصلةٍ في هذه الحالة فلو أن

(١) سورة الحجرات ، الآية : ١٣ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ٧٦ .

(٣) جرى البحث في موضوع التقوى وأهميته في مقدمة كتاب (الكبائر) للسيد الشهيد آية الله دستغيب (عليه الرحمة) وذلك في اطار الروايات والأخبار المفصلة فيمكن مراجعة ذلك لمزيد الاطلاع .

أحداً صلىٰ وصام وذكر الله وفي ذات الوقت آقترف المعصية كأنْ شرب الخمرة أو ارتكب عمل فاحش ترى ما الفائدة من عبادته تلك والعبادة والصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي ؟ .

الأفضل آجتناب الآثام والمعاصي :

ورد عن رسول الله (ص) حديث شريف «يفيد» « ان كل من شيّد ثم هدّم فلا بناء يكون عنده لكنه لو داوم على قليل يبنيه فانه سيحصل على البنيان في آخر المطاف » .

وربما لو أنه لم يعمل في الخيرات والصالحات ولم يرتكب في الوقت ذاته المحرمات فان ذلك أفضل ممنّ يعيش على أرضٍ مستوية أفضل مما يعيش في بناءٍ خربٍ منهارٍ .

كذلك جاء في الروايات ما مضمونه ان العمل باليسير من التقوى والإحتراز من الذنوب هو بمنزلة الملح في الطعام ، فكم يكون الملح قليلاً في كميته المضافة فلا بُدّ ان تضفي هذه الكمية طعماً لذيذاً للطعام مقارنة بالطعام الخالي من الملح .

فلو أن المرء اجتنب كل ذنب ومعصية ولم يرتكبها وأدىٰ ما عليه من الفرائض والواجبات مكتفياً بها فقط فانه أفضل بكثير من هذا الذي يقوم الليل حتى الصباح لكنه لا يتورع عن ارتكاب بعض المعاصي .

وضع حجر الأساس أولاً :

مما سبق من العرض صار لدينا معلوماً ان آجتناب المحرمات هو الأوْلىٰ والأهم ، فيستلزم أولاً تهيئة الأرضية لقبول العبادة أو بعبارة أخرىٰ إقامة الأساس أولاً ثم الشروع بالبناء عليه .

في الخطبة التي رويت عن رسول الله (ص) بشأن حلول شهر رمضان ،

عندهم ولا يسيئون ولا يُسبّبون الأذى لأحد ، حاجاتهم في الدنيا يسيرة وقليلة « لا يستعظمون الكثير من أعمالهم ولا يستصغرون القليل الصغير منها » .

« صبروا أياماً قصيرةً أعقبتهم راحةً طويلةً ، تجارةٌ مربحةٌ يسّرها لهم ربُّهم . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرَتْهم ففدوا أنفسَهم منها » ثم يصف (ع) حالهم التعبّدي وعلاقتهم بالله فيقول : « أما الليل فصَافّون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يُرّتلونها ترتيلاً ، يُحزّنون به أنفسهم ويستثيرون ، به دواءَ دائِهم ، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلّعت نفوسُهم إليها شوقاً وظنّوا انها نصب أعينهم . وإذا مرّوا بآيةٍ فيها تخويف أصْغُوا إليها مسامِعَ قلوبهم ، وظنّوا أن زفيرَ جهنّمَ وشهيقها في أُصول آذانهم ، فهم حانون علىٰ أوساطهم مفترشون لجباهِهِم ورُكَبِهِم وأطراف أقدامِهم يطلبون إلىٰ الله تعالىٰ في فكاك رِقابهم .

واما النّهار فحلماءُ علماءُ ، أبرارٌ أتقياء . قد براهم الخوفُ بريَ القِداح ينظر إليهم الناظرُ فيحسبهُم مرضىٰ ، وما بالقوم من مرض ، ويقول لقد خولطوا ، ولقد خالَطَهم أمرٌ عظيمٌ ، لا يرضون من أعمالهم القليلَ ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمّون ، ومن أعمالهم مشفقون ، إذا زكّي أحَدٌ منهم خاف مما يُقالُ له فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري وربّي أعلمُ بي منّي بنفسي ، اللّهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضَلَ مما يظنّونَ واغفرْ لي ما لا يعلمون » .

آثار التقوىٰ ومستلزماتها :

كما بيّنا سابقاً وأشرنا إليه فان للتقوىٰ درجات ، وكلما ازداد الإنسان المؤمن وترسخت عنده التقوى بصورة أكثر كلما ازدادت درجته وارتفعت قيمته عند الله سبحانه ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ وقد يبلغ الإنسان في تقواه ما يوصله إلى مقعد الصدق ، فتقوىٰ الإنسان هي بمثابة الصدق كلما ازدادت وتعمقت جذورها في نفسه كلما ازداد صدقاً وقرب من مقام ومنزلة الصديقين

الذي هو بجوار الحضرة المقدسة للجليل الأجل .

ومن مجموع آثار التقوىٰ ومستلزماتها هي النجاة من الملمّات والصعاب والنوازل التي يمتحن بها الإنسان وكذلك نزول الرزق الحلال الذي ورد ذكره في سورة الطلاق حيث يقول تعالى : **﴿ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبُه إن اللّهَ بالغ أمره﴾**[1] .

يقول ابن فهد الحُلّي (عليه الرحمة) في عدة الداعي :

ان هذه الآية الشريفة لها دلالات عديدة منها :

١ ـ إن التقوى قلعة حصينة وكهف محكم طبقاً لقول الله سبحانه : **﴿ويجعل له مخرجاً﴾** ومثل ذلك قول النبي (ص) ما مفاده « لو أن السمٰوات والأرضين أغلقت على العبد ثم اتقىٰ هذا العبد فان الله تعالىٰ سيجعل له مخرجاً وفرجاً من السماء والأرض » .

٢ ـ التقوى كنزٌ لا يفنىٰ وذلك طبقاً لقوله تعالىٰ : **﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** .

٣ ـ ان الآية دليلٌ على فضيلة التوكل وفيها يكون الله سبحانه كفيلاً بالتوكل عليه **﴿فهو حسبه﴾** وهل هناك شك فيما يصدر عن الله « حاشى له سبحانه » **﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾**[2] ومن هنا يقول رسول الله (ص) ما معناه : لو أنّ الناس أخذوا بهذه الآية فانها كافيتُهم .

٤ ـ انها (أي الآية السابقة) تُبيّن للعباد بان الله سبحانه قادرٌ على ما يريد ولا يُعجزه شيءٌ ولا تمتنع غايةٌ قصدها سبحانه وشاءَها ذلك لانه سبحانه بالغ أمره **﴿إن الله بالغ أمره﴾** .

---

(١) سورة الطلاق ، الآية : ٢ ـ ٣ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٢٢ .

كل ذلك كي نجهد أنفسنا ونعمل بالتقوى لانه سبحانه وعد المتقين بان يكفيهم ويغفر لهم ويحفظهم ويرعاهم لتوكّلهم عليه .

وفي حديث قدسي عن الإمام محمد الباقر (ع) مفاده انه قال : قال رسول الله (ص) : يقول الله تعالى : « بعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلوي وراتفاع مقامي ما اختار عبدٌ ما تمنّاه على ما تمنّيته له إلاّ وقد بعثرتُ أمره وجعلت قلبه منهمكاً في الدنيا وقطعتُ عنه رزقه إلاّ ما قدرته له . فبعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني ما اختار عبدٌ هواي علىٰ هوىٰ نفسه إلاّ وحفظته بملائكتي وضمنت له رزقه من السمٰوات والأرضين وأتاجر له في كل تجارة (والمراد من ذلك ان الفائدة التي يستحصلها مني تفوق ربح التّجار) ، وأُعطيه الدنيا وأُذلّها له » .

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري (رض) مفادها أنه سمع رسول الله (ص) عندما رجع من أحدٍ وكان الناس قد أحاطوه به وقد آستند إلى شجرةٍ وهو يقول : أيها الناس أنظروا وآعملوا بما كُلّفتم به من اصلاح أمر آخرتكم ودعوا ذلك الذي قد قُدّر لكم في دنياكم ولا تستخدموا أعضاءكم وجوارحكم التي نمت وقويت بنعمة الله في اقتراف الذنوب التي تكون محلّ سخطه وغضبه وآطلبوا رحمته وانفقوا نِعَمَه في طاعته ، وكل من بدأ بنصيبه من الدنيا أي ذلك الذي طلبه من الله فهو نصيبه في الأخرة ولن يكون له شيء في الدنيا وكل من بدأ بنصيبه من الآخرة ، فانه يصله نصيبهُ من الدنيا وله في الآخرة ما أراد[1] .

ويستفاد من رواية لعبدالله بن سنان عن الإمام الصادق (ع) : ان كل مؤمن يبتغي ذلك الذي يحبه الله ويُولّي إليه وجهه فان الله تعالى يلتفت إليه عوضاً لما

---

(١) ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ سورة الشورى ، الآية : ٢٠ .

أحبّه ، وكل من اعتصم بالله بتقواه فقد حفظه الله وكل من توجّه إلى الله يستقبله الله ويحرسه ولو أطبقت السماء على الأرض فلا يُصيبه ضررٌ ولو نزل بأهل الأرض بلاءٌ عظيمٌ كان ملجأه عند الله لانه اتّقى كلّ بلاء أو ما قال الله تعالىٰ :
﴿إن المتقين في مقامٍ أمين﴾ .

النجاة من المهالك ببركة التقوىٰ :

يروىٰ عن محمد بن يعقوب بسندٍ صحيح عن إسحٰق بن عمّار عن الإمام أبي عبدالله الصادق (ع) ما يستفاد ان أحد ملوك بني إسرائيل كان له قاض ولهذا القاضي أخٌ كان رجلاً صادق وزوجة وُلِدَ من نسلها الأنبياء .

فأراد الملك ان يرسل رجلاً عنه لانجاز عمل في مكان ما فقال لقاضيه أطلب لي شخصاً يمكنني الإطمئنان له والإعتماد عليه فقال القاضي لا أرىٰ أحداً موضع ثقة وآطمئنان أكثر من أخي فبعث في طلبه كي يُرسله فلما حضر اعتذر وكَره الذهاب وقال : إنّي لأكرهُ الذهاب وأدْعُ آمرأتي وأذهب فعظَّم القاضي المسألة وقال له : لا حيلة لك سوىٰ الذهاب والإمتثال للأمر ، فقال الأخ : لا شيء أخلفه ورائي سوىٰ زوجتي فأنت تنوب عني وتقوم مقامي في أمور العائلة وقضاء احتياجاتها فقبل القاضي ورحل أخوه وكانت زوجته هي الأخرى قد كرهت رحيله ، فجاء القاضي إلىٰ بيت أخيه وراح يسأل زوجة أخيه عما تحتاجه من الأشياء وينقصها من الحوائج البيتية كي يُوفُرها لها ، ولكنه حالما وقع نظرُه علىٰ زوجة أخيه تحرك فيه شيطان الخيانة وآنبهر بجمالها وفُتِنَ به فدعاها إليه كي يقضي منها حاجته فأبت وقالت له : قطعت لأخيك عهداً بان تكون له عيناً عليَّ ، فأقسم وقال : إن لم تمتثلي لأمري وتُلبّي حاجتي فسأخبر الملك بانك قد زنيتِ ، فقالت له : آذهب وافعل ما شئت ، فما أنا بمجيبةٍ لك وملبيةٍ رغبتك الشيطانية ، وأصر عليها القاضي لكنها ظلت رافضةً غير آبهةٍ بما هدّدها . فما كان من هذا الخائن اللئيم إلاّ أن ذهب إلى سيده الملك وآفترىٰ

على هذه المرأة العفيفة ، فأمر الملك باقامة الحدّ عليها وتطهيرها مما نسب وآفتري عليها .

فجاءها القاضي الفاجر ثانية وأعاد عليها ما طلب منها وقال : إنني خُوّلت برجمكِ فماذا تقولين ؟ فقالت له : لا أُجيبك أبداً وآفعل ما شئت فخرج من بيتها وأمر بإخراجها وجيء بها إلى حفرة فأُلقيت فيها ثم دعا الناس لرجمها فأخذوا يرجمونها حتى سقطت على الأرض وأُغمي عليها فظنّوا أنّها ماتت وتركوها ، فلما جنّ عليها الليل وكان لا يزال فيها رمق من الحياة تشبثت بأطراف الحفرة وخرجت منها وغادرت المدينة فجاءت إلى دير يسكنه راهب ونامت عند باب الدير حتّى الصباح ، وعندما طلع الصبح فتح الراهب باب الدير ورأىٰ المرأة العفيفة نائمةً عنده فأيقظها وأدخلها الدير ، فحكت له قصتها وبما جرىٰ عليها من افتراء وأذىٰ فتألم الراهب لها وكانت حالته جيدة ولم يكن له سوى طفل صغير ، فبدأ يعالجها ويُداوي جراحاتها حتى تحسنت حالُها ثم عهد إليها طفله كي تربّيه .

وكان لصاحب الدير « الراهب » من يقوم مقامه في مهماته وأعماله لدى غيابه فصادف ان وقعت عيناه على هذه المرأة وصار في قلبه هوىً شيطاني نحوها فدعاها إليه فأبت إجابته وراح يراودها عن نفسها ويُصّر عليها فامتنعت صابرةً ولم تقبل عرضهُ ، فبدأ يهددها ويقول لها : إن لم تمتثلي لرغبتي فسوف أقتلك فلم تأبه بتهديده وقالت له : افعل ما أنت فاعل ، ثم دنا إلى الطفل وكسر عُنقَه وقتله ثم حمله إلى الراهب وقال له : ان هذه الفاجرة راودتني عن نفسي فأبيت ان أُجيبها وناولتها الطفل فهددتني بقتله ثم عمدت إلى قتله ، فجاء الراهب إلىٰ المرأة العفيفة وقال لها : أهذا هو جزاء ما أحملتُ لك ، تقتلين طفلي ؟ فحكت المرأة حكاية ما جرى كي تدفع عنها التهمة وتظهر براءتها ، فقال لها الراهب : علىٰ أية حال ، لم تعُد لي رغبة ببقائك هنا ، فأعطاها عشرين درهماً وقال لها : أُخرجي من هنا وهذه الدراهم اشتري بها ما يَسُدُّ

رمَقَك فخرجت في ليل ذلك اليوم من الدير وسارت ليلها حتى بلغت في الصباح قريةً وشاهدت شخصاً مصلوباً لكنه كان ما يزال حيّاً فسألت عن قصته فقالوا لها انه مدين بعشرين درهماً ولدينا قانون يقضي بـان يُصلَبُ المدين ويبقىٰ كـذلك حتّى يفي بَدَيْنه فأخرجت هذه المرأة الطاهرة العفيفة ما لديها من الدّراهم التي أعطاها إياها راهب الدير وأعطتها لدَائنهِ وقـالت : انزلـوه من هذه الخشبـة ولا تقتلوه .

فلما أُنزل من الخشبة قال الرجل المصلوب لهذه المرأة : إعلمي ان أحداً لم يتفضل عليَّ بما تفضلت به حيث انقذتِني من الصَّلْبِ والمـوت وجزاءً لـك سـأكون إلى جـانبك أينمـا ذهبت ، فذهب الإثنـان إلى ساحـل البحر فشـاهدا مجموعة من الناس مع بضع سفنٍ فقال هذا الرجل للمرأة : إجلسي ها هنا كي أذهب وأعمل وآتيك بطعام وفير ، فجاء إلىٰ هذا الجمع وسألهم ماذاعندكم في السفن ؟ فقالوا له : انها بضاعتنا من الجواهر والعبر وسلع وبضائع مما نتاجر به وهذه السفن عائدةٌ لنا نسكن فيها .

فقال لهم الرجل : ما ثمن هذا الذي في سفنكم، فقالوا له إنّه كثير وغالٍ ولا طاقة لنا على إحصائه .

فقـال لهم إن معي شيئـاً ثمينـاً ونفيسـاً ، وهـو أفضـل وأغـلى من كـل مـا في سفنكم ، فقالوا له ما هو؟ فقال : إنّها جارية لم تروْا مثلها أبداً فقالـوا له : أمـا تبْعِهَا لنـا؟ فقـال لهم : ولِمَ لا ولكن بشرط هـو ان يذهب بعضكم ويـراهَا ثم يـرجع إليَّ ويشتريها مني وإذا وصلتم إليها وشاهدتموها فلا تخبروها بـالأمر ثم تـدفعوا لي ثمنها وان أخذتموها لا تخبروها حتّى أُرحل عنكم فقبلوا بكل شـروطه وأرسلوا بعضهم ليراها ، فلما رأوها اندهشوا لجمالها وقـالوا : حقّـاً فاننـا لم نرَ جـاريةً مثلها ، سنشتريها بعشرة آلاف درهم فجاؤوا إليه وأعطوه الثمن ، فأخذه وركب إحدىٰ قواربهم ، فلما آبتعد عنهم جاؤوا إلى المرأة العفيفة الحسناء وقالوا لها : هيّا انهضي وتعالي معنا واركبي السفينة ، فقالت لهم : لماذا ؟ فقالوا لها : لقد

آشتريناك من سيّدك فتعجبت وقالت لهم : انه ليس بسيدي وما أنا بجارية له ، فقالوا لها وما شأننا نحن ، آنهضي وإلاّ حملناك ، فاستسلمت لهم ونهضت وذهبت معهم ولما بلغت معهم موضع السفن لم يثق هؤلاء بان يدع المرأة في سفينة صاحبه فاتفقوا بايداعها سفينة بضاعتهم الحاوية على المجوهرات والنفائس من البضاعة واستقروا هم في سفينة أخرى ثم أبحروا فلما كانوا في وسط البحر بعث الله بالعواصف فأغرق سفينتهم وأنقذ سفينة هذه المرأة العفيفة حيث رست بالقرب من إحدىٰ الجزر فأرست سفينتها على ضفاف الجزيرة فوجدت فيها المياه العذبة وأشجار الفاكهة اللطيفة فقالت : سأمكث هنا أشرب من هذا الماء وأكل من هذه الفاكهة وأعبدُ الله ربّي .

ونظراً لما بدىٰ من هذه المرأة من الصبر والتقوىٰ فان الله سبحانه أوحىٰ لنبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن يذهب إلى ذلك الملك ويقول له ان في الجزيرة الفلانية مخلوقاً من مخلوقاتي بإمكانك أنت ومن معك من أهل البلاد ان تذهبوا عند هذا المخلوق في تلك الجزيرة وان تُقِرّوا له بذنوبكم وخطاياكم وآطلبوا منه العفو والمغفرة فان أصفح وعفا عنكم شملتكم رحمتي ومغفرتي وإلاّ فلا .

وفعلاً فقد عزم الملك وأهل البلاد وأبحروا إلى تلك الجزيرة فلما وصلوها وجدوا فيها المرأة الصالحة لكنهم لم يعرفوها ، فجاءها الملك أولاً وبدأ يُقرُّ لها ويعترف بأن قاضيه جاءه وأخبره بان زوجة أخيه قد زنت وقد أصدرت الحكم عليها بإقامة الحدّ فرُجمت في الوقت الذي لم أكنْ قد تفحّصت الأمر جيداً ولم أحقق فيه كي أطلع على صحة ذلك وانني لأخشىٰ ان قمت بعملٍ حرامٍ قد ظَلمتُ فيه نفساً بريئةً فها أنا أسألك العفو والصفح فقالت المرأة الصالحة : اللَّهُ هو الغفور الرحيم وأشارت إليه أن آجلس ها هنا ، ثم جاء زوجها وهو لم يزل يجهلها وشرح لها الأمر وقال كانت لي زوجةٌ في تمام الفضل والعفّة والصلاح وقد تركتها ورحلت في أمر أقضيه وقد كرهت مني الخروج وتركها لوحدها وعندما عدت من سفري أخبرني أخي انها زنت وأُقيم الحد عليها بالرّجم وانني

لأخشى انها قد فقدت وتاهت في الأرض لذا فاطلب منك الصفح بالغفران عسى ان يرحمني ربّي فتقاطرت الدموع من عينيها وقالت : اللّهُ هو العفوُّ الغفور وهو أرحم الراحمين ، اجلس يا هذا فأخذ مكانه إلى جنب الملك وجلس .

ثم جاء دور القاضي الذي ظلمها أوّل مرة ووقف أمامها مطأطأ رأسه وقال : كان لأخي زوجةٌ وقد دعوتها إلى نفسي فأبت فآفتريت عليها واتهمتها بالزنا وأخبرت الملك بشأنها كي أنتقم منها فحُكم عليها بالرّجم ورجمناها ظُلماً وعدواناً فهي بريئة مما ألصقته بها ولا أدري اتصفحي وتغفري لي يا أمة الله كي يغفر لي ربّك ويرحمني ثم التفتت المرأة إلى زوجها وقالت : اسمع يا هذا .

ثم جاء راهب الدير الذي أكرمها في البداية وحكىٰ لها قصته معها وتقصيره إيّاها وقال : فقد ظلمتها حين أخرجتها من الدير في الليل وأخشى أنْ تكون قد آفترستها وحوش البراري فقالت له : الله هو الغفور الرحيم اجلس إليهم ، ثم جاء وكيل الراهب وآعترف بذنبه فالتفتت المرأة الصالحة إلى الراهب وقالت له : أسمعت أيها الراهب ؟ ثم قالت للوكيل : الله هو العفوُّ الغفور ، ثم قام ذلك الرجل الذي أنقذته بدراهمها المعدودات من خشبة الصّلب والموت المنتظر وحكىٰ لها قصة خيانته ولؤمه معها فرفعت المرأة رأسها إلى السماء وقالت : هو الغفور وهو الرحمن الرحيم ثم آلتفتت المرأة الصالحة إلىٰ زوجها النادم وقالت : أعرفتني يا هذا ؟ فقال لها : كلا يا سيدتي فقالت : أنا زوجتك وكل ما سمعته الآن كان عنّي وانني الآن لا أحتاج إلىٰ رجل يرعاني ، لذا أطلب منكم ان تأخذوا هذه السفينة وما فيها وتدعوني لوحدي في هذه الجزيرة أعبد الله ربّي ، وقالت لزوجها قد شاهدت بأم عينيك ما لحق بي من الأذى بسبب الرجال ، فاقتنع زوجها وقبلَ بما عرضت عليه وأخذ السفينة وعاد هو والملك وأهل البلاد إلى موطنهم .

إذن ينبغي هنا ان ينظر القارىء العزيز ويتأمل كيف ان هذه المرأة أنقذها الله بتقواها من ثلاثة مواقف صعبة جداً ، من الموت بالرّجم وتهمة وكيل الراهب

وعبودية التجار ثم انظر إلىٰ الكرامة والعزة التي وهبها الله إيّاها فجعل سبحانه رضاه ومغفرته من رضاها ومغفرتها ، وكيف أن الله سبحانه أعانها في تلك الصعاب والمكر الذي مكروه بها وكيف ذلّلها لها وأذّل هؤلاء الذين آذوها وجعلهم يعترفون لها بخطاياهم وكيف أعطاها الله من المنزلة والرفعة وعلو المقام ما أوحىٰ به لنبيّه في ان يأمر الملك وحاشيته وقضاته وكل أهل البلاد بان يذهبوا إليها ويتضرعوا إلى الله بواسطتها يطلبون عفوها عنهم كي يعفوَ الله عنهم[1] .

إتّقِ الحرام وأنتفع بالحلال :

في رواية عن زرعة بن محمد مفادها : ان رجلاً في المدينة كانت له جارية غاية في الفتنة والجمال فوقع حبُّها في قلب رجل فصارت له فيها رغبة فشكا قصته إلى الإمام الصادق (ع) فقال له الإمام : كلما وقعت عينك عليها فقل أسأل اللّهَ من فضله ، فلم يمُر وقتٌ طويلٌ حتى عزم صاحب الجارية على السفر فجاء إلىٰ هذا الرجل الوله بها وكان من جيرانه ، فقال له : يا فلان انني جارك ولي ثقة بك أكثر من أي أحدٍ ، وها ان موعد سفري قد حان ، لذا فأُريد أن أودِعك الجارية الفلانية كأمانةٍ فقال الرجل : انني غير متزوج وليست عندي آمرأة في البيت فكيف تترك الجارية عندي .

فقال له : أبيعها لك بثمن تراه مناسباً وأُبقيها عندك فإذا ما رجعت من سفري تبيعها لي وأشتريها منك وإذا قبلت بك زوجاً فلك ذلك .

فجرىٰ الإتفاق بهذا الشكل وكانت المعاملة بثمنٍ كبيرٍ وسافر صاحب الجارية وتركها عند هذا الرجل فقضىٰ منها حاجته بما شاء الله ثم جاء رسول عن بعض خلفاء بني أُميّة ليشتري منه هذه الجارية وذكرها بالإسم وقال ان الحاكم قد أرسله بشأنها وقال : إن جارية فلان عندك ؟ فآعتذر إليه في بادىء الأمر وقال له : إنّ فلاناً غائبٌ الآن وهو في سفر ، لكن هذا الحاكم الأموي آشتراها منه

---

(1) عدة الداعي .

قسراً وزاد على ثمنها كثيراً وأعطاه إياه كربح على ثمنها .

وبعد ان أخذوا منه الجارية وذهبوا بها خارج المـدينة عـاد صاحبهـا من سفره بعد فترة وأول ما بدأ به بالسؤال كان عن جاريته مـا أحوالهـا ؟ فحكىٰ له قصتها وكيف باعها قسراً وأخرج كل النقود التي باعها بها وأعطاه إياه كثمن لها مع الزيادة ، فقال لصاحبها : خذ هذا هو ثمنها كمـا بعتها فلم يقبـل صاحبهـا الزيادة علىٰ ثمنها وأخذ من النقود بمقدار الثمن الذي اتفقا عليه في البداية وقال له : فاما الزيادة فلك هنيئاً .

وهكذا كان جميل الله إليه لحسن نيته وآتّقائه الحرام[1] .

---

(١) عدة الداعي .

« مقعد الصدق »

هذه هي العبارة الثانية التي كنا قد أشرنا لها ونظراً لأهميتها الأكثر نتطرق إليها شرحاً وتفصيلاً :

﴿ في مقعد صدق ﴾ :

المقعد اسم مكانٍ ويراد به هنا المحل والمستقر حيث الجلوس ، وصدق يقال لكلّ شيء طاهر ونقي وجميل ، وعند اضافة المقعد للصدق أي ﴿مقعد صدق﴾ فان للمعنىٰ والتفسير وجوهاً عديدة منها اضافة الموصوف للصفة فيكون المعنى مجلس حق والمكان المصطفىٰ والمقرّ السليم الذي ليس فيه لغوٌ ولا تأثيمٌ والذي يخلو من أي شكل من أشكال العبث وما هو غير مناسب ولا بجدير ، وخلاصة القول ان المتّقين في الآخرة سيكونون في محل ومقام هو بحقٍّ وصدقٍ المكانُ الحيوي والمستقر الحقيقي فلا أثر فيه لكلّ ما يخلُّ بالطمأنينة ويعكّر الصفو ، دائم في قراره لا زوال له وذلك علىٰ خلاف ما في عالم الدنيا التي هي ليست في حقيقتها المكان الذي يُركَنُ ويُخلدُ إليه وما هي بالمستقر الذي يُطمئنُ له ذلك لأنها أي الدنيا محفوفة بالمكاره والأخطار والآفات والبلايا والملمّات وبكل ما يسلب راحة الإنسان ويقلقه ويخيفه ويُرعبه هذا أولاً وثانياً لانها ليست مكان الخلود والبقاء فهي لا محالة زائلة فانية أو ان الإنسان راحل عنها في عدد من السنين ، فيجب علىٰ المتقين ان ينتقلوا ويرحلوا

عن هذا المكان الزائل إلى موطنهم الحقيقي الذي ينتظرهم والذي فيه يُكرّمون ويُثابون والإنسان الذي لا يسمح له الدخول إلى ذلك المكان ويطرد منه فانه غير لائق بالحياة والسعادة والراحة الأبدية .

الإضافة السببية :

اما الوجه الثاني للإضافة السببية فان المراد منها أنّ الله تعالى جعل مقعد ومحل المتقين إلىٰ جوار جادله الكريم لما كانوا عليه من الصدق والإخلاص في تقواهم وهذا مصداق قوله تعالىٰ في القرآن المجيد : ﴿هذا يومٌ ينفعُ الصادقين صدقُهُم﴾[1] .

وجاء في تفسير منهج الصادقين عن الإمام الصادق (ع) في رواية يستفاد منها انه قال : « لانه الحق تعالى اسْمه نعت هذا المكان بالصدق لذا فانـه لن يقبل بغير الصادقين فيه » .

وخلاصة الكلام فان الصّدق هو الطريقة الوحيدة والسبيل الأمثل للوصول إلى المقام الأعلى في جوار وقرب الحضرة المقدسة للبارىء تعالىٰ اسمه .

أحبّاءُ ٱلله :

في خاتمة كتـاب (دار السلام) ينقـل السيد العـراقي وهو أحـد صلحاء مدينة النجف الأشـرف ويقول : انني يـوم كنت في خدمـة ومداراة إخـوتي من المؤمنين وأشتغـل في تجهيز أمـوات الفقراء والغـرباء من جيـران وزوار جـدي أمير المؤمنين (ع) ، صادف في إحدى الليالي وبينما أنا نائمٌ في بيتي شاهدت في الـرؤيا مَنْ يقـول لي : « إن عبداً من أحبـاء الله تـوفي في مشعـل الحمّـام الفلاني فٱنهض وٱذهب لإخراجه ، فنهضتُ فرأيت الليل وقد ٱنتصف ولا أمان

(١) سورة المائدة ، الآية : ١١٩ .

في الخروج إلى خارج البيت فربما قد يحصل لي حادثة في ذلك الليل الموحش فضلاً عن ان الحُلُم لا يؤخذ به لذا عدت واستلقيت على فراشي ونمت ولا يكاد النوم يغلب عليَّ حتّى رأيت ذلك الشخص من جديد يكرر عليّ ذات الطلب فنهضت ثانية وفكرت في نفسي بذات التبريرات والأعذار السابقة ثم أسلمت للنوم ثانية فما كدت أنام حتى رأيت ذات الشخص فنهضت هذه المرة وقلت في نفسي يبدو انه لا مجال للمسامحة والإعتذار ، فذهبت وأيقظت ولدي وأنرت الفانوس ثم ذهبت صوب ذلك الحمّام فدخلت غرفة المشعل وتفحصت المكان فلم أجد أثراً لميّت ، وبعد ان فتشت كثيراً فوق الرماد الذي يخرج من حجرة المشعل ويرمىٰ هناك لاحَ لناظري شيءٌ فلما اقتربت منه شاهدت رأس إنسان وكان عارياً لكنه دفن نفسه في الرماد لشدة البرد وجعل رأسه خارج الرّماد لكي يتنفس وبهذا الشكل كان قد فارق الحياة ، فهممت أنا وولدي وأخرجناه من رماد الذّلة وقد رقّ قلبنا لحاله ، ثم خاطبت هذا الميّت وقلت له : يا عبدالله بحق الله عليك الذي أحبّك وقرّبك إليه حتى أبىٰ ان تبقىٰ في وضعك هذا حتى الصباح ، قل لي أيَّ عمل قمت به حتّى بلغت هذه المنزلة والمقام الرفيع ، بعدها سمعنا هاتفاً يهتف بنا وقائلاً لم نره يقول : « انه من الصدق » ، « نعم فالنجاة في الصدق » بعد ذلك حملنا الجثة وغسّلناها وكفنّاها ثم واريناها التراب .

الصدق ومقامات الصدق :

بعد العودة إلىٰ آيات القرآن المجيد والروايات الواردة بشأن الصدق نفهم ونعرف ان بوسع كل إنسانٍ ان ينجوَ وينال أي مقام ودرجة من المقامات والدرجات الروحية والمعنوية بالصدق ووسيلته وربما ان تباين واختلاف الدرجات والمقامات الرفيعة يعود إلى تباين واختلاف مراتب الصدق في النفس المؤمنة أي ان كل إنسان يتصف بالصّدق الأعمق والأكثر تجذراً في الذات كلما نال المنزلة والدرجة الأرفع عند الله حتّى يُمكنَهُ بلوغ درجة الصدق المطلق أي

كمال الصدق فيُسمىٰ حينئذٍ بالصّديق وهي مرتبة الأنبياء والأئمة الاطهار عليهم أفضل الصلاة والسلام .

كذلك ورد في المجلد السابع من كتاب بحار الأنوار في باب تحت عنوان « الصدق والصادق والصديق والصادقين في آل محمد (ص) » .

وطبقاً لهذا وما عرفناه بشأن أهمية الصدق فمن المناسب ان نذكر مراتب الصدق بشكل مختصر حتّى يكون بإمكان كل واحد منّا ان يبلغ درجة وحداً معيناً من الصدق وبسعيه الحثيث ومواظبته على العمل الصالح يمكنه بلوغ المراتب العليا فكلما سعىٰ وجهد بصورة أكثر كلما نال الدرجات الأعلىٰ .

« مراتب الصدق واقسامه »

إن للصدق مراتب عديدة ولو أن أحداً نالها جميعاً فإنه بلغ مرتبة الصّديقين وسُمّي صدّيقاً وفي حديث للإمام الصادق (ع) يقول فيه : « إن الرجل ليصدقَ حتّى يكتبَه الله صدّيقاً» والله سبحانه وتعالى جعل الصديقين في منزلة النبيين والشهداء والصالحين فهو تعالى آسمهُ يقول : ﴿فأولئك مع الذين أنعمَ الله عليهم من النبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾[1] وكذلك وُصف الأنبياء والرسل العظام من أمثال إبراهيم (ع) وإدريس (ع) ويوسف (ع) بالصديقين ﴿انه كان صديقاً نبياً﴾[2] ، ﴿يوسف أيّها الصدّيق﴾[3] ولعل أنّ أجرَ كلّ إنسان يوم القيامة يتوقف على مدىً وحجم صدقه .

الصدق في الحديث :

يصنف العلماءُ الصدق إلى ستة أصناف : الصنف الأول : هو الصدق في الحديث وهو بنوعين هما : أولاً : الصدق مع الخلق (الناس) والثاني : الصدق مع الخالق .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٦٩ .

(٢) سورة مريم ، الآية : ٤١ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ٤٦ .

والصدق مع الخلق هو صحة الكلام والحديث الذي تتداول به مع الناس ولا يصدر من هذا الصادق في حديثه كذب ولو تورية إلاّ عند الضرورة أحياناً والتورية معناها ان يقول الكذب لكن في نفسه القصد الصحيح كأن تسأل أحداً هل عندك من المال شيء ؟ فيقول : ليس في يدي شيء منه ، وفي الحقيقة ان يده فارغة لكن المال ربما يكون في جيبه ، فهو صادقٌ فيما يقصدُه في نفسه اما المقابل فلا يحمل جوابه بنفس محْمِلهِ ، فهو قد كَذِبَ في الحقيقة لأن السائل لا يقصد يده انما عموم توفّر المال لديه وكذلك بالنسبة لموضوع غير مستيقن منه فانه اما لا يقولُ به أو يقوله بالتوقع والتخمين والإحتمال أي يقول : أتوقّع ، أو ، أُخمّن وأحتمل وهكذا فهو لا يقول بشيء بصورة اطلاقية وليس له علمٌ به وكذلك حين يكتب وينشر فلا يفعل ذلك إلاّ ان يتيقّن من الأمر .

وعن الإمام الصادق (ع) انه قال : « إن الله لم يبعث نبيّاً إلاّ بصدق الحديث وأداء الأمانة إلىٰ البرّ والفاجر » .

وعنه (ع) أيضاً يقول : « لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده ، فان ذلك قد آعتاده فلو تركه استوحش لذلك، ولكن آنظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته »[٢] .

أي ان الإمام يوصي ان لا نغتر بطول وقوف العابد في العبادة ويمكن ان نتصور انه صاحبُ دين بحق فلربما قد اعتاد طول العبادة واستهواها لكن الأولى ان يُمتحنَ ويُمحّصَ بصدقه وأمانته ، فالصدق والأمانة هما دليلا العبادة الحقّة لله والإيمان به .

وهناك في الحديث النبوي الشريف ما يدل علىٰ ان ترك الصدق في الحديث دليل وعلامة من علامات النفاق فقد ورد عنه (ص) قوله : « ثلاثٌ من كُنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم ، من إذا حدّث كَذَب وإذا

---

(١) أصول الكافي .

(٢) أصول الكافي .

وعَدَ أخْلَفَ وإذا أؤتُمن خان »[1] .

الصدق في مناجاة الخالق سبحانه[2] :

اما في العبادات ومناجاة الله فليس لنا إلّا ان تكون صادقين مع الله سبحانه ونجهد أنفسنا على خلوص النية والصدق معه سبحانه ما دام يعلم ما في ذات الصدور من مكنونات فلا فائدة ولا جدوىٰ من الكذب فلو كان الكذب ينطلي على أعلم الناس فانه لا ينطلي على الله سبحانه .

فانك لو قلت : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فيجب أن تكون واقعياً وصادقاً في فرارك وعدم إتباعك الشيطان وآتجاهك نحو خالقك سبحانه أو مثلاً حين تقول : « اللّهُ أكبر » فيجب ان تضع في علمك وحسّك ووجدانك صدق ما تقول وهو ان الله أكبر وأعظم من كل شيء ومن كل عظيم وكبير فهو أكبر من مال الدنيا وثرواتها وشهواتها ومغرياتها وعظمائها وسلاطينها ويظهر صدق قول هذه الكلمة في الفعل والتطبيق ليس كمن هذا الذي يقول : « الله أكبر » لكنه لا ينتهي عن المعاصي فحين تقول له وتضع الله بينك وبينه لأجل الله أُترك العمل الفلاني لانه عمل سيء أو قم بالعمل الفلاني فهو عمل حسن وتُثاب عليه تراه لا يأبه بما تقول ولكن إذا طلب منه ذلك من يخافه من الناس ويخشى سطوته أو من يعطيه مالاً أو منصباً على عمله تراه يفعل ذلك مباشرةً ودون تأخير أو ينتهي عما يَطلب الإنتهاء منه ، اما في حساب الله وتحذيره منه فلا تجده يأبه فمثلاً لا يعي كلمة « الله أكبر » ولا يقولها بصدق .

يُروى عن الإمام الصادق (ع) حديث مفاده : انه حين تقول : « الله أكبر »

---

(١) أصول الكافي .

(٢) في كتاب « الكبائر » الذي قلّ نظيره ، بقلم السيد الشهيد آية الله دستغيب (عليه الرحمة) هناك شرح مفصل حول الكذب في الحديث وأقسامه والموارد التي يُجوّز فيها الكذب ، ويمكن مراجعة ذلك فيما بعد الصفحة ٣٥٥ من الطبعة الأولىٰ .

فيجب ان تعلم ان جميع الموجودات والمخلوقات من العرش وحتّى البساط (من السمٰوات إلىٰ الأرضين) كلّها صغيرة أمام عظمته سبحانه وإذا لم يعلم الله منك هذا الإدراك فانه يخاطبُك ويقول : أيها الكذاب أتحتالُ عليّ فبعزتي وجلالي لأحرمنّك حلاوة ذكري ولذة وسرور مناجاتي .

وكذلك في قول « الحمدُ لله » فيجب ان ترىٰ وتعلم ان كل نعمة ولطف وجميل هو من الله ومتوقف عليه سبحانه فلذلك كان سبحانه أهلاً للمدح والثناء وفي قول : « سبحان الله » يجب ان تعلم ان الله منزه ومطهر عن كل ما هو متحرك وحي ، وعندما تقول : « لا إله إلاّ الله » فيجب ان تدرك ان لا شيء ولا موجود غيره يليق للعبادة ، وعندما تقول : « استغفر الله » فيجب ان تكون صادقاً في ندمك على ما بدر منك من السيئات والذنوب ومصمماً ومعاهداً نفسك على إصلاح ذاتك في المستقبل وعندما تقول : « إياك نعبدُ وإيّاك نستعين » أي نعبدك وحدك لا شريك لك ولا نطلب العون إلاّ منك وهكذا بالنسبة لجميع العبارات والكلمات التي ترددها في عباداتك ودعائك ومناجاتك .

وكذلك الحال في ادعاء المنازل والدرجات الدينية فيجب أن لا تفتقد الصدق فيها ، فمثلاً حين تقول : « انني أخشىٰ الله وأرجو رحمته » فيجب ان يكون ادعاءك صادقاً وذلك من خلال دليل على صدق خوفك كأن تتجنب المعاصي والمحرمات وتؤدي الطاعات والواجبات بأحسن ما يُرام ففي تأديتها دليلٌ على صدق رجاء رحمة ربّك .

ان أكثر المؤمنين حينما يُردّدون هذه العبارات والكلمات النورانية علىٰ الدّوام فانهم لا بُد ان ينالوا من مراتب الصدق ولا يحرُمونها ولكن عليهم ان لا يقنعون بما يردّدون ويفعلون من الخيرات والصالحات وبالتالي يكونون راضين عن أنفسهم فيصيبهم داء الغرور والعجب الذي يُفقدهم كل أتعابهم وتهدمُ كل بنائهم الذي بَنُوه ابتغاء وجه الله ومرضاته ، بل عليهم ان يُجهدوا أنفسهم في العمل والعبادة والطاعة ويسعون لبلوغ مرتبة كمال الصدق التي يجاورون فيها

الأنبياء والأئمة والصديقين ، هنا أولاً ، وثانياً عليهم ان يستشعروا في أنفسهم الذلة لله والمسكنة والحقارة والندم والخجل والتقصير والإسراف علىٰ النفس أمام الله سبحانه « وأنا عبدك الضعيف الذليل الحقير المسكين المستكين » وان تقف أمام الله موقف المذنب الذي يعترف بذنوبه ذليلاً صاغراً أمام سيده الحاكم ثم ترجو عفوه وصفحه ومغفرته ورضوانه .

وكلما دعوته ولم يُستجب دعاؤك وتقضىٰ حاجتك فتجد نفسك غير لائق باستجابة الدعاء وقضاء الحاجة أو تجد نفسك محروماً من بساط قربه أُدعوه حينئذٍ وقل : « إلٰهي وربّي أو لعلّك وجدتني في مقام الكاذبين فرفضتني أو لعلّك وجدتني غير شاكر لنعمائك فحرمتني »[1] .

وعندئذٍ التجأ إلى كرمه وفضله بالإلحاح عليه وآسأله اصلاح ذاتك .

هذه هي خلاصة عن صدق الحديث مع الناس وصدق المناجاة مع الله سبحانه .

الصدق في النّية :

اما الصنف الثاني من أصناف الصدق فهو صدق النية أي ان لا يكون هناك داعياً ومحفزاً على أداء العبادات والطاعات أحدٌ سوىٰ الله سبحانه وليس الجزاء والهدف ، وفي الحقيقة ان النية ليست ما يخطر على الأذهان أو يجري علىٰ الألسن كأن تجعل في ذهنك أو تقول بلسانك أصلي الصلاة الفلانية لله أو قُربةً إلى الله تعالىٰ كما هو المتعارف عليه ، انما النية في حقيقتها هي رغبة القلب وتوجهه ونشأة الإرادة الوجدانية ، ولكن إذا كان في هذا الرجاء والأمل والإرادة غاية غير الله سبحانه سواء كانت بالإستقلال أو بالإشتراك فان النية غير

---

(١) من دعاء أبي حمزة الثمالي (عليه الرحمة) المروي عن أمير المؤمنين (ع) .

صادقة ولا خالصة البتة وان العمل القائم عليها باطلٌ غير مقبول إن لم يُؤثم عليه صاحبه[1] .

مقدمات العمل والفعل الاختياريين :

ولبيان وإيضاح هذا الموضوع نقول : ان المرء كلما قام بعملٍ بمحض اختياره فهو بالطبع في البداية وبعد ان يتصور ان لعمله هذا فائدة يرجوها وثمرة يعملها فيتلهف قلبه للوصول إليها فعندئذٍ تحصل الإرادة لديه ولكي يبلغ تلك الفائدة والثمرة نجده يشرع بتنفيذ العمل ومن هذا نستنتجُ انّ لكلّ فعل اختياري أربع ممهّدات أو مقدمات هي التصور ، حصول التصديق بالفائدة المرتجاة ، اللهفة والشوق ، وأخيراً الإرادة .

بعد اتضاح هذا الموضوع نقول أن تلك الفائدة والثمرة التي وجدت وحصلت بدافع الشوق والإرادة فكلما كان الهدف من وراءها هدفاً إلٰهياً تُبتغىٰ منه الآخرة ، فان العمل المنجز عمل صائب وصحيح وخالص كما يعبر عنه من الوجهة الدينية اما لو كانت تلك الفائدة والثمرة من النوع الذي ترتجىٰ من وراءها الدنيا واشباع هوىٰ النفس فان العمل هذا عملٌ باطلٌ موسومٌ بالرياء والمعصية مهما قال بلسانه أو حدّث قلبه بان عمله هذا قام به ابتغاء وجه الله والقُربة إليه سبحانه .

وكذلك إذا ابتغىٰ من وراء عمله فائدتين ، دنيوية وأخروية وإذا كانت لهفته في الوصول إلىٰ الفائدتين وشرع بالقيام به فانه مهما قال أفعله قربةً إلىٰ الله تعالىٰ فان عمله هذا ما يزال رياءً وباطلاً غير مقبول .

وبالمناسبة يجب ان نعلم ان للصدق والإخلاص في النيّة درجات عديدة

---

(١) ذكر هذا الموضوع مفصلاً في بحث الشرك في كتاب (الكبائر) للسيد الشهيد (عليه الرحمة والرضوان) .

وشرحها يتطلب خروجنا عن البحث الذي نحن بصدده .

الصدق في العزم :

كلما عقدت العزم وقدرت ان تتجنّبْ المعاصي وتنتهي عن المحرمات أو تقوم بعمل نافع فيه الصلاح والخير فيجب ان يكون عزمك وقرارك هذا صادقاً جدّياً وإن تردّدت في ذلك أدنىٰ تردّدٍ فان عزمك هذا كاذبٌ لأن التردّد في العزيمة هو خلاف الصدق فيها .

وكلما كان كان العزم قويّاً وراسخاً أكثر كلما كان صدقه أكثر رسوخاً وعمقاً في الوجدان ، مثلاً لو قررت انّك متىٰ ما شُفيت من مرض أصابك أو أغناك الله سبحانه من فضله ورزقه فسوف تقوم بعمل خير تنفع به الناس أو تساعد به الفقراء والمعوزين فيجب ان يكون تصميمك هذا راسخاً وقوياً وثابتاً .

الصدق في الوفاء بالعزم :

أي حينما يحين وقت تنفيذ العمل وانجازه فيجب ان لا تتهاون في عزمك وان تقوم به بنفس العزيمة والهمّة التي صمّمتَ عليها .

في بعض الأحيان يصادف ان الواحد منّا يعزم ويُصمّم على عمل شيء ما على سبيل الخير والفضيلة ويقطع على نفسه عهداً صادقاً علىٰ أدائه والقيام بهذا العمل بشكلٍ جدي لكنه حين يحين أوان التنفيذ وربما أثناء التنفيذ تجد ان هوى النفس وحرصها وشهواتها تغلب عليه فيتهاون ويتباطىء في أدائه وربما يتركه وينقض ما قطع على نفسه من العهد فمثل هذا يُعَدُّ من الكاذبين في عزمهم ، ذلك لان الله تعالىٰ يثني في كتابه المجيد علىٰ الموفين بعهودهم ومواثيقهم إذا عاهدوا وواثقوا فهو تعالىٰ يقول : ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله

عليه﴾[1] فيما يَذُم بإقضي العهود والمواثيق ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعدِ ميثاقه و . . . أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[2] ويقول أيضاً بشأنهم : ﴿ومنهم من عاهَدَ اللَّهَ لَئِن آتانا من فضلِهِ لنَصدَّقَنَّ ولنكونَنَّ من الصالحين * فلما آتاهم اللَّهُ من فضلِهِ بخلوا بِهِ وتولّوا وهم معرضون * فأعقَبَهم نفاقاً في قلوبهم إلىٰ يوم ِ يلقَوْنه بما أخلفوا ٱللَّهَ ماَ وعَدُوه وبماكانُوايكذبون ﴾[3] .

نموذج الوفاء بالعزم :

فديت روحي لأصحاب أبي عبدالله الحسين (ع) الأوفياء الذين كانوا في منتهىٰ العزم الثابت الراسخ بثبات ورسوخ أقدامهم (عليهم صلوات الله وسلامه) والذين كانوا وسيبقون على مدىٰ الدهر مثالاً مضيئاً في الوفاء في العهد والصدق في العزيمة ، هذا الوفاء وهذا الصدق الذي أذهل العالمين وأدهشهم وأغبط أهل الإيمان منهم والأعجب من ذلك هو وقوفهم بين يدي سيّدهم وإمامهم يسألونه : أنحن صادقين بعهدنا إليك يا آبن أمير المؤمنين ؟ وكأنّهم لم يطمئنوا بَعد « بأبي هم وأمي » لوفاء عهدهم ﴿ومَنْ أوفىٰ بعهدِهِ مِنَ ٱللَّهِ فآستبشروا بِبيعِكِم ٱلّذي بَايعتُم بهِ وذلك هو الفوز العظيم﴾[4] فهذا الصحابي (من أصحاب أبي عبدالله الحسين (ع)) ، سعيد بن عبدالله الحنفي يقف كمتراس ودرع أمام أبي عبدالله الحسين ساعة صلاة الظهر في يوم عاشوراء يتلقّىٰ السهام المصوبة من المردة والخونة والعصاة على سيد الشهداء (ع) وهو واقفٌ يصلّي فيكون درعاً له يقيه منها حتى أصابه في تلك اللحظات ثلاثة عشر سهماً أوجدت الجراح في بدنه الشريف وقد ضعف وسقط علىٰ الأرض من كثرة

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ٢٥ .

(٣) سورة التوبة ، الآيات : ٧٥ ـ ٧٧ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .

الجراحات والدم الذي سال منه ومع ذلك يتوجه إلى سيّده وإمامه يقول له : « أوفيتُ يا مولاي » ؟ فيجيبه سيد المظلومين والشهداء : « نعم وأنت امامي في الجنة » .

﴿ومن أوفىٰ بما عاهدَ عليه اللّهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾[1] .

وحقّاً فإن خصائص هؤلاء العظماء هي نموذجٌ تامٌّ للوفاء وقدوةٌ ومثالٌ للمؤمنين .

فهل ان أولئك الذين عقدوا العزم وقطعوا العهد والميثاق وصمّموا علىٰ احقاق توحيد الله وعبادته الحقّة الخالصة والمضيّ علىٰ سبيل الله ورسوله .

هل انهم ما زالوا علىٰ عهدهم وميثاقهم هذا الذي عاهدوا به ، فيشملَهم قول الله تعالىٰ : ﴿إن الذين قالوا ربُّنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا﴾[2] ، وأنشغلوا بما شغلهم به الشيطان ؟

الباطن أفضل من الظاهر :

الذي بقي لم نقلْه هو ان ما في الباطن يجب ان يطابق ما علىٰ الظاهر أي ان يتوحّد الباطن والظاهر في الإتجاه ولا يتضادّا وعندئـذٍ يتحقق الصدق ، ولا يخالُ لأحد ولا يقولنَّ ما دام باطني سلبياً وفاسداً وخرباً لذا ليكُن ظاهري كباطني فاسداً وسلبياً كي أكون صادقاً في حقيقتي وشخصي ولا اكونن كاذباً بأن يكون ما في باطني غير الذي أنا عليه في الظاهر ، كلّا فانّ هذا خطأ فادحاً بالطبع وهو فخ الشيطان الذي ينصبه للإنسان ، بل لعلّه من الواجب ان يبدوَ ظاهر الإنسان بزينة الصلاح والتقوى ثم على مثل هذا الإنسان ان يبذل سعيه لتحسين واصلاح باطنه كي يطابق ظاهره أو ربما يفوقه بالأفضلية والسلام فلو أصبح باطن الإنسان أجمل

(١) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .
(٢) سورة فصّلت ، الآية : ٣٠ .

وأفضل من ظاهره فسيكون موضع مباهاة الله سبحانه وذلك كما ورد في كتاب جامع السعادات في حديث مروي عن المعصوم (ع) إذ يقول : « إذا ساوت سريرة المؤمن علانيته باهىٰ اللّهُ به الملائكة يقول هذا عبدي حقّاً » .

يقول أحد الأجلاء : دلّني أحدهم علىٰ شخص عيونه باكيةٌ في ظلمة الليل الحالك وشفاهه مبتسمةٌ في النهار حين المجالس والإجتماعات وفي هذه المناسبة قيلت ثلاثة أبيات شعرية عربية :

« إذا السّرُّ والاعلانُ في المؤمن السوي — فقد عزَّ في الدارين وآستوجبَ الثّنا »
« فما خالف الاعلانُ سرّاً فما له — على سعيه فضل سوىٰ الكسد والعنا »
« كما خالصَ الدينار في السوقِ نافقٌ — ومغشوشُهُ المردودُ لا يقتضي المنىٰ »

لا ريب في ان العمل إذا خالطه غشٌّ وتسويفٌ في باطنه وكان ظاهره جميلاً ومُغرياً ولا يطابق ما في الباطن ، فانه مردودٌ غير مقبول ، يقذفُ به علىٰ رأس صاحبه .

« لا يشترى القلبُ المتصدأ في سوق القيامة ، انّما المطلوب النقي الذي يخرج من النار سليما » .

(ترجمة شعر فارسي)

وحدةُ الفعل والقول :

ويجب ان نعلم ان من مصاديق وحدة الظاهر والباطن أو تطابق السر والعلانية هو مصداق وحدة الفعل والقول ، أي ان الشيء الذي تقوله يجب ان تفعله وتعمل به « لا أمركم بالشيء حتّى ءأتمر به »[1] وإلاّ فان صاحب القول الذي لا يعمل به يكون من الكاذبين يشمله التوبيخ والتأنيب الإلهي حيث يقول تعالىٰ في كتابه المجيد : ﴿أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم﴾[2] أو قوله

---

(١) من كلام أمير المؤمنين (ع) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٤٤ .

تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتاً عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون﴾[1] .

وفي رواية عن الإمام الصادق (ع) يقول في قوله تعـالى : ﴿إنّما يخشىٰ اللهَ من عباده العلماءُ﴾ يعني بالعلماء من صدّق فِعْلُهُ قولَه ومن لم يصدقْ فِعْلُه قولَه فليس بعالم »[2] .

وعن المفضل بن عمر قال : قُلتُ لأبي عبدالله عليه السلام : بم يُعرف الناجي ؟ قال (ع) : «من كان فعلُه لقوله موافقاً فأثبت له الشهادة ، ومن لم يكن فعله لقوله موافقاً فانّما ذلك مستودع»[3]،أي ان هذا الذي لا يتطابق فعله مع قوله فان إيمانه عارٍ ومهزوز .

هذا هو الصنف الخامس من الصدق أي تساوي الظاهر مع البـاطن وهو أهم من كل الأصناف السابقة وأعزّها وحقّاً انه لأصعب أنواع الصدق ولا سبيل للحصول عليه وبلوغ مرتبه سوىٰ بذل الجهد والسعي واللجوء والتضرع إلىٰ الله سبحانه .

إذن ما العمل ؟ :

إذا قال أحدٌ إذا كان السر لا يتطابق مع العلن ولا يُماثله إذن فان العمـل هذا مجرد عبث ولغوٌ وبلا جدوىٰ أو ثمرة ينتفع بها وهو كالجسد بلا روح وعلى هذا فان تـرك العمل هـو الأفضل ، فمثـلاً هذا الـذي يُصلّي وقلبه غيـر متصل بصلاته ولا يحضرها فما الفائدة المرجوة إذن إن صلّىٰ أو لم يُصلّ أو هذا الذي يقرأ القرآن وهو غافلٌ عن حقائقه وجوهر بياناته فما الفائدة من ذلك أو ذلك الذي

(١) سورة الصف ، الآية : ٢ ـ ٣ .
(٢) أصول الكافي ـ باب صفة العلماء . الحديث الثاني .
(٣) أصول الكافي .

يدعو ربّه أو يتلو دعاءً ومناجاةً وقلبه مودع في الدنيا مشغولٌ بشؤونها وخاصة هذا الذي يستشعر الغنىٰ في نفسه وعدم الحاجة وليس ما يضطره لقراءة الدعاء، فما أثر هذا الدعاء إن تلاه أم لَمْ يتلُه أو هذا الذي يحضر مجالس العزاء الحسيني فيبكي خوفاً من الله أو علىٰ مصاب سيّد الشهداء (ع) في الوقت الذي لا يستشعر قلبه الحزن ولا يتأثر في أعماق نفسه « بل ربما أحياناً يسُر قلبه حين تحل أيام عاشوراء لان أمراً دنيوياً قد آن أوانه ما يسبب له المنفعة والفائدة الدنيوية ، لكنه في الظاهر تجد الدموع تذرف من عينيه ويبكي وليس بكاؤه ودموعه سوىٰ أمرٌ قسري عليه يتصنعه، كالتمارض والتجاهل أي اظهار المرض في الوقت الذي هو سليم صحيح أو اظهار جهلٍ بأمر في حين انه يعلمه ويفهمه » .

وخلاصة القول :

هل يجب ان نترك الأعمال الظاهرية حتّى تماثل الحقيقة الباطنية ؟ وجواباً لكل ما فات وما لخصناه في هذا السؤال هو كلاّ .

فالأعمال الظاهرية هي من الواجبات والمستحبّات التي لا يجب تركها والإستغناء عنها في أي حالٍ من الأحوال ، وإذا شئت ان تنتظر حتّى يتوافق سرُّك وباطنك وينسجم قلبك مع ظاهرك وعلانيتك وتجلس إلى زاوية ولا تعمل حتى يحصل هذا الإتفاق فعندئذٍ ستُحرم من فُرصِ العمل ذلك لانه قلما يتفق ان يحصل تطابق في العمل من أوّله إلىٰ آخره مع القلب والسرّ وبحضورهما ، انما عليك ان تبذل قصارى جهدك وسعيك كي يحصل هذا التطابق والتماثل بين السرّ والعلانية وتخوض غمار العمل وان لم يحصل ذلك بالكامل فالتجأ إلى الله بالدعاء والتضرع بأن يجعل سرّك مثل علانيتك وآعلم ان الله سبحانه في عون كل مقصّر ضعيف ، وسيجعل لك من الحضور القلبي في عملك .

ولو معشارُ الصلاة :

إذا آتفق ان حصل حضور جزئي للقلب وتماثلٌ ضئيل للسر مع العمل الظاهر فربّما أنّ ذلك كافٍ ولعلّه يكون موضع القبول الإلٰهي لهذا العمل ، وخاصة عند الصلاة فمما يروى في الأحاديث الشريفة ان حضور القلب ولو في عشر من الصلاة فان الصلاة مقبولة وقلما تكون هناك صلاة لا يحصل الحضور القلبي في عشرها .

على العموم فان الإستغناء عن العمل الذي تقول به الشبهة السابقة أي عند (عدم اتفاق السرّ مع العلن يجب ترك العمل) انما هو وسوسة شيطانية يبتغي منها الشيطان حرمان عدوّه الإنسان من ثواب العمل وسَوْقِه إلى التعاسة والشقاء وفي خاتمة المطاف فان الأمر ليس أكثر من أن يضحك عليه الشيطان ويقول ان عملك جائز لكنه بلا جدوىٰ ، والأحرىٰ به ان يُجيبه ، بلىٰ فذات هذا العمل الجائز أعمله ولن أتركهُ فربّي سبحانه قادر ان يجعلني من أهل الحقيقة والصدق وحالي كحال الشاعر الإيراني المسلم حين يقول :

« أبكي كثيراً بلا جدوىٰ كالذي يرسم في الماء
لعلي أخرج بهذا الحال من المجاز إلىٰ الحقيقة »
(ترجمة بيت فارسي)

والشيء الآخر ان ربّي كريم ربما يُسامحني ويغض النظر عن فساد سرّي وعيبي ونقصي ولعلّه سبحانه يلتفت إلىٰ ضعفي وعجزي وقلة حيلتي فيرحمني ولا يحرمني فضله وأجره .

إلٰهي قلت أنا الكريم وقد انقطع بك أمل السيئين وما دام كرمك لا زال في البين فان اليأس منك حرام .

وعلى هذا الأساس فان أي شيء يخطر على القلب أو أي كلام يُسمع من هنا وهناك يهدف إلىٰ ترك عمل الخير والصلاح اللائق بكسب السعادة واللجوء

إلىٰ البارىء وطرق بابه فان هذه الخاطرة وهذا الكلام انما هو من وسوسة الشيطان وهوىٰ النفس الذي يوجب الأخذ بهما واتباعهما الحرمان والشقاء في الحياة الدنيا والآخرة والله سبحانه طالما حذّرنا من شر النفس **﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي﴾** ومن الشيطان ووساوسه **﴿إن الشيطان لكم عدوٌ مبين﴾** .

الصدق في المراتب الدينية :

وهو الصنف السادس من الصدق أي الصدق في المراتب والدرجات الدينية والصفات الكمالية للإنسان كاليقين ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والحب والبغض ، والزهد ، والرضا والتسليم ، فلو ان الإنسان المؤمن اتصف بهذه الحقائق المضيئة وكانت لديه مستلزماتها وآثارها فانه لا محالة من الصدّيقين ، والكذب في هذه المراتب كما هو في الفعل والقول أي عدم وجود أثر وصفة من تلك الصفات في الإنسان في الوقت الذي هو يدّعيها .

ولأن كل واحدة من تلك الصفات الكمالية تحتاج إلى شرحٍ طويلٍ ومسهبٍ لذا نكتفي هنا وكنموذج لها بشرح مرتبة اليقين .

« اليقين الصادق والكاذب »

اليقين يعني معرفة الشيء بشكل لا يُحتمل فيه الخلاف والخطأ ودون التردد في أدنىٰ جانب من هذه المعرفة أي القطع والحسم بعلم الشيء ومعرفته .

واليقين بقسمين وهما اليقين الصادق واليقين الكاذب ، والأول كما ورد في ورد في الدعاء « وهب لي يقيناً صادقاً تباشر به قلبي » .

فاليقين الصادق هو اليقين الذي تتجلّىٰ آثاره بسبب قوته واما اليقين الكاذب فهو اليقين الذي لا يترك أثراً بسبب ضعفه وتغلب قوته الوهمية كمثل الذي يحصل عنده يقينٌ ان جسد الميت لا يمكن ان يتوقع منه الضرر والأذىٰ وانّهُ والخشبة اليابسة شيءٌ واحد لأنه لا حركة فيه ، وبحصول مثل هذا اليقين فيجب ان لا يخافَ من الميّت ولكن مع ذلك نرىٰ هذا الشخص يأبىٰ ان يبقىٰ مع هذا الميت في غرفة واحدة ويبيت معه حتى الصباح في هذه الغرفة بينما لا يوجد أدنىٰ خوف من هذا الميت عندما كان حيّاً يرزق ، اما وهو ميت فانه يخاف من بدنه الفاقد للروح ولا يجرؤ على المبيت مع الجسد ولو لساعة واحدة وسبب ذلك هو غلبة القوة الوهمية فيحصل اليقين الكاذب الذي لا يسمح لليقين الصادق ان يترك أثره . .

اما اليقين الكاذب في القضايا الدّينية فهو مثل هذا الذي يحصل عنده

يقين ان اللّهَ رازقهُ وكافِلُه ولكن مع ذلك ترى انه يحمـلُ هموم زرقـه اليومي ، لماذا ؟ وأحيانـاً تراه يهتمُّ ويغتمُّ في حسـاب رزق أيامـه القادمـة وربماً السنين القادمة التي لا يعلم إن كان له عُمرٌ فيها أم لا ، تجده يحمل همّ هـذه السنين كيف سيعيش وماذا سيكون له فيها مع ما يعلم ان .

« كُلَّ من أعطاهُ أسناناً فقد أعطاه خبزاً » . (مثلٌ فارسي)

كل إنسان يعلم علم اليقين ان جميع القضايا والأمور تمضي بقضاء وقدر ومشيئة وإرادة إلٰهية ولكن ترىٰ ان الصبر والرضا والتسليم والتـوكل يكـاد ينعدم لـدىٰ الكثير من النـاس ، تـرى امـا يستلزم اليقينُ بـالقضـاء والقـدر والمشيئـة الإلٰهية ، الإيمان بهذه الأمور والعمل بها ؟ وكذلك . . .

فان كلَّ إنسان يعلم علم اليقين ان الموت لا مفرّ منه وربما تُخطَفُ منـه الروح في أية لحظة ومع ذلك ترىٰ الجميع منهمكين في حرصٍ وبخلٍ وعداوةٍ وفسادٍ وضلالٍ فِلمَ ذلك؟ اما يستلزم اليقين بالموت الداهم ان يزيـل كل هـذه الآفات ؟ وسلام الله علىٰ أمير المؤمنين إذ يقول : « مـا رأيت يقيناً لا شـك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت » أي انه (ع) يريد بان عمـل الناس وحـالَهم وانشغالهم بأمـور الدنيـا عن الآخرة كمن يشـكُّ بالمـوت أي انهم لا يقين لهم بالموت بتاتاً ، فإذا ما تَفحّصنا في أحوالهم وأعمالهم وشؤونهم يتبين لنا ان حال وعملِ أكثر الناس هو كحال وعمل ذلك الذي لديه يقين انه لن يموت وسيـظل خالداً في الدنيا .

والذي يستيقن بوجود عالم الحساب والجزاء ووقوع يوم القيامة وصحيفة الأعمال ويعلم يقيناً ان ذرة عملٍ في الخير أو الشر لا بد من ان يحاسب عليها وينـال جزاءهـا فان هـذا اليقين يستلزم عليه المـواظبة الشـديدة ومـراقبة نفسـه والتدقيق في أقواله وأعماله ، وان هذا العمل الصعب بالقيامة والمعـاد والنشور والحساب انما يستوجب الرهبة والخوف ولكن ما معنىٰ كل هذا الإنحلال وحمل الأوزار واللامبالاة وعدم التقيد والرجس والفساد ؟

الخوف علامة الإيمان :

روي ان اعرابيّاً جاء إلى الرسول (ص) بعد إسلامه ، فأمر الرسول (ص) بعض أصحابه ان يُعلموه شيئاً من القرآن وبعد ان تعلم وحفظ سورة الزلزلة ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ قال يكفيني هذا ثم التفت إلىٰ رسول الله (ص) وسأله : وهل سأسأل عن هذا الذي هو بقدر الذرة يوم القيامة ؟ ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثال ذرة شرّاً يره﴾ فقال له رسول الله (ص) : بلىٰ .

فصرخ الاعرابي وصاح قائلاً : « وافضيحتاه » .

فقال رسول الله (ص) ما معناه : « ان الإيمان قد دخل قلبه » .

أي ان حالة الخوف هذه التي ملأته وبانت عليه لهي أعظم شاهد ووثيقة علىٰ إتّقاد شعلة الإيمان ونور اليقين بالمعاد في قلبه .

وعلى العموم فان هذه الأسئلة وأمثالها كثيرة وخلاصة مفاد هذه الأسئلة هو هل يوجد اعتقاد ويقين بمثل تلك الأمور أم لا ؟ فان لم تكن موجودة والعياذ بالله يكون الجميعُ كفّاراً وان كانت موجودة إذن أين هي الآثار والمستلزمات التي يجب ان تترتب عليها ؟

ان الجواب على هذه الأسئلة هو ان أصل الإعتقاد موجودٌ ولكن العلة تكمن في ضعف الجانب الروحي والمعنوي وغلبه وقوة الجانب الحيواني والمادي هو الذي غطىٰ على علائم وآثار العقيدة اضافة إلى ان الأصل العقائدي ذاته ضعيف ومتزلزل بالشكل الذي يكاد فيه يندثر ويزول ، لذلك كلما آندثر وطُمس الجانب الروحي والمعنوي في الإنسان وصار كالحيوانات فلا شك ان الإعتقاد ومسألته العلمية واليقينية وسوف لن تبقىٰ في قلبه وعقله ويصبح كالبهيمة وربما أدنىٰ وأسفل منها ﴿أولئك كالأنعام بل أهم أضلّ﴾[1] ، ذلك لانهم لم

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

تعد لهم قلوب منورة بالإيمان يعقلون ويفهمون بها وهذا مصداق قوله تعالىٰ : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾[1] وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿أم علىٰ قلوب أقفالها﴾[2] .

اما العلاج فانه يتوقف علىٰ تقوية وترسيخ الجانب الروحي والمعنوي للإنسان بحضور مجالس الوعظ والإرشاد والهداية باستماع المواعظ والإرشادات التي تُتلىٰ من على منابرها والتركيز على ذكر العالم الباقي (الآخرة) والتقليل من الجانب الشهواني وكمح جماح الهوىٰ النفسي ومسايرة ومخالطة ومجالسة الأشخاص الذين يُذكّرون الإنسان بالآخرة ، ذوي الروحيات والمعنويات العالية وتجنّب أولئك الذين هم على الضدّ منهم أي الراكنين إلى الدنيا وشهواتها والذين لا أمل لهم بالآخرة والذين يعبدون المادة ويجعلون منها هدفهم الأول والأخير .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ .

(٢) سورة محمد (ص) ، الآية : ٢٤ .

« المتقون في جوار ربهم »

اما النقطة الثالثة التي ذكرناها والتي تحتاج إلى تسليط ضوء أكثر فهي ما وردت في ختام سورة القمر الشريفة إذ يقول تعالىٰ بعد إشارته إلى مقعد الصدق : ﴿عند مليك مقتدر﴾ ، وكلمة عند أي بمكان قريب منه ، والقرب اما ان تكون مكانية أي يراد المعنىٰ بالتجسيم بحسب المكان أي قرب جسم آخر ، أو القرب المعنوي والروحي الذي لا صلة له بالتجسيم والمكان الحيّز .

ولا ريب ان المراد بالقرب هنا هو المعنىٰ الثاني أي المنزل والمقام وليس المكان والجسم كما هو في عقيدة بعض الضّالة .

فالمتقون عند الله وليس « استغفر الله » المكان الذي فيه الله ، فالله سبحانه لا يحده زمان ولا مكان وتعالىٰ شأنه عن ذلك ، فليس يعني ذلك انهم يجلسون إلى جنب المكان الذي هو موجود فيه ، بل ان المعنىٰ المراد هو من حيث الدرجة والمنزلة ، أي القرب بمعنىٰ المكانة والمنزلة وليس المكان ذا الأبعاد الثلاثة ، أي ان المتقين في منزلة قريبة إلى ربّ العالمين فهم مقرّبون مجلّلون محترمون وذو شأن ومنزلة رفيعة وموضع العناية والرعاية واللطف الإلهي .

أهمية التقرب إلى العلماء الرّبانيين :

ان الإقتراب والقرب المنظور والمهم هو القرب الروحي ، فبعض نساء النبي (المعني بعائشة) كانت أقرب إليه من حيث اقتراب الأبدان ، ولكن هذا القرب لا اعتبار له من حيث القُربة الروحية ولو كان لذلك اعتبار وقيمة لكان ذلك يشمل أبا جهل وأبا لهب ومن هم من أمثالهم من المشركين والمنافقين فقربة كهذه لا تشفع فأولئك كان قريبين في المكان والنسب لرسول الله لكنَّ حديثه (ص) ومواعظه ونصحه ودعوته إياهم للتوحيد وترك الشرك لم تكن تنفع معهم ولم يكونوا يفقهونها وفي الواقع فاننا لو نظرنا إلى المسافة بينه وبينهم من حيث هذا المنظار فانها ستكون آلاف الأميال بينما لو نظرنا إلى قرب الرجل الجليل أويس القرني (رض) فهو علىٰ الرغم من بعده مئات الأميال عن رسول الله (ص) إذ أنه كان في اليمن ولم يَرِ رسول الله (ص) في كل عمره مرة واحدة ولكنه من حيث القرب المعنوي والروحي من المقربين جدّاً لرسول الله (ص) فهو بعد ان طوىٰ تلك المئات من الأميال قاصداً زيارة رسول الله (ص) والتبرك بالنظر إلى وجهه الكريم والإستماع إلى قوله الشريف والقصة معروفة فانه لم يتوفّق لذلك الشرف العظيم وأُمنية الشائقين التائقين ، ولكن مع هذا حين عاد رسول الله (ص) إلىٰ بيته شاهد نوراً ظاهراً وفي رواية أخرى شمَّ ريحاً من ريح الجنّة فسأل (ص) هل جاء أحدٌ ؟ فقيل له : جاء رجل وقال إنّه أويس ، فقال (ص) جاء أويسٌ وأودع نوره في بيتنا وسيأتي إلى هنا بعد وفاتي فمن يراه يُبَلّغْهُ عني السلام ، وفي رواية ان أويساً (رضوان الله عليه) سيشفع يوم القيامة وحين الحشر لقبيلتين من كبريات القبائل العربية وهما « مضر والأزد » وينجيهما من النار .

الغاية مما أشرنا إليه هو القرب الروحي والمعنوي ، فهو انما يكون بحسب ووفق المكانة والمنزلة وليس المكان التجسّمي وإلاّ فان وضع أويس معلوم بالبعد المكاني عن الرسول والحال انه فاز بتلك المنزلة والمقام الرفيع ،

مقام القرب من الله ورسوله (ص) ومعروف ان أويساً (رض) كان يقاتل بطلاً بين يدي أمير المؤمنين (ع) في حرب صفين وقد سقط فيها شهيداً مخلّداً وقد أصبح قربه الروحي من رسول الله (ص) مضرب المثل إذ قيل : « إذا كان قلبك معي فلا ضير انِ تكون في اليمن » .

ربما والله أعلم أن هذا الإنسان قد تقرّب إلىٰ الله بدرجة وبلغ مقاماً عند الله لم يبلغه أي ملك مقرّب .

ألحبيبُ عندَ ٱلحبيب :

ورد في تفسير أبي الفتوح الرازي ومنهج الصادقين بشأن تفسير هذه الآية الشريفة أي قوله تعالىٰ : ﴿في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾ رواية مفادها ان موسى كليم الله (ع) كان في أحد الأيام ماشياً في طريقه إلى جبل الطور لمناجاة ربّه فشاهد رجلاً فقيراً ضعيف الحال والهيئة جالساً إلىٰ زاوية وقد غطىٰ عـورته بخرقة بالية رافعاً يديه إلى السماء ، يناجي ربّه ويقول : « إلٰهي انك تنـظر إلىٰ حالي ووحدتي ، لا أحد لي ، فقيراً محتاجاً لرحمتك » .

ثم مضىٰ موسىٰ (ع) بعد ذلك في طريقه وحالما وصل إلى الجبل سمع مناد الله يقول له : حينما ترجع إلى أهلك أبلغ سلامي هذا! العبد الفقير الـذي رأيته وقل له ، انك لست وحدك فأنا جليسك وأنيسك وكلما شئت وأردت مني فاطلبه فأنا كافلك ووكيلك .

فلما عاد موسىٰ من ميقات ربّه ومناجاته وأبلغ هذا الفقير ما حمّله الله من التحيات لم يكد هذا الرجل يُصدّق مـا سمعته أُذنيـه من بلاغ نبيّ الله فتعجب وقـال : « أحقّـاً يـا مـوسىٰ ان إلٰهي وربّي ، ربُّ العـالمين يقـرأني الســلام والتحية ؟ » .

أنا العاجـز الشقي ، ترىٰ إلىٰ هـذا المقام أوصلني عملي حتى أستحقّـه وأكون أهلاً لأن يجيبني ربّي في تضرّعي إياه سبحانه ؟ ثم شهق شهقةً من لهفته

وشوقه وفارق اثرها الحياة .

فذهب موسىٰ (ع) إلىٰ قومه (بني إسرائيل) يخبرهم كي يقوموا لتشييع جثمان هذا العابد المتقي فلما أتوْه لم يجدوا أثراً لجنازته ، فسأل موسىٰ (ع) ربّه : إلٰهي أين جثمانُ عبدك الفقير هذا ؟ فبلغه الهاتف الإلٰهي : إن الحبيب يقرب حبيبه أي انه ﴿في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر﴾ في محل ومقام مكرمٍ عند الله تعالى .

مقام محبّي عليّ (ع) :

جاء في المنهج عن الثعلبي وهو من مفسري العامّة في رواية عن جابر بن عبدالله الأنصاري أنه قال : كان رسول الله (ص) جالساً في المسجد في أحد الأيّام فسأله بعض الأصحاب عن الأوضاع في الجنة وأحوالها فقال (ص) : إن لِلهِ لواءً من نور وعموداً من زبرجد خلقها اللّهُ تعالى قبل ان يخلُقَ السمٰوات والأرض بألفي عام مكتوب على رداء ذلك اللواء : « لا إلٰه إلّا الله ، محمدٌ رسول الله ، وآلُ محمد (ص) خير البرية صاحب اللواء إمامُ القوم » فلمّا سمع أميرُ المؤمنين (ع) هذا الكلام من النبي قال : « نشكر الله تعالىٰ الذي هدانا بك وكرّمنا وشرّفنا ، فقال رسول الله (ص) بما يستفاد : « يا علي ، كل من أحبّنا وآنتسب إلينا بمحبّتنا أعطاه الله منزلة كمنزلتنا وهو رفيقنا يصحبنا ، ثم تلا (ص) قوله تعالىٰ : ﴿في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر﴾

المليكُ المقتدر :

ان خلاصة معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿في مقعد صدق عند مليكٍ مقتدر﴾ هو ان أهل التقوىٰ سيكونون في مقام حسنٍ وكريمٍ وان القرب إلى ملك الملوك وسلطان السلاطين ، ربّ العالمين يمكن للجميع ان ينالوه ويصلوا إليه بعملهم واخلاصهم وطاعتهم الموسومة بالتقوىٰ بحقّها وحقيقتها .

المليك : هي الصيغة المبالغة لكلمة « الملك » أي الملك المطلق الذي لا يحتاج أدنىٰ احتياج من أي مخلوق بل إن جميع الموجودات والمخلوقات معلولةٌ له وبحاجة ماسة ودائمة لا تنقطع إليه سبحانه .

والمقتدر : هي الأخرى الصيغة المبالغة للقادر أي انه قادرٌ قديرٌ على كلّ شيءٍ ويستحيل العجزُ عليه ولو بمقدار ذرة منه .

وبمناسبة ذكر هاتين الصفتين الجليلتين لا بأس ان نشير إلى المنزلة العظيمة للمقرّبين ، فكما نعرف في دنيانا هذه الفانية والدار العاجلة كيف بإمكان الشخص المقرب من سلطان مقتدر ان يستفيد من قدرته بقربه هذا فيتمتع هو أيضاً بشيء ونصيب ربما يكون كبيراً من سلطته وقدرته أي يكون هو أيضاً ذا قدرة وسلطة ويمكنه ان يقوم بأيِّ شيء يريد وتنفيذ أي رغبةٍ في نفسه حتى يضحىٰ نتجية ذلك موضع غبطة البعض من الناس وحسد البعض الآخر منهم .

كذلك هم المتّقون في الآخرة في عالم الخلود والحقيقة يمكنهم ان يستفيدوا ويتمتّعوا بالقدرة اللامنتهية لبارىء الخلائق الملك المطلق السرمدي الأبدي ، فيكونَ لهم كلّ ما شاؤوا ورغبوا ﴿لهم ما يشاؤونَ عند ربِّهم﴾[1] وان عظمة وسلطان المتيقن لا يمكن ادراك حجمه والإحاطة بحدوده .

ولمعرفة المزيد عما يتمتع به المتقون من السلطان والقوة والطاقات الخارقة في الآخرة يمكن العودة إلى الآيات الكثيرة التي تتحدث عنهم بهذا الخصوص ومنها ، قوله تعالىٰ : ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً ومُلكاً كبيراً﴾ وكذلك في الأحاديث الشريفة عن المعصومين (ع) ومنها حديثهُ (ص) إذ يقول : « إن أهل الجنة ملوك » .

ولعل بعض هذه المعجزات والخوارق ما يكون لهم نصيب منها في الحياة

---

(١) سورة الزمر، الآية : ٣٤ .

الدنيا حيث تظهر لهم بصورة الكرامات الباهرة .

ولعل كتب الروايات، قد ذكرت الكثير عن المعاجز والخوارق التي كانت لدى الأنبياء والأولياء والقدرات الهائلة التي منحها الله إياهم وكذلك الكرامات التي تمتع بها الصالحون والمتقون وأحبَّاء الله ، وكلها كانت مظاهر من القدرة الإلٰهية التي لا تنتهي ظهرت على أيديهم (سلام الله عليهم أجمعين) .

وخلاصة القول ان جميع القدرات الإلٰهية التي منحت للأنبياء سيتمتع بها المتقون في الجنة ، لذلك يجب ان نسعىٰ جميعاً وجَهْدَ امكاننا ان نبلغ تلك المنازل السامية الرفيعة عند الله سبحانه ولنا ان نقول كما قال الشاعرُ الإيراني :

كنت أستهوي الملُك فعبدتُك وفي أمل السيادة كنت خدمتك

والله وليُّ التوفيق وصلىٰ الله على سيِّدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين .

انتهت ترجمته بتوفيق الله تعالى .

عبد الحسين المعمار


الفهرس

الفصل الأول

الموضوع	الصفحة

الموضوع .... الصفحة

الفصل الثاني

الموضوع .... الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

الموضوع	الصفحة

الموضوع .... الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع .... الصفحة